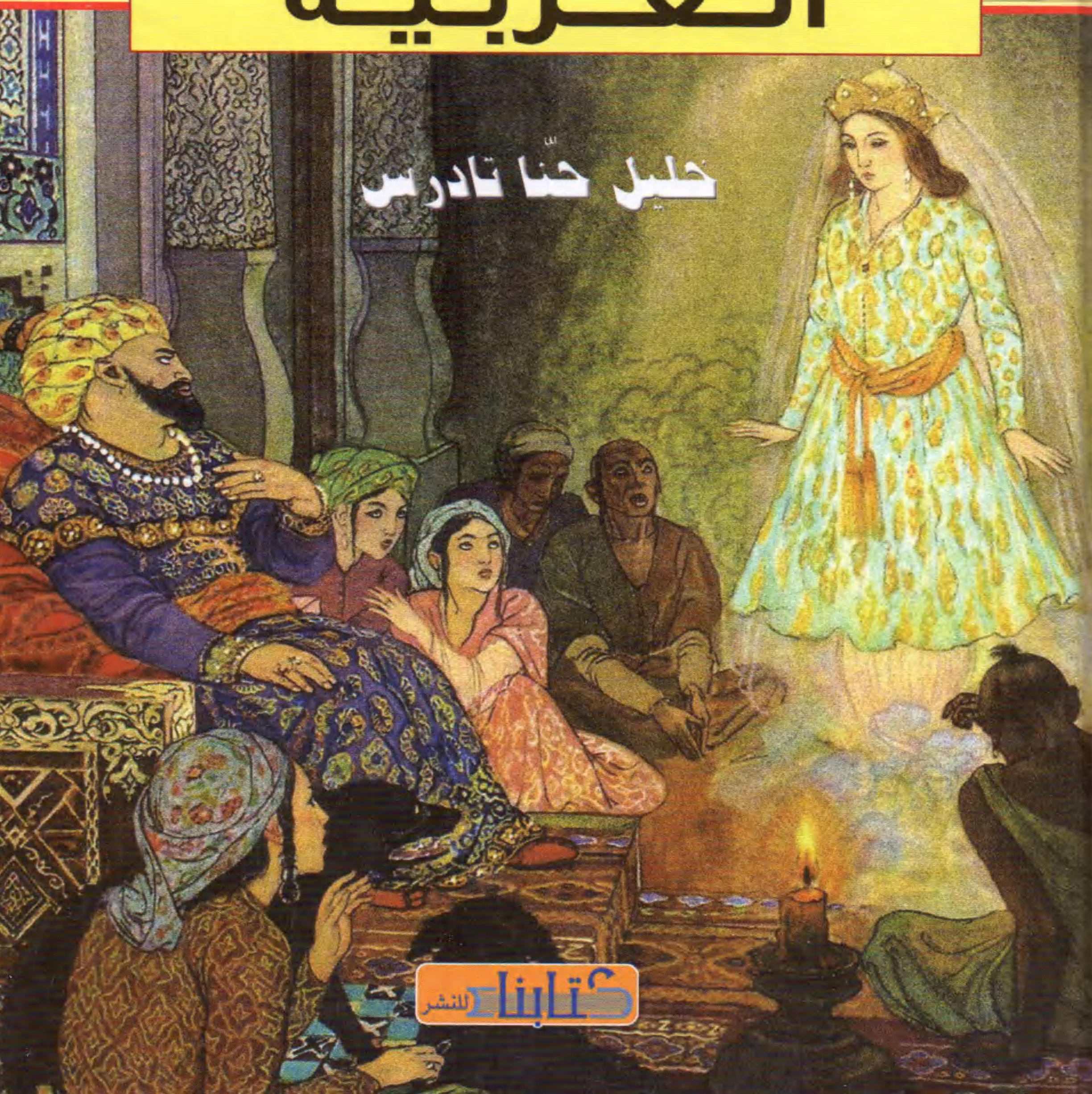
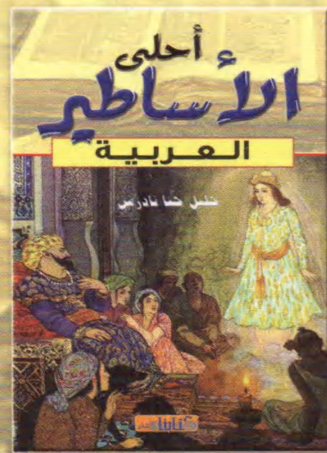
أحلى الأساطير العربية

خليل حنّا تادرس



كتابنا للنشر



أحلى الأساطير العربية



احتلت الكتابة مكانة كبيرة في حياة الشعوب العربية، فأبدعوا في حياكة أفكارهم ليقدموا أساطير متميزة تتناول: الوفاء، الشجاعة وحلاوة اللسان. كلّها مواضيع تتسلّل الى حياتنا اليومية. فكم جميل أن نقرأ قصصاً عشناها ربما ولو حتى في خيالنا.

هذا الكتاب يعيدنا بالذاكرة الى الوراء، الى مرحلة تختلف بناسها وأفكارها، يعرّفنا على شعب عربي مميز.

فلكي لا تبقى الكلمات حبراً على ورق، المطلوب قليلاً من الإرادة للقراءة والاستمتاع بأحلى الأساطير العربية.

الناشر

ISBN 978-614-430-018-3

9 786144 300183

كتابنا للنشر

أحلى
الأساطير العربية

أحلى
الأساطير العربية

تـــأليف

خليـــل حنـــا تـــادرس

كتابنا للنشر

الطبعــة الأولى
2013م

كتابنا للنشر

ISBN 978-614-430-018-3

لبنان: المنصورية (المتن)
ص.ب.: 269 – المنصورية (المتن)
هاتف/فاكس: 00961/4/532255 جوّال: 00961/3/629910
E-mail: kitabouna@yahoo.com
www.kitabouna.com

طبع في لبنان

مُقدِّمة

عزيزي القارئ؛

تحياتي لك.

سبق لي أن قدمت لك مجموعة شيقة من كتب الأساطير وقد قامت بإصدارها دار « كتابنا » للطبع والنشر والتوزيع ببيروت، وهذه الكتب وهي أحلى الأساطير العالمية، والأساطير الإغريقية، والأساطير الهندية، والأساطير الفرعونية، والأساطير التوراتية، وقد لاقت هذه المجموعة نجاحا باهرا.

ولقد عاهدت نفسي أن أقدم لك يا عزيزي القارئ مجموعة أخرى من هذه الأساطير..

أرجو، بل أتمنى أن تلاقي هذه الباقة التي بين يديك بعض الاستحسان، والإعجاب كما شعرت أنا بكثير من المتعة والاستحسان عندما اخترت هذه الأساطير من بين عشرات الكتب.

وختاما..

أرجو أن أكون قد وفقت فيما اخترت، وأكون قد وفقت فيما قصدت.

وشكرا لدار « كتابنا » التي أتاحَتْ لي هذه الفرصة الذهبية بنشر هذه المجموعة وطباعتها في صورة رائعة جميلة، تليق أن تزين بها مكتبتك الثمينة.

وإلى اللقاء؛

خليل حنا تادرس

أسطورة وفاء زوجة

كان يعيش وحيدًا في قريته بين أهله وعشيرته. كان شابًّا أعزبَ لا زوجة له ولا أولاد. ليس له من الأصدقاء سوى قلائل لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة.

كانت الحياة بالنسبة له مملة؛ العمل لا يدرُّ عليه سوى مبالغَ قليلة لا تكاد تكفيه، وأبواب الرزق أمامه مغلقة مسدودة، والدنيا مظلمة في وجهه. لقد ظل أيامه ولياليه يبحث هنا وهناك ولكن بلا جدوى. لقد أصبح يعيش في يأس، بلا أمل. إنه لا يدري ماذا يفعل، إنه إذا اقترض اليوم دينارا من صديق له كي يقتات به، فغدا لا يستطيع أن يقترض منه ثانية، وراح يفكر ويفكر، ماذا يفعل.

ولهذا فقد سافر في طلب المعيشة. وقال في نفسه إنه لا ينبغي أن أعود إلى أهلي إلا بثروة تقوم بشؤوني. وترفع من مقامي وإذا لم يكن ذلك فإن الغربة أولى بالفقير من وطنه.

وسافر الشاب حتى وصل الى بلدة يحكمها أمير شهم كريم، وصار ضيفًا عنده. ثم أخبر الأمير بأنه قدم من بلده لطلب الرزق والمعيشة. فرحب به هذا الأمير واتفق معه على أجر سنوي معين ليعمل لديه في استقبال الضيوف وتقديم الطعام والشراب إليهم، والقيام بجميع ما يحتاجون إليه، ما داموا في ضيافة الأمير.

وتعهد الشاب بهذا العمل وفرح بهذا الأجر، وباشر عمله بجد

ونشاط وإخلاص ومثابرة. وكان عمله هذا يقتضي منه أن يكون على صلة دائمة بالأمير وزوجته.

وكانت زوجة الأمير مؤدبة مهذبة، رقيقة المشاعر، ساحرة الألفاظ ممشوقة القوام، عذبة الابتسام، وكان كل من خاطبته أعجبته وظن أنها قد أحبته. وبحكم كثرة احتكاك هذا الشاب الخادم بسيدته أعجب بها. كما أن لطفها ولين حديثها جعلا الخادم يتصور أنها تحبه، فأحبها هو بدوره بناء على ذلك التصور.

وأسر هذا الحبَّ في نفسه مترقبا الفرصة المناسبة لإظهاره وجني ثماره.

وانتظر الشاب حتى خلا بزوجة مخدومه ورأى أن الفرصة مؤاتية لبثِّ ما يشعر به وطلبِ ما يريد. تردد قليلا، ولكن الرغبة دفعته إلى قول ما يريد قوله وطلبَ ما يريد طلبه. وقال لسيدته: «يا سيدتي، إنني معجب بك، وقد قادني هذا الإعجاب إلى أن أحبك، وأرجو أن تسمحي لي بقبلة».

ونظرت إليه المرأة متعجبة من جرأته ومندهشة من طلبه، وقالت له: «إنَّ الوقت الآن غير مناسب، فدعْ هذه الأمور إلى وقت آخر».

وأصبح الصباح وذهب الشاب لعمل القهوة على عادته وجلس سيده بجواره في انتظار إنجاز القهوة. وجاءت السيدة إلى زوجها فخاف الشاب أن تخبر الزوجة زوجها بمحاولاته ومراوداته لسيدته.

وتكلمت الزوجة مع زوجها. وقالت: «إن هذا الشاب قال لي البارحة...»؛ وعندما ذكرت الزوجة القول والبارحة أيقن بأن هذه الزوجة سوف تفضحه وسوف تكشف ستره. فخجل وتضاءل في نفسه وأيقن بالشر.

وواصلت الزوجة حديثها بأن الخادم قال لها إن ركّاباً مروا بالأمس يعرفون أباه وقبيلته، وقد أخبروه بأن والده مريض بمرض عضال، وأنه يريد أن يرى ولده قبل أن يغادر هذه الحياة.

وقد استحى منك أن يكلمك في هذا الموضوع، وترك لي هذه المهمة. فقال الأمير إن هذا عذر مشروع ونحن نسمح له بالسفر.

وفرح الشاب بهذه النتيجة على مرارتها، وبعض الشر أهون من بعض، وحمدَ الله أن أمره لم ينكشف لسيده. وجهز السيد راحلة بجميع معداتها وكسوة ونقودا فأعطاها الشاب. كما أن الزوجة كذلك أعطته نقودا وهدايا لأهله.

وسافر الشاب لا إلى أهله، بل إلى مدينة بعيدة عن أهله. وعندما وصلها استأجر بيتا صغيرا، ثم باع راحلته وجميع الأشياء التي كانت معه وجعلها نواة للتجارة. وافتتح حانوتًا صغيرًا، وصار يبيع ويشتري، وثروتُه تزداد يوما بعد يوم. ثم رأى أن التجار الكبار يستوردون بضائعهم من الهند، فجمع جميع ما لديه وسافر إلى الهند فاشترى ما فيها من بضاعة ثم جاء بها وباعها، وكسب فيها ربحا عظيما شجعه على العودة إلى الهند مرة ثانية واشترى بضاعة أكثر، وباعها وكسب منها أرباحًا طائلة. وظلَّ كذلك حتى أثرى وصار من تجار تلك البلدة الذين يشار إليهم بالبنان.

وأراد أن يستقر، فتزوج ورزق أولادا. وركز تجارته في أصناف معينة ارتبط بتجارها في الهند فصار يراسلهم بما يريد منهم، وهم يبعثون إليه ما يريده.

وتوسعت تجارته وقامت على قواعد متينة من الأمانة والاستقامة والجد والمثابرة.

وخلا الرجل بنفسه ذات يوم وتذكر أيام شبابه، وتذكر فيما تذكر سيده الذي استخدمه وزوجته التي راودها عن نفسها، ثم شهامة الزوج وشهامة الزوجة. وما أعطوه من أموال كانت هي الأساس والبذرة الزكية لهذه التجارة الكبيرة التي يتمتع بثمارها الكثيرة المتعددة الجوانب.

وقال في نفسه إن لهذا السيد الكريم والزوجة العفيفة علي حقًّا كبيرا لابد من الوفاء به.

واشترى الشاب سيفا مغطّىً بالذهب وبندقية من أحدث الأسلحة وكسوة فاخرة لسيده؛ أما السيدة فقد اشترى لها حلية من الذهب الخالص، واشترى لها كسوة من أفخر ملابس النساء.

ثم حمّل عدة رواحل أنواعا من الهدايا من رز وحنطة وتمر وسمن وقهوة وشاي وسكر، ثم رحل متوجها إلى سيده في قافلة كبيرة يحوطها الخدم والحشم، وواصل سيره إلى البلدة التي يسكنها سيده سابقًا.

وعندما وصل إلى البلدة، قصد بيت الأمير الذي كان يعيش فيه فترة من الزمن، ولما حل بفنائه أراح رواحله. وأحس الأمير بتلك الحركة غير العادية، فخرج وإذا هو يرى الركب الحافل بكل ما يروق ويعجب فرحب بهم.

ثم خصص الأمير لضيوفه جناحاً من قصره، وأدخل رواحلهم وقدم لهم العلف، وأدخل ضيوفه وأوقد النار وعملت القهوة والشاي وذبحت الذبائح. وعندما حان وقت الطعام قدمت للضيوف الكرام تلك المائدة العامرة بما لذ وطاب من أطايب الطعام.

وأقام الضيف عند مضيفه مدة ثلاثة أيام والمضيف لا يسأل ضيفه عن

شيء، كما أن الضيف لم يبح بشيء من خيره. وعندما انتهت مدة الضيافة ثلاثة أيام، قدَّم الضيف إلى مضيفه تلك الهدايا والتحف والأطعمة، كما قدَّم باسم زوجة الأمير تلك الجواهر والحلي الذي يبهر العقول ويدهش الناظرين.

تعجب الأمير من هذه الهدايا الثمينة التي لا يعرف لها سببا معقولا، لأنه لم يعرف الشاب، فقد كان يعهده فقيرًا ضئيلا. أما الآن فقد ظهرت عليه آثار النعمة، وحفت به أبهة الثراء.

وسأل الأمير ضيفه عن هذه الهدايا الكثيرة وعن أسبابها، فقال الشاب إنني أنا الذي كنت عملت لديكم منذ عدة سنوات، وقد أعطيتموني وأكرمتموني بما لا أستحقّ، وقد صار ما أعطيتموني إياه نواة لثروة كبيرة أملكها الآن وأتمتع بمنافعها. وقد رأيت أن من واجب الوفاء، مقابلة الجميل بالجميل، مع أن الفضل للمتقدِّم، ولي كلمة أحبّ أن أقولها بيني وبين سعادة الأمير.

وأخلى الأمير المجلس فلم يبقَ فيه إلا الأمير وضيفه. وقصَّ عليه الشاب قصته مع زوجة الأمير، ثم أثنى على عفافها وشهامتها وكرمها.

فقال الأمير: "إنها امرأة عفيفة وشريفة عليها رحمة الله، فقد توفيت منذ وقت قريب وهديتك لها مقبولة، وإذا وافقتَ أن نقسمها على بناتها فعلنا".

فحزن الشاب على وفاة تلك السيدة العفيفة، ووافق على اقتراح الأمير، ووزعت الهدايا على بناتها.

حفظ الله الأحياء وبارك فيهم وتغمد الله الأموات بواسع رحمته

وكريم إحسانه.

ثم عاد الشاب إلى بلده حزينًا، كئيبًا، وبقي ذلك الأمير يذكر وفاء هذا الشاب في كل مناسبة، وعفاف زوجته في كل لحظة، ويتذكر أيامه الحلوة الجميلة معها، ويذكر ابتساماتها التي كانت تضيء له سماء حياته وتملأ أيامه بالسعادة والهناء والسرور.

أسطورة
دهاء امرأة

عرفها أهل القرية بأنها امرأة مكافحة، مناضلة، تعيش بمفردها بعد أن مات زوجها وترك لها ثلاثة أطفال لم تتزوج بعد وفاته وراحت تعول نفسها وأطفالها، رفضت جميع من تقدَّم بها من رجال، ولم تسمح لنفسها أن تسير في طريق الخطيئة وتبيع نفسها بأبخس الأثمان.

كان الكل يحبها، وكان لها أصدقاء من الرجال والنساء؛ حتى أطفال القرية كانوا يحبونها ويلعبون مع أطفالها. وكانت تعيش في أمن وأمان وفي سعادة وهناء. كانت تستيقظ صباحا تشتري السمك من الصيادين وتعود إلى منزلها تشوي ما تشويه، وتقلي ما تقليه ثم تذهب إلى السوق كي تبيعه وجبة شهيَّة ومعه بعض السلطات والخبز للرجال والنساء بأسعار زهيدة، ثم تعود إلى بيتها تطعم أطفالها وتنظف بيتها وتغسل ملابسهم.

وهكذا كانت حياتها اليومية.

كانت جميلة، وكانت أنثى كلها حيوية ونشاط ومرح وسعادة.

لم تبخل يوما على أحد في إقراضه بعض المال أو تقديم وجبة شهية له ولأطفاله بلا مقابل. لقد كانت كريمة، لذا كان الكل يحبها.

وذات يوم..

عادت إلى بيتها، وتناولت طعامها مع أطفالها، ثم أرقدتهم في فراشهم وراحت تقصُّ عليهم حكاية قبل النوم حتى يستسلموا إلى نوم هادئ جميل. وبعدئذ..

ذهبت إلى مطبخها الصغير، وأوقدَتِ النيران ووضعت فوق النار «الطاسة» مملوءة بالزيت، وتركَتِ الزيتَ يسخن ثم يغلي كي تضع فيه السمك.

وبينما هي أمام الموقد إذ سمعت حركة غير عادية خلفها.

سمعت صوت خطوات قادمة خلفها. لم تخف، ولم تضطرب، ولم تهتزَّ لها شعرة رأس ولم تجزع.

إنها تعلم جيدًا أنه ليس في العالم كله من يحاول أن يمسَّها بسوء، لأنها كانت تحب الجميع والجميع يحبونها. ظلت واقفة في ثبات ولم تتحرك. تقدمت الخطواتُ نحوها، ورأته رجلاً تبدو على ملامحه الوحشية والإجرام، ممسكًا بسكين يلمع نصلها.

حدَّقت فيه جيدًا وهي تسأله:

- ماذا تريد؟

وحدق الرجل فيها جيدًا، وقال:

- ألا تخافين مني؟

وقالت المرأة في هدوء:

- ولماذا أخاف منكَ؟

وقال الرجل في وحشيَّة:

- لأني سوف أذبحك إن لم تطاوعيني.

وقالت المرأة في هدوء أيضًا:

- وكيف أطاوعك؟

- أن تعطيني كل ما عندك من ذهبٍ ومال.

صمتت المرأة لحظة؛ ثم ابتسمت له في دهاء قائلة:

- هذا شرط بسيط جدًّا. سوف تأخذ كل ما تريد عن طِيب خاطر مني، ولن أبخل عليك بأيِّ ثمن.

نظر إليها الرجل مستنكرًا ما سمع. إنَّ امرأة غيرها سوف تصرخ وتستغيث، أو سوف ترفض وتناضل، ولكنها لم تفعل شيئا، بل قالت له:

- إنه يبدوٍ عليك التعب والإرهاق. اهدأ، اهدأ يا عزيزي، سوف تحصل على كلِّ شيء بلا أي مجهود تبذله، بل والأكثر من ذلك، سوف تتناول من هذا السمك الشهي.

حدَّق الرجل فيها غير مصدِّق. واستطردت تقول له وهي تبتسم في هدوء:

- إنك شاب جميل ولطيف، ولست بهذه الوحشية التي تبدو فيها؛ إنك إنسان طيب وشريف، وعظيم، وأي فتاة أو امرأة تتمناك يا عزيزي. إنك لست شريرًا ولست لصًّا. أنا أعرف ذلك جيدًا، أعرف أنك لست لصًّا، بل شابٌّ لطيفٌ مهذبٌ.

وراح الشاب ينظر إليها في عجب؛ بل راح يحدق فيها باشتهاء. إنها امرأة جميلة، وهو إنسان محروم من الحب، ومن الجنس، ومن كل شيء. لماذا لا يروي عطشه منها؟ لماذا لا يغتصبها؟

وفي لحظة، قرأتِ المرأة كلَّ ما يجول بخاطره، ولكنها لم تهتزَّ ولم تخف، بل نظرت إليه وابتسمت له في إغراء أكثر وهي تقول له:

- نعم، إنكَ شابٌّ لذيذ وقويّ، وسوف تأخذ كل ما تريده مني عن طِيب خاطر وفي طواعية؛ المال والذهب، حتى أنا أيضًا. ولكن قبل كل شيء دعك من هذه الوحشية وألق بسلاحك في الأرض واجلس هنا على المقعد، كي أقدِّم لك من هذا السَمك اللذيذ.

ولكنه لم يجلس ولم يلقِ بسلاحه، ولم يصدِّق ما يسمع، ولم يفهم ماذا تريد هذه المرأة أن تصنع.

هل سوف يحصل حقًّا على ما يريد؟

هل يحصل على المال والذهب؟ وهي أيضًا يا لها من امرأة غريبة!!!..

وهمَّ أن يحتويها بين ذراعيه والسكين في يده، ونظرت إلى طاسة الزيت، والزيتُ يغلي فيها بشدة إلى درجة عالية من الغليان، وحدقت فيه بشدة، وتوالت أيضًا على ذهنه الأفكار بشدة.

وفجأة...

أمسكت المرأة بمقبض الطاسة ورفعتها من على الموقد، ووجهتها نحو وجهه وقذفتها بعنف فوق وجهه، فصرخ صرخة قوية اهتزت لها جدران المنزل ووقعت السكين من يده وهو يضع كلتا يديه فوق وجهه المحترق وعينيه اللتين أصابهما الزيت المغلي وهو يصرخ ويصرخ، ويحاول أن يهرب، أن يفرَّ قبل أن يتجمع الناس ويقبضون عليه.

ولكن أين المفرّ؟

وكيف يهرب وقد أفقده الزيت المغلي نور عينيه؟

وتجمع الناس عند سماعهم الصراخ، وأقبل الجيران وعرفوا الحقيقة.

وارتمت المرأة في إعياء وهي تبتسم في انتصار.

وقُبض على الرجل بعد أن أشبعه الرجال والنساء ضرباً وركلا وجرًّا خارج المنزل يقودونه إلى قسم البوليس كي ينال عقابه وينال ثمن إجرامه.

أسطورة زوجة مخلصة

هذه قصة شاب في ريعان شبابه توفي والده ولم يترك له شيئا، فاضطر الشاب أن يبحث عن عمل كي يعيش منه فلم يجد، فقرر الرحيل إلى بلد أخرى يبحث فيها عن الرزق. وسافر إلى إحدى مدن ساحل الخليج، وبقي يعمل فيها أيَّ عمل يرى فيه كسبا ومصلحة مهما كان هذا العمل وضيعًا، فهو في بلد لا عارف ولا معروف، ولا يمكن أنهم في يوم من الأيام يتخذون من عمله مجالا للطعن فيه أو الانتقاص من مكانته.

وظلَّ في هذه المدينة عدة سنوات جمع فيها ثروة لا بأس بها. وفكر في الزواج، فرأى أنه لا يمكن أن يجد زوجة تندمج معه في دار الغربة، فقرر العودة إلى بلاده لتكوين بيت وإنشاء أسرة.

اشترى لنفسه ملابسَ فاخرةً وراحلة أصيلة، واشترى لها معداتٍ جميلة. وامتطى راحلته ورافق بعض المسافرين الذين يتجهون إلى حيثُ يتجه. ووصل إلى بلده واستأجر دارًا نظيفة جميلة، أثَّثها أثاثًا كاملا. وفتح بابه للصحاب والزائرين، وجعل في داره منتدى للشباب والشيوخ على السواء. وصار ينفق بسخاء وكرم حتى لفت أنظار بني وطنه، وحتى ظنوه ينفق من ثروة لا يحصيها العدّ.

وأراد أن يتزوج، وكانت له عمة كبيرة في السن، فذهب إليها وأخبرها برغبته وطلب منها أن تبحث له عن زوجة ذات أصل وجمال. فوعدته عمته خيرا. وغاب عنها فترة ولم يشعر في يوم من الأيام إلا بعمته ترسل إليه رسولا فتيقن أنها وجدت طلبته.

وذهب إليها مسرعًا، فلما قابلها قالت له: وجدتُ لك الزوجة الجميلة الأصيلة الذكية الوفية الصابرة. فقال ومن هي؟

فقالت: إنها فلانة بنت فلان، وهي شابة في ريعان الشباب نشأت في بيت أبيها وفي حضانة امرأة غير أمها. والشابة إذا نشأت في حضانة زوجة الأب كانت شقيَّة، وإن توفرت لها جميع متطلباتها في الحياة.

ومثل هذه في الغالب إذا تزوجت تعلقت بزوجها مهما كانت الظروف. لا تحاول في يوم من الأيام أن تعود إلى بيت لا ترعاه والدتها.

فسرَّ الشاب بهذه الأوصاف. ولكنه قال لعمته:

- يا عمتاه وهل يقبلني والدها وهي من كبار أهل البلد وأثريائها؟ وأنا كما ترين صعلوك، لا أرتكز إلى ثراء ثابت.

فقالت العمة:

- حاول وأعمل الأسباب فلعلك توفق إلى باب مفتوح، فسمعتك في البلد طيبة، وأنت شاب في مقتبل العمر، وأمامك مستقبل مشرق إن شاء الله.

فاقتنع الشاب بكلام عمته وذهب إلى والد الفتاة، وسلم عليه بحفاوة. وقال له يا أبا فلان إنه ليس كثيرا، فقد أحببت القرب منك ومصاهرتك، وإنني أتقدم إليك بخطبة ابنتك. فاستقبل الرجل كلامه بارتياح ولكنه لم يعطه كلمة جازمة، بل طلب منه فترة من الوقت يأخذ فيها رأي ابنته.

فشكره الشاب على لطف مقابلته، ورجا أن يكون راغبا ومرغوبا فيه. وخرج الشاب وهو بين اليأس والأمل، وبقي ينتظر بضعة أيام.

ثم عاود الكرَّة وجاء مسلِّما على والد الفتاة فاستقبله هاشًّا باشًّا وقال إنني موافق على خطبتك لابنتي ففرح الشاب. وبدأت الأسرتان في التحضير للزواج وقدم الشاب لأهل الفتاة مهرا يتناسب مع مكانتهم الاجتماعية، وإن كان فوق طاقته المالية وتم كل شيء ودخل الرجل بزوجته في بيت أبيها ثم نقلها إلى بيته.

عاش الزوج بجوار زوجته أسعد عيشة، وهو ينفق مما تبقَّى لديه من المال بكرم وسخاء. ثم تقلص المال الذي في يده لأنه كان يبذر ماله تبذيرا، وكل درهم ينفقه لا يأتي بدله. ونفدَ ما في يد الرجل وضاقت عليه المعيشة. فعادت الأسرة إلى التقشُّف، ولكن حتى عيشة التقشف تضاءلت وبقي الزوجان معدمين.

وقالت الزوجة لزوجها، لابد أن تبحث لك عن عمل تكسب منه القوت ولو الضروري. فقال الزوج إنني أربأ بنفسي عن الأعمال الصغيرة، ولا يسمح أن أنحدر بعد أن كنت عاليا، أما الأعمال الكبيرة الشريفة التي أريدها فإنني لا أرى شيئا منها، ولذلك فليس أمامنا إلا الصبر حتى يفتح الله لنا بابا من أبواب الرزق.

صبرت الزوجة وتحملت فوق طاقتها، فقد باعت أسورتها وباعت بعض ما لا يحتاجونه من أثاث البيت، ثم لم يبق أمامها شيء تبيعه ليقتاتوا منه.

وأعادت الكرَّة على زوجها، ولكنه كان قد استحلى الراحة والهدوء، واستمرأ عيشة التخلي عن الهموم والواجبات. أما موضوع نفقات البيت فهذا شيء لا يشغل باله فهو يترك الأمور تسير على طبيعتها، ويمنِّي نفسه بأن الأيام القادمة سوف تفتح له بابا من أبواب الرزق.

ولكن الأماني والآمال لا تضمن لأسرة شؤون حياتها.

وأخيرا يئست الزوجة ورأت أن تعمل من جانبها ما تستطيع عمله لضمان لقمة العيش.

وكان لها صويحبات يذهبن إلى الحقول ويجمعن شيئا من أعشابها ثم يأتين بما جمعن فيبعنه في السوق على أرباب المـواشي، ويأخذن قيمته فيتصرفن فيها. وقالت هذه الزوجة لصويحباتها متى تذهبن إلى الصحراء؟ فقلن لها إننا نذهب بعد صلاة الفجر مباشرة. فقالت المرأة إذا أردتن أن تذهبن غدا فاقرعن على بابي فإني سوف أرافقكن. فرحبت الفتيات بمرافِقتهن.

واستعدت المرأة وجهزت المعدات. وجاء الموعد فطرقن عليها الباب، فأخذت معدات قص الحشائش وخرجت مع صويحباتها بينما كان زوجها يغط في نوم عميق.

ولما انتصف النهار كان هؤلاء النسوة قد جمعن من الحشائش ما يستطعن حمله فأخذنه وجئن إلى المدينة، فأما ذوات المواشي منهن فقد ذهبن بحشيشهن إلى بيوتهن وأما المحتاجات إلى ثمن الحشيش فقد جئن به إلى السوق وعرضنه للبيع. فجاء أرباب المواشي واشتروا هذا الحشيش من صويحباته.

وباعت الزوجة الحشائش في أول يوم بمبلغ لا بأس به بحيث اشترت بثمنه ما يلزمها في يومها من دقيق وتمر وسمن.

واستمرت على هذه الحالة فترة من الزمن، وزوجها سادر في كسله وسهراته ونزواته مع أصحابه لا يفكر في شيء، ولا يهتم بشيء ويعلق مستقبله بالآمال العذبة التي تراود فكره، ولكنها آمال طال انتظارها

دون أن تتحقق.

وجاءت زوجته ذات يوم بالحشائش، فتأخرت في بيعه وكان لوالدها مواش. وكان والدها من جملة الذين يشترون هذه الأعشاب ولكنه لا يفرغ من أعماله إلا في وقت متأخر من النهار، فإذا فرغ من أشغاله جاء إلى السوق واشترى حملين أو ثلاثة من هذا الحشيش ثم طلب من كل واحدة أن تحمل حملها وتتبعه به إلى البيت لتضعه في المكان المعد له ثم تأخذ قيمته.

وجاء والد هذه الزوجة ذات يوم فوجد ثلاث ربطات مع ثلاث نساء، فساومهن في حشيشهن واتفق معهن على الثمن. وقال لهن: اتبعوني بالحشيش. فحملت كل واحدة حشيشها ثم تبعته. وكان في جملتهن بنت هذا التاجر التي كانت تبالغ في إخفاء نفسها، ولا تُظهر من أعضائها أي شيء يدل عليها.

وجاءت النساء الثلاث فأفرغن ما يحملن من حشائش في المكان المعتاد. ثم نقد لكل واحدة منهن قيمة حشيشها. وكانت زوجة هذا الغني قد مرت بهؤلاء الفتيات الثلاث ونظرت إليهن وعرفت بحاستها السادسة أن ابنة زوجها مع هؤلاء الفتيات.

وجاء الليل وخلا التاجر بزوجته، فقالت له وهي تحادثه: ألا تدري أن ابنتك واحدة من الفتيات اللواتي اشتريت منهن الحشائش في هذا اليوم؟

فسمع الزوج هذا الكلام فاستغربه واستبعده، وقال إن هذا لا يمكن أن يكون.

فقالت الزوجة: إنني واثقة أن ابنتك إحداهن. فقال الزوج: أنا لا

أصدق هذا الكلام، فزوج ابنتي في غنى عن أن يستعمل زوجته في مثل هذه الأمور.

فقالت الزوجة: إن الكلام الذي أقوله لك حقيقة لا شك فيها.

فقال الزوج: إذا كانت ابنتي معهن فإنها لابد أن تعود إلى بيع الحشيش مرة ثانية وسوف اكتشف أمرها.

وجاء اليوم الثاني. وجاء الوالد كالمعتاد لشراء بعض الحشائش لمواشيه، فوجد الفتيات الثلاث وكان من جملتهن ابنته فساومهن في حشيشهن واتفق معهن على الثمن وطلب من كل واحدة أن تحمل حشيشها وأن تتبعه إلى البيت ففعلن ووضعن الحشائش في مكانه المعهود.

وجاء دور دفع الثمن، ودفع للأولى والثانية، وابنته ليست واحدة منهما. وجاء دور الثالثة فدفع لها قيمة الحشائش، وأحس إحساس الوالد الذي لا يكذب أن هذه الثالثة هي ابنته ولكنه لم يشعرها أنه عرفها، وذهبت الفتاة في طريقها.

جاء الزوج إلى زوجته وقال: "لقد صدقتِ، إنها ابنتي ولا حول ولا قوة إلا بالله. إنني لا أدري ما الذي اضطرها إلى هذا العمل الشاق الذي هي في غنى عنه، ولكن لعلها الحاجة التي تدفع الإنسان في بعض الأحيان إلى أن يعمل ما لا يتناسب مع مكانته، ولعل زوجها يتظاهر بالغنى وهو فقير".

ودعا هذا التاجر أحد أعوانه وقال له: أرجو أن تحضر لي بعد العشاء إلى بيتي ومعك حمار عليه برذعة، فلبّى هذا التابع نداء سيده وجاء في الموعد المحدد ومعه الحمار فوقه البرذعة.

فحمَّل التاجر هذا الحمار كيسا من الحنطة وقلة من التمر ووعاء من السمن وأكياسًا صغيرة فيها قهوة وسكر وشاي. كما أنه جعل في أحد الأكياس صرة من النقود. وطلب من تابعه أن يذهب بهذه الأشياء في جنح الظلام، ثم يدق باب البيت الذي فيه ابنته، فإن وجد الباب مفتوحا فليضع هذه الأشياء بداخل البيت ثم ينصرف دون أن يعرفوه أو يعرفوا من أرسل هذه الأشياء.

ولبَّى التابع هذه الأوامر، وذهب إلى البيت فوجده مفتوحا فأدخل الحمار بهدوء ثم أنزل ما عليه في الدهليز. فلما انتهى أعاد الباب إلى ما كان عليه وخرج.

وكان الزوج يسهر مع بعض رفاقه في تلك الليلة، ولما جاءت الساعة الثالثة جاء إلى داره ليأوي إلى زوجته الصابرة الوفية. وعندما فتح الباب ودخل في البيت الذي كان يخيِّم عليه الظلام ارتطمت قدماه بكيس من تلك الأكياس، فتحسَّسه فإذا هو كيس ضخم، ثم لمس بجانبه قلة التمر ثم التمس الأكياس الأخرى وعلم بما فيها بطريق اللمس.

وكانت زوجته لا تعلم بشيء من هذه الأمور فصعد إليها في سطح المنزل وهو يكاد يطير من الفرح وزف إليها البشرى، وقال: لقد رزقنا الله من حيث لا نحتسب. فقالت الزوجة: وكيف؟..

فقال الزوج: لقد وجدتُ في داخل دارنا كذا وكذا من الأطعمة وأنا لا أعرف عنها أي خبر ولا شك أنه رزق ساقه الله إلينا، فقد عرف حالنا ولطف بنا.

فنزلت الزوجة مسرعة مستبشرة وأوقدت النار في سعفة نخل حتى

أضاءت مدخل الدار فرأت الكيس والقلة والأكياس التابعة لهما ففكرت في الأمر مليًّا ثم قالت لزوجها:

- إن السَّماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة، وكل شيء في هذه الحياة له سبب، فالأسباب مربوطة بمسبباتها، وهذا الذي تراه من الأطعمة هو من والدي.

لا شك أنه عرف بطريق الصدفة ما نحن فيه من فاقة وعوز فشق عليه ذلك وأحب أن يمدنا بحاجتنا دون أن نشعر. وما دام الأمر وصل إلى هذا الحد فإنني لا يمكن أن أستمرَّ في جمع الحشائش من الحقول، كما أننا لا يمكن أن نبقى عالة على والدي. إننا يجب أن نعتمد على أنفسنا مهما كلفنا ذلك. وأنت يا زوجي العزيز مخيَّر بين ثلاثة أمور.

فقال الزوج بوجل شديد: وما هي الأمور الثلاثة؟

فقالت الزوجة: الأول أن تلقي عن نفسك رداء الكسل ثم تعمل أي عمل يدر عليك رزقا مع صرف النظر عن الناس وأحاديثهم.

قال الزوج: والأمر الثاني؟

فقالت الزوجة: أن ترحل حالا من هذه البلد إلى أي بلدة أخرى تستطيع فيها كسب القوت والاستغناء عن الناس.

فقال الزوج: والأمر الثالث؟

فقالت الزوجة: أن تطلقني فأذهب إلى بيت أبي فيقوم بشؤوني.

فقال الزوج لزوجته الوفية: إنني أريد أن تعطيني مهلة إلى الغد لأفكر في الأمر وأختار أحد هذه الأمور الثلاثة.

وأمهلته الزوجة، وجاء الغد. وجاء الزوج إلى زوجته وقال لقد اخترت الرحيل عن هذه البلدة ولكن على شرط أن ترحلي معي.

فقالت الزوجة: إنني معك إلى أي مكان ترى فيه مجالا للعمل وكسب الرزق.

واتفق الزوجان وبدأا في الاستعداد للسفر. وبعد أيام قليلة كان كل شيء قد تم. فلما جاء جنح الليل حملا أمتعتهما وما يلزمهما في السر على رواحلهما ثم انطلقا في طريقهما إلى تلك المدينة التي على ساحل البحر، والتي كسب الزوج فيها ثروته الأولى.

جدًّا في السير حتى وصلاها، فاستأجرا بيتًا متواضعًا وسكنا فيه وقالت الزوجة لزوجها: إنني في هذه البلدة غريبة لا أعرف ولا أعرف ولذلك فسوف ألزم داري وعليك أن تتحرك لطلب الرزق.

فقال لها زوجها: «ولا يهمك» إنني في هذه المدينة غريب لا يمكن أن أُعاب بأي عمل أقوم به ولذلك فإنني سوف أقوم بأي عمل أرى فيه كسبًا للزرق.

وصار الزوج يروح ويغدو إلى امرأته وقد اكتسب أجرًا يقوم بشؤونهما ويوفران منه.

وكانت هذه الزوجة بارعة الجمال إلا أنها عفيفة وشريفة ومحافظة. وعلم بعض المترفين بجمالها فأحب أن يراها وأحب أن يصادقها، وأرسل إليها من يعرض عليها هذا الأمر ويغريها بشتى المغريات، ولكنها رفضت جميع العروض بكل إباء وشمم. وقالت إنني لست لهذه الأمور وليست لي هذه الأمور، كما إنني لا أحب أن أسمع كلاما من هذا

النوع. وقابلت المرأة التي بلَّغتها بهذا الكلام مقابلة جافة عرفت منها أنه لا مطمع في المرأة.

وعادت واسطة الشر إلى مرسلها وأخبرته بما قالت وما قيل لها، فازداد تعلق هذا الثريّ المترف بهذه المرأة الغريبة الجميلة الممتنعة واشتدَّ هيامه بها وجعل يفكر في حيلة يصل بها إلى هذه المرأة.

وأخيرا هداه التفكير إلى أن يرقب زوجها في الليل فيعرف متى يخرج ومتى يجيء. وعرف أوقات مجيئه؛ فهو يخرج بعد صلاة العشاء وبصورة مستمرة ثم يعود إلى بيته في الساعة الرابعة ليلا، هذا برنامج حياته في جميع الليالي.

فقرر الرجل أن يتسلل إلى هذه المرأة في هذا الوقت الذي يغيب فيه زوجها ليلا.

وتسلَّق إليها من السطح؛ فلما رأته بهتت وقامت من مرقدها وقالت له: من أنت وماذا تريد؟

فقال لها بصوت خفيض إنني الرجل الذي أرسلت إليك فرفضت جميع ما عرضته عليك. والآن أنا جئتك بنفسي ولا مجال للرفض ولا مجال للتهرب، فأنا لم أخاطر وآتي إليك إلا وأنا مصمم على نيل ما أريد.

ورأت المرأة نبراتِ العزم والتصميم في كل كلمة يقولها، وأيقنت أنه لا مجال للهرب منه ولا مجال لرفع الصوت لإيقاظ الجيران ولا مجال لصد رغبته الجامحة التي دفعته إلى هذه المخاطرة.

ولكنها أحبت أن تعيد عليه ما كانت قالته إلى المرأة التي أرسلها سابقًا وهو أنها ليست لهذه الأمور وأن هذه الأمور ليست لها. فقال الرجل:

لقد وصلت إليك الآن ولابد من بلوغ مأربي.

فلما رأت المرأة أن لا محيص لها قالت إذاً اسمح لي أن أدخل الحمام لأتنظف. ومشت من أمامه وكأنها متجهة إلى الحمام، ولكنها بدل أن تذهب إلى الحمام ذهبت إلى المطبخ فأخذت فأسًا كانت تستعمله لكسر الأغصان وتكسير الحطب وجاءت به تخفيه بين ثيابها.

وأقبلت على الرجل فظن أنها قد رضيت واستسلمت لرغباته، واستجابت للإغراء الذي وعدها به. فلما قربت منه وهي هادئة الأعصاب متزنة الحركات، وصارت في المكان الذي يصل فيها الفأس إلى رأسه، أخرجت الفأس بسرعة ثم أهوت به على رأسه فضربته ضربة كانت هي القاضية، فتمدد الرجل والدماء تنزف من رأسه وقد اختلطت تلك الدماء بدماغه الذي وصلت إليه الفأس ومزقت أغشيته.

وذهبت المرأة بالفأس فنظفت ما علق به ووضعته في مكانه. ثم عادت إلى المغامر القتيل فجرته من رجليه وجعلته بجانب أحد الحيطان وألقت عليه فراشا قديما باليا ليستر منظره البشع، واستلقت المرأة على فراشها.

ولما جاء موعد مجيء زوجها كانت قد رسمت خطة للخلاص من هذه الجثة الفاجرة المعتدية.

وجاء الزوج فأخبرته زوجته بهذا الرجل المعتدي وبما جرى منه وما جرى عليه. وقالت لزوجها: إنَّ بقاء جثته في دارنا قد يجلب علينا شرًا. والرأي عندي أن نلف جثته في فراش قديم إذا انتصف الليل وأن تحمله على رأسك فتذهب به إلى المقبرة وتلقيه في أحد القبور ثم تأتي إلى هنا في حذر وحيطة.

بهت الرجل من حادثة القتل وداخله رعب شديد وحساب للعواقب. وقال الرجل لزوجته: إنني لا أستطيع حمله. كما أنني أخشى أن يراني أحد وأنا أحمله فنقع في ورطة لا خلاص منها، بل إن نتائجها هي الموت المحقق. فهذا الشاب القتيل لا شك أنه من أبناء كبار البلد الذين لا نستطيع أن نأخذ منهم حقا ولا باطلا.

سمعت الزوجة هذا الكلام فاسقط في يدها. وأعادت القول على زوجها بأنه لابد من الخلاص من هذه الجثة.

فقال: إنَّ هذه مشكلة لم أتدخل في أولها ولا يمكن أن أتدخل في آخرها.

فقالت المرأة وقد كاد اليأس يستولي عليها: إذا فما رأيك؟ فقال الزوج: لا رأي لي في هذا الأمر.

وفكرت الزوجة تفكيرًا جديًّا في الأمر ورأت أن زوجها لا نفع فيه ولا غناء. ولابد أن تعمل هي ما تراه سبيلا للخلاص من هذه الورطة.

فجاءت بسكين وقطعت الجثة أوصالا صغيرة. فقطعت اليدين ثم الرجلين ثم فصلت الرأس عن الجثة ثم جمعت هذه الأوصال في جوال من الخيش وربطت أعلاه. فلما انتصف الليل حملت هذه الجثة على رأسها وطلبت من زوجها مرافقتها فامتنع وقال: إنني لا يمكن أن أجازف بنفسي وأعرضها لأخطار لا طاقة لي بها.

فحملت الزوجة ذلك الجوال الذي يحوي رفات ذلك العاشق الفاجر وسارت به في طريقها إلى المقبرة، وهي تنظر بحذر عن يمينها وشمالها ولكنها نظرات عادية لا يظهر من خلالها أي خوف أو ارتباك. وقد كان

من حسن حظها أنها لم تلق أحدا في طريقها.

ووصلت إلى طرف من أطراف المقبرة وخشيت أن يكون فيها بعض الزائرين الشاذين أو بعض الحراس الواعين. وكان بالقرب منها في جانب المقبرة كومة من الحجارة، فجاءت تمشي حتى صارت عندها. فوضعت الجوال من فوق رأسها، ثم نظرت يمينًا وشمالاً، وشرقًا وغربًا فلم ترَ أحدًا. وحمدت الله على أنه ستر عليها. ولكنها عندما أرادت حمل الجثة للتغلغل بها داخل المقبرة ورميها في أحد القبور المهجورة، لم تشعر إلا بشخص يقبل من بعيد يسير مسرعا في اتجاه المكان الذي تجلس فيه فأوجست في نفسها خيفة، وقالت: لقد وقعت.

أملت أن ينحرف الرجل عن قصده إليها ولكنه استمر حتى قارب الوصول إليها ولم يبق أمامها إلا الهرب، وهذا لا سبيل إليه لأن الهرب لا ينجيها بل يكشف أمرها أكثر فأكثر. إذاً فلا سبيل إلا إرهاب هذا الرجل الذي جاءها قاصدًا.

وحلَّت رباط الجوال الذي فيه الجثة وأخذت يد الجثة فرمت بها الرجل فضربته، فأخذها ووجدها يد ميت فألقاها بعيدا واستمر في سيره في اتجاه المرأة. فأخذت ساق الميت وقذفتها به لعله يظنها من أهل المقابر أو يظنها من الجان فيهرب. ولكنه أخذ الساق ونظر إليها ثم ألقاها بعيداً عنه وتقدم إلى المكان الذي تجلس فيه المرأة. فأيقنت أنها وقعت لا محالة وأن جريمتها سوف تكتشف بدون شكّ، لكنها أرادت أن تبلغ بالمحاولات أقصاها حتى لا تلوم نفسها على التفريط أو الإفراط.

وعندما قرب الرجل منها دحرجت عليه رأس الجثة فذهب يتدحرج إلى أن صار بين رجليه. فأزاحه برجله وتقدم قليلا وقال: أسألك بالله

هل أنت إنسية أم جنية؟ إنني لا أرب لي فيك، وإنما هناك رهان، وجائزة إذا أنا دققت هذا الوتد عند كومة هذه الحجارة. فأخبر بأمرك.

فقالت المرأة: وهل تحفظ السر؟ فقال: نعم.

فقالت له: إنني إنسية. والذي جاء بي إلى هذا المكان الموحش في هذه الساعات المظلمة هو كذا وكذا وكذا. وقصت عليه اعتداء هذا الشاب المترف عليها وتسلقه الحيطان إلى دارها وكيف كانت نهايته.

فوعدها الرجل بكتمان هذا السر، كما أنه تعاون معها على جمع تلك الأعضاء المتناثرة ووضعها في الكيس كما كانت. ثم تساعدا في حملها إلى أن وجدا قبرًا مهجورًا فألقياها فيه وأهالا عليها التراب ثم انصرفا.

وقال الرجل للمرأة: إنني سوف أسير خلفك عن بُعد لحراستك حتى تصلي إلى بيتك.

فشكرته المرأة وصارت في طريقها إلى بيتها والرجل يتبعها من بعيد حتى وصلت إلى باب دارها فدخلته.

ويقي هذا الشاب الذي ساعدها بالقرب من الباب قليلا ليطمئن إلى أن كل شيء قد عاد إلى مجراه الطبيعي. ولكن المرأة عندما دخلت إلى بيتها وجدت زوجها ينتظرها وقد امتقع لونه واشتدت دقّات قلبه وأخذ منه الرعب كل مأخذ. ثم أنه كان لاحظ أنها عندما أقبلت كان يسير خلفها رجل يسرع بسرعتها ويتمهل إذا تمهلت، فدبت في نفسه عوامل الغيرة.

وسألها عن الرجل، فقالت: إنه رجل شهم ساعدني على مواراة الجثة، كما أنه رافقني لحراستي حتى وصلت إلى البيت بسلام.

وظن الرجل في زوجته مختلف الظنون، كما أنه خشي من عواقب جريمة القتل.

وقال لزوجته بغضب الجبان وانفعاله:

- إنني سوف أسافر صباح الغد إلى بلد أخرى وقد تتأخر عودتي إليك.

فقالت: وهل أسافر معك؟

فقال: لا، لأن سفرنا جميعا قد يلفت إلينا الأنظار.

فقالت: ومتى تعود؟

فقال: لا أدري.

فقالت المرأة: إنه لا مجال لسفرك وحدك وتركي وحدي، وأمامك أحد ثلاثة أمور اختر واحدا منها.

فقال الزوج: وما هي؟

فقالت الزوجة: إما أن تسافر بي معك إلى حيث تريد. وإما أن تردني إلى بيت والدي. وإما أن تعطيني ورقة طلاقي فأتصرف أنا في شؤوني وأدبر أمري بنفسي.

فقال الزوج: أعطيني فرصة للتفكير.

وفي الصباح كان زوجها قد فكر وهو يقظ كما فكر وهو نائم، واتخذ قرارًا اطمأنت إليه نفسه الذليلة الحائرة، وهو أن يطلق زوجته ويغادر هذه المدينة لئلا تنكشف جريمة القتل فيقع معها مشكلة عويصة قد تكون نتائجها السجن المؤبد أو القتل.

فكتب ورقة الطلاق لزوجته وشد رحاله مغادرا هذه المدينة تاركا زوجته المطلقة وحيدة لا راعي لها إلا الله.

وكان الشخص الذي ساعدها على مواراة الجثة قد سمع طرفا من الخصومة بين الزوج وزوجته وتوقع أن تنتهي بالطلاق، فكان يمرّ بالبيت الذي فيه هذه المرأة فلا يرى زوجها. وأخيرا تأكد أنه سافر وأن زوجته في دارها، فبعث إليها إحدى قريباته، وأوصاها أن تعرف له خبر زوجها وأسباب سفره ومتى يعود.

وذهبت المرأة ودقت الباب ففتح لها ودخلت فوجدت المرأة وحيدة لا أنيس لها. وجلست عندها فترة من الوقت ثم قالت: إنني أستأذن في الخروج لأنني أخشى أن يأتي زوجك.

فقالت: إن زوجي قد سافر وإلى غير رجعة فقد طلَّقني وتركني في بلاد الغربة.

فقالت لها الزائرة: إن الله لن يضيعك فهو رفيق بعباده ولن يقطع من الجانب إلا ويصل من جانب آخر.

ثم أردفت قائلة:

- إنني أستأذنك في الخروج وسوف أعود إليك غدًا وأبقى عندك مدَّة طويلة.

وخرجت المرأة من عندها وذهبت إلى قريبها فأخبرته أن زوج المرأة طلقها وسافر إلى مكان لا تعرفه زوجته المطلقة، كما أن هذه المرأة من وصفها كيت وكيت.. وسردت عليه أوصافها.

فأعجب بها أيما إعجاب، وقال لقريبته: زوريها غدا وأخبريها أنك قريبتي، وأنني أنا الشخص الذي رأيتها في المقبرة وأنني أرغب في الزواج منها.

وفعلاً، ذهبت هذه المرأة إلى تلك الغريبة وقرعت الباب ففتح، ثم دخلت وجلست مع المرأة وتحدثت المرأتان أحاديث متفرقة. ثم قالت الزائرة: إنني إحدى قريبات رجل رآك في المقبرة وأنه علم بأنك مطلقة، وهو يرغب في الزواج منك.

فتذكرت المرأة ذلك الرجل، جرأته وشجاعته، ورباطة جأشه وقوة عزيمته ثم شرف نفسه ونزاهة أخلاقه. فقد رافقها من المقبرة إلى بيتها دون أن تسمع منه كلمة لا تليق أو محاولة لا تشرف.

ولذلك فقد أجابت هذه الغريبة بأنها في الوقت الحاضر لا تستطيع أن تعطي جوابا حاسما في الموضوع، لأنَّ أمر الزواج لابد له من تفكير وتروٍّ. ولهذا فإنها تطلب من زائرتها الكريمة أن تترك لها فرصة للتفكير والتروي.

وهكذا حصل، فقد تركتها الزائرة على أن تعود إليه بعد يوم أو يومين.

وذهبت إلى قريبها فأخبرته بنتائج محادثتها مع المرأة وأنها طلبت مهلة للتفكير. كما أنها عرفت الخاطب من خلال حديث هذه الزائرة ومن خلال تلك المرافقة الخاطفة التي حدثت في ليلة المقبرة المشؤوم. ولمحت من خلالها شهامة الرجل ونخوته، كما أعجبت بشجاعته ورباطة جأشه.

وعادت الزائرة إلى المرأة الغريبة منتظرة ردَّ الجواب، فكان الجواب بالقبول. إلا أنها قالت إنني لا أزال في العدة وإذا انتهت العدة فإن هناك مشكلة ولي أمري الذي يفصل بيني وبينه الآن مئات الأميال.

فقالت الزائرة: إن انتظار انقضاء العدة شيء لابد منه، وأما موضوع ولي الأمر فإن قاضي المسلمين في أي مدينة هو ولي أمر من لا ولي له.

وتم كل شيء، وبقي انتظار انقضاء العدة.

والزوج والزوجة في هذه الأثناء يعدان للزواج الجديد عدته، ويهيئان له جميع ما يحتاج إليه.

وانتهت أيام العدة وذهب الرجل إلى القاضي فأخبره بخبر هذه المرأة وأنها لا ولي لها وأنَّه يريد الزواج منها.

فطلب القاضي حضورها فحضرت وسألها: هل ترغبين في الزواج من هذا الرجل؟ فأجابت بالإيجاب.

فأمر فضيلة القاضي بإحضار شاهدين، وعقد بين الخطيب وخطيبته عقد الزواج.

وأقيم حفل بهيج للزواج ثم انتقلت هذه الزوجة من دار زوجها الجبان البليد إلى بيت زوجها الجديد. فرأت أنها انتقلت من طور إلى طور في حياتها، وفتحت صفحة في حياتها، الجديدة كلها أمل وإشراق وسعادة، وسعد كل واحد من الزوجين بزوجه. فكانت هي أم أولاده وهو أبا أولادها.

ورفرفت حمامة السلام والمحبة فوق عش زواجهما السعيد.

أسطورة
وراء كل عظيم امرأة

وراء كل عظيم امرأة..

نعم كم من الرجال كان وراء نجاحهم زوجاتهم أو امرأة تحبه؟ والتاريخ يذكر لنا العديد. والكثير جدا من هؤلاء الرجال، ونحن في هذه الحكاية نقدم أجمل قصص النجاح، نجاح زوج وكان السبب في نجاحه زوجته المخلصة. المحبة..

كان يعيش في هذه المدينة أحد الرجال الشرفاء وكان له ابنة ليست على جانب من الجمال... إلا أنها كانت مقبولة؛ فليست عرجاءَ ولا عوراء ولا صماء. المهم إنها كانت سوية الخلقة إلا أن الله لم يسمها بميسم جمال!!

وبلغت الفتاة سنّ الزواج فلم يتقدم لخطبتها أحد. وانتظرت سنة بعد أخرى وطال عليها الانتظار وكان الرجال من طبقتها من كبار أهل البلد لا يرون فيها ما يروقهم ويغريهم. والصغار الذين يرغبون فيها لا يجرؤون على خطبتها لأنهم ليسوا من طبقتها ولم يكن جواب خطبتهم لها الطرد والازدراء!!

وطال الزمن بهذه الفتاة في جو الترقب والانتظار.. إلا أنه لم يتقدم لخطبتها أحد..

وكان من العادات المألوفة حبس الفتاة في البيت فلا تخرج منه ولا تروح ولا تجيء.. وتلك سنَّة تتبعها بعض القبائل، وهي أن الفتاة إذا

بلغت سنَّ الزواج، سجنت في بيت والدها فلا تخرج من هذا السجن إلا إلى خطيبها وفارس أحلامها.. أو القبر!!

وكان أبو فتاتنا هذه من تلك الطبقة. فإن فتاته بمجرد بلوغها سنّ الزواج أكد عليها أن لا تخرج وأن لا تروح وتجيء كما كانت عندما كانت صبية!!

وبقيت الفتاة صابرة منتظرة.. ولكنَّ الانتظار طال والقلق يزداد يومًا بعد يوم والهواجس تترى على ذهنها المكدور.. وكانت إذا أحست بانشغال من أهل البيت وغفلت عين الرقيب، جلست في إحدى النوافذ وصارت ترقب الغادي والرائح، وتنظر إلى ملابسهم وإلى هندامهم والى نظافتهم وإلى طريقة سيرهم من تريث وعجل!!

وكانت تعلق على ما ترى بتعليقات خاطفة تسمح بها نفسها وتشفي عواطفها وتقضي وقتها..واستمرت على هذه الحالة حتى اكتشفت أمرها إحدى النساء الموكلات بها..

وذهبت المرأة إلى والد الفتاة تخبره وتقول له إن ابنتك تجلس في النافذة وتعلق على كل غاد ورائح؛ فإن كان منظها نظيفا حسن الهندام قالت إن ذلك من زوجته.. وإن كان قذرا فوضويا فاشلا قالت إن هذا من زوجته. وان رأت رجلا قلقا مرتبكا شارد الفكر قالت إن هذا من زوجته. وإن رأت شخصا هادئا رزينا مطمئن البال مركز الخطوات قالت إن ذلك من زوجته!! والخلاصة إن هذه الفتاة ترى في الزوجة المحرك الأساسي لسير الرجل إلى الأمام أو سيره إلى الوراء.

تعجب والدها من هذا التعليق. وقال في نفسه كيف تكون المرأة هي التي تجعل الرجل ناجحًا أو فاشلا في حياته إنه لا يصدق بهذه النظرية

ولا تدخل فكره!!

فهو أحد الرجال.. وقد كون نفسه دون أن تكون خلفه امرأة تدفعه إلى هذا التكوين، وهو قد جمع ثروة طائلة جعلته من كبار أهل البلد دون أن يكون لزوجته أي دور في جمع هذه الثروة أو رفع مقام الأسرة!!

فمن أين جاءت ابنتي بهذه الفكرة الجديدة.. والبدعة المبتكرة!

واستمرت الفتاة على طريقتها هذه لا تغير فيها ولا تبدل وكان والدها يعلم بما تقوله يوما فيومًا فلا يرى فيه تفاوتا، بل يرى ما تقوله اليوم هو ما قالته بالأمس وهو ما ستقوله في الغد..

وفكر الأب في طريقة جديدة يتَّبعها في تزويج فتاته هذه! إنه يعرف أن كثيرًا من الطبقات المتوسطة ترغب في الزواج من ابنته ولكنَّ أحداً منهم لا يجرأ على أن يتقدم لخطبتها خوفا من الرد.. وخوفا من الاحتقار والازدراء..

ولذلك فقد قرر الأب أن يخطب زوج ابنته هو بنفسه لا أن ينتظر حتى يأتيه خطيبها..

وقال الأب في نفسه إنني سوف أخطب لها زوجا لا من الطبقة المتوسطة بل من الطبقة الفقيرة، وسوف أختار لها شخصا ضعيفا كسولا اتكاليا لأرى ماذا تصنع فيه؟!

هل تصنع منه رجلا ناجحًا كما تقول في تعليقاتها وفلسفتها!! أم أنه يبقى كما هو.. وتبقى هي عاجزة عن تطويره ودفعه إلى الأمام..!!

ويحث الأب في مدينته عن أكسل رجل وأقذر وأفقر رجل فوجده، وأرسل إليه من يدعوه. وجاء الرجل وهو لا يدري ماذا يراد به؛ لقد

ظن أن هذا التاجر سوف يتصدق عليه أو يكلفه بعمل، أما الزواج من ابنة هذا التاجر فهو شيء لا يمكن أن يخطر على باله حتى ولا في المنام!!

وجاء الرجل ودخل على الغني في مجلسه فرحب وأُدني مجلسه وتحدث معه وآنس وحشته حتى هدأ واستقر به المقام..

ثم قال له التاجر إن عندي بنتا هي في سن الزواج وقد تقدم لها عدة رجال يريدون الزواج منها ولكنني لم أردهم لأن شروطا أساسية أريدها في الرجل الذي سيتزوج ابنتي.. وقد وقع اختياري عليك لديانتك وأمانتك وعفتك واستقامتك.. هذه الشروط الأساسية التي أريدها في زوج ابنتي كلها - ولله الحمد - متوفرة فيك. أما الفقر فهذا أمر لا يهمني لأن غني اليوم قد يكون فقير الغد وفقير الغد قد يكون غني ما بعد الغد فالمال ظل زائل.. ودوام الحال من المحال..!!

فدهش الرجل عندما سمع هذا العرض المغري.. وقال في نفسه هل هذا التاجر يسخر بي؟! هل هو يريدني تيسا مستعارا يقضي بي حاجة ثم يتركني؟ هل هو صادق في دعواه وأنه اختارني لاستقامتي وديانتي؟!

إنني لا أدري أي هذه الأمور الثلاثة هو الصحيح.. ولكن الأيام سوف تكشف عن مخبآت هذا العرض المغري.. وأنا ليس عندي شيء أخسره فلا مال ولاجاه وليس هناك أي شيء سأفقده إذا فشلت في هذا الزواج أو ظهر أن له أهدافا غامضة وظروفا خاصة ينتهي الزواج بانتهائها!!

وأبدى الرجل موافقته على استحياء، فليس هو في مقام الرجل الغني كما أن مثله لم يسبق أن تزوج مثلها..

وقال الفقير للغني انه ليس عندي مال أقدمه مهرا لابنتك ويتناسب مع مقامك ومقامها.. فقال التاجر إننا لم نزوجك للمال وإنما زوجناك لدينك وعفافك. فقدِّمْ أيّ شيء مهما كان ضئيلا..

وجيء بالشيخ فعقد النكاح!! وكان الرجل قبل العقد بين المصدق والمكذَب، أما بعد عقد النكاح فقد وثق بعض الشيء بصحة العرض وأن الأمر جد لا هزل فيه.. مع انه لا يزال يراوده بعض الشك!!

وجاء الرجل بفراش وجاء بكسوة لزوجته وجاء ببعض النقود القليلة كمهر وقدمها إلى أهل الفتاة فأخذوها وقبلوها وأظهروا سرورًا بها وشكرا عليها!

وعينت ليلة الزواج.. وصاحبنا لا تزال تراوده الشكوك وقيل للفتاة بأن رجلا هذه صفته قد تقدم لخطبتها وأن والدها قد وافق على تزويجها منه فقالت الفتاة: الذي يرضاه والدي أنا أرضاه ولن يكون اختياري أحسن من اختياره!!

وجاءت ليلة الزواج ولبس الرجل ملابس جديدة ونظف نفسه، وبدا للناظرِين في أحسن صورة وأبهاها وأدخل على عروسه وهو بين المصدِّق والمكذِب. فلما اجتمع بزوجته وجها لوجه اطمأن من صدق العرض.. ولكنه بدأ يفكر في أمور أخرى.. فلعل الفتاة فرَّطت في عفافها!! فهم يريدونه للتغطية.. أو لعلها حبلى ويريدون أن يستغلوا ضعفه وطيبته ليكون الجنين تابعا له!!

وانتهت حفلات الزواج ونقل الرجل زوجته إلى داره القذرة الضيقة المتداعية الأركان!!

وجاءت هذه الزوجة إلى تلك الدار فنظفتها ورتبت أثاثها.. وسدت الشقوق التي في حيطانها ثم التفتت إلى الرجل.. لقد مضت أيام الزواج ومحاولة الظهور بالمظهر اللامع المشرق.. وبدأ الرجل يعود إلى عادته من الكسل وعدم النظافة.. وعدم الترتيب والتنظيم!!

ولكن زوجته بدأت في ترتيب شؤونه الخاصة.. وبدأت تنظف ملابسه وترغمه على أن يلبسها في مواعيد معينة وأن يبدلها في مواعيد معينة. وبدأت حالة الرجل تتحسن ومعنوياته تقوي وروحه الخاملة تستيقظ. ووجد زوجته سوية رضية جميلة عاقلة.. وكل صفة طيبة فيها.. وكل عيب مذموم لا أثر له عندها..!!

وشكر الله على هذا الزواج الموفق.. وقال في نفسه لعل أحد والديَّ دعا لي في ساعة من ساعات الاستجابة..

أو لعل الله نظر إلى ضعفي فلطف بحالي وأراد أن ينتشلني من حالة البؤس التي أعيش فيها إلى حالة أرقى منها وأشرف لأمر يريده الله.. ولا نعرف الحكمة من ورائه..

والمهم أن هذا الرجل الفقير عاش بجوار هذه الزوجة العاقلة الحكيمة عيشة كلها سعادة وهدوء واستقرار.

وكان للرجل بعض الأموال التي كان يوفرها سابقًا فأنفقوا منها حتى نفدت، والرجل لا يعمل وليس له دخل ثابت من أي جهة من الجهات.

وقالت الزوجة لزوجها ذات يوم: إنه ليس عندنا ما نأكله، فاذهبْ وقم بأي عمل تكسب منه قوتنا!! فقال الرجل: إنني لم أعتد العمل وليس لي قدرة على الشقاء.. وقالت الزوجة: ماذا تريد أن تصنع؟! هل

تريد أن نموت جوعًا؟! أم تريد أن نسرق أم تريد أن نعيش عالة على الآخرين؟!

إنَّ شيئًا من هذا لن يكون فعليك أن تعمل وأن تأتي لنا بكفايتنا من القوت. فخرج الرجل من عند زوجته وهو يقول لا تيأسي فالرزق على الله فالذي خلقنا لن يضيعنا.. وقالت له زوجته إن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة، وإن الرزق لابد له من السعي.. لابد من سبب.. وبدون السعي وعمل الأسباب فلا رزق ولا مال!!

وذهب الرجل على أنه سيعمل ولكنه ذهب إلى ندوة من ندوات رفاقه وجلس معهم يتحدثون ويتناقلون أخبار الحوادث والأحداث القريب منها والبعيد. فلما انتهت تلك الندوة عاد إلى زوجته ويداه فارغتان فغضبت الزوجة.. ولكنها كتمت غضبها في نفسها وقدَّمت له ما يسَّر الله من طعام..

وجاء الغد.. فأعادت عليه كلامها بالأمس من أنه لابد أن يعمل ليكسب لهم القوت. وعاد الرجل إلى نغمته السابقة. فلم يكن منها إلا أن رفعت يدها وصفعته على خدِّه الأيمن ثم صفعته على خده الأيسر.. ثم قالت له: اذهب ولا أرى وجهك إلا إذا عملت واكتسبت قوتنا..

فذهل الرجل ووقف أمام زوجته حائرًا؛ إنها مسيطرة عليه وعلى البيت سيطرة كاملة.. وهو لا يملك أمامها أيَّ قدرة على المقاومة. ثم انه سعيد بها وبوجودها في بيته كل السعادة!!

ولذلك فقد تلقَّى الصَّفعاتِ بنفس هادئة وخرج من بيت زوجته وقد صمم على العمل مهما كانت الظَّروف.. وبحث عن عمل حتى وجده وجاء في اليوم الأول بأجر زهيد إلا أنه قام بأمورهم الضرورية..

وبدأ الرجل يألف العمل ويزداد أجره يوما بعد يوم وكانت زوجته هي التي تتولى النفقة؛ فكانت تنفق مما يكسب في أضيق الحدود وتوفر الباقي. ونشط الرجل وتفتحت له أبواب العمل وأبواب الأمل. واستمرت زوجته في التوفير حتى جمعت مبلغًا من المال لا بأس به، فاشتروا به دارًا أكبر من دارهم وأنظف وفي حي أرقى من حيهم السابق وأشرف. وتغيَّر الزوج تغيُّرًا جزئيًا وكليًا وحسنت حاله وازدانت صحته وقويت معنوياته وبدأ يظهر للناس في مظهر كله حيوية ورجولة!!

وبعد فترة من الوقت وفرت الزوجة مبلغا من المال اشتروا به بستانا في طرف من أطراف المدينة.. وصار زوجها يشرف على هذا البستان ويوجه العمال..

وتعجب الناس من سرعة تطور هذا الرجل ومن نظافته ومن حسن هندامه ومن أمارات السعادة التي تظهر عليه!! وإذا قارنوا وضعه الحالي بوضعه الماضي وجدوا البون شاسعا، والفرق بعيدا بُعد الزرقاء عن الغبراء.. فإذا بحثوا عن السبب وجدوا أنه زواجه من ابنة فلان. ولا أحد من الناس يعرف السر في زواج الرجل من هذه المرأة إلا والدها والخادمة التي بلغته بتعليقها على الرجال الغادين والرائحين..

وهذه القصة تعزز المثل القائل فتش عن المرأة أو الحكمة التي تقول إن كل رجل ناجح في الحياة لابد أن خلفه امرأة ذكية تدفعه إلى النجاح وتخطط له في طريق الكفاح..

ويومًا بعد يوم والرجل يزداد نجاحا ويزداد ثروة، حتى أصبح من أكبر أثرياء المدينة. وكان السبب في ذلك زوجته.

حقا..

إنَّ وراء كل عظيم امرأة تدفعه إلى الأمام وإلى النجاح.

أسطورة المرأة التي تفوقت على الرجال

تزينت السماء بالنجوم الزاهرة المضيئة اللامعة. وأرسل القمر أشعته الفضية يكسو بها الكون والقرية الخاضعة في حضن الجبل كأنها طفل صغير في حضن أمه الحنون.

وابتدأت الجدة تحكي كعادتها هذه القصة الشيقة، والنساء يصغين إليها في شوق واهتمام.. قالت:

هذه يا عزيزاتي قصة شقيقَين متحابَّين، تزوج كلّ منهما بامرأة جميلة، فأنجبت إحداهما أربعة أولاد، وأنجبت الأخرى أربع إناث.

وكان أبو البنات فقيرًا لا يجد من وسائل العيش إلا الكفاف أو أقل من الكفاف. أما أبو الأربعة أولاد فهو غنيّ ومعتزّ بتجارته وغناه.

وكان أبو البنات دائما يجد من أخيه جفوة وهزءًا حيث يلمزه ويغمزه بأن ذريته كلهم بنات وكان أبو البنات يتلقى تلك الغمزات واللمزات بصدر رحب ويتحمل كل ذلك من أخيه؛ تلك القوارع التي توجه إليه في كل مناسبة.

وكثر الغمز وتكرر. ولم يبق في قوس الصبر منزع، فقال أبو البنات لأخيه: لماذا دائما تعيبني بالبنات وتفتخر عليّ بأولادك، ألا تدري أن في البنات من هن خير من الأولاد؟ ألا تدري أنه كم من امرأة أفضل من رجل.

فقابله أخوه بالسخرية وقال له: أنت تعزِّي نفسك بهذه الاحتمالات التي قلما تقع، ومن المعروف أن الأنثى عبء على والديها ومسؤولية كبرى منوطة بعنقهما حتى تبلغ سن الزواج. فإذا بلغت هذا السنّ تزوجت إن وُفِّقت إلى الزواج برجل قد يكون غريبا.

وبعد الزواج تندمج مع قوم آخرين وقد تلد الأعداء والمنافسين، وقد تغدر بأقرب الناس إليها في سبيل شهواتها ورغباتها الجامحة.

قال أبو البنات إنَّ كلامك هذا هو إلى الخيال أقرب منه إلى الحقيقة، وإذا كان وقع شيء مما تذكر في قديم الزمان فإن ذلك نادر وشاذّ، والشَّاذُّ لا حكم له. فكم من فتاة كانت سبب خير ورخاء لأهلها؟ وكم من فتاة كانت سببا في صهر كريم يكون عونا في وقت الشدة؟

ولندع الماضي وأحداثه ولنبحث في حاضرنا. إختر واحدا من أولادك وأنا أختار واحدة من بناتي، ولنترك الاثنين يسافران إلى بلدة بعيدة بحثًا عن التجارة والرزق، ولننتظرِ النتائج ونرَ من يكون الخسران ومن الفائز.

فرحب أبو الأولاد على الفكرة، وقال ليعدَّ كل واحد العدة لأحد أولاده للسفر إلى بلدة بعيدة ولنرَ ماذا يرجع به كل واحد منهما.

واختار أبو الأولاد أحد أبنائه وجهزه بكل ما يلزمه وأعطاه مبلغا من المال وأعدَّ له راحلة فارهة، واشترى أبو البنت ناقة جرباء رخيصة بثمن على قدر طاقته وجهز ابنته بقربتين كبيرتين من الماء، ووزنتين من التمر لا غير.

أما أبو الأولاد فأعد لابنه من جميع أنواع الأطعمة المالح والحلو

وأعطاه قربة ماء واحدة، ومشى الاثنان في طريقهما في رحلة قد تطول أو قد تقصر وقد لا يعودان منها سالمين.

وبالطريق قال الولد لابنة عمه عندما تعمقا في الصحراء: إنه يجب على كل واحد منهما الاعتماد على نفسه في كل شيء وأن يستغني بما معه عما مع رفيقه، وإذا احتاج إلى شيء موجود عند الطرف الآخر يجب أن يكون بنظام المقايضة، أو أن يدفع ثمنه نقدا أو شيئا آخر..

وافقت الفتاة على هذا الكلام...!

وفكرت الفتاة في أن ابن عمها يريد أن يذلها وأن يعيش أمامها في رغد من العيش بينما هي تعيش على الأسودان، التمر والماء.

وبحثت الفتاة عن طريقة تذله بها وتجعله يحتاج إليها، وتجعله يعطيها من أطايب ما معه من طعام. وكان في جيب ثوبها إبرة فنزلت من فوق راحلتها كأنها تريد أن تقضي حاجة ثم جاءت تتمشى برفق وحذر حتى صارت تحت راحلته فخرقت قربة الماء من أسفلها بالإبرة عدة خروق، وعادت إلى راحلتها.

وصارت قربة الفتى تنقِّط الماء حتى نفد ما فيها من الماء.

ونزل الفتى من فوق راحلته ليشرب وقد التهب جوفه من كثرة ما يأكل من الأطعمة المالحة والحادقة فوجد أن قربته فارغة

فقال لابنة عمه: أعطيني جرعة من الماء.

فقالت: أوَلم نتفق على أنَّ كلَّ واحد منا لا يدفع شيئًا إلا بثمن؟؟

فقال: نعم لقد اتفقنا فأعطيني شربة ماء بثمنها.

فطلبت ثمنها كلَّ الأطعمة المالحة التي لديه ووافق على ذلك.

وبعد فترة أحس الفتى بالظمأ مرة أخرى وطلب منها الماء، وطلبت منه بالمقابل جميع الأطعمة الحالية التي معه فأعطاها.

استمرت تأخذ منه شيئًا فشيئًا، إلى أن لم يبقَ معه إلا راحلته، وطلب منها الماء مرة أخرى. فقالت أعطيك شربة ماء مقابل أن آخذ راحلتك وتأخذ راحلتي، فوافق على ذلك. وبعد أن لم يتبقَّ معه شيء واِحتاج لشرب الماء مرة أخرى وطلب من ابنة عمه الماء، قالت ثمنها أن أَلبسَ ملابسك وتلبس ملابسي فوافق، الفتى مكرها على ذلك.

ولما نفد كلُّ ما عنده ولم يبقَ لديه شيء تطمع فيه الفتاة، بل صارت هي التي تمثل دور الرجال وهو الذي يمثل دور النساء، صارت تعطيه الماء مجَّانا، وتعطيه من القوت ما يكفيه في حدود الحاجة والضرورة لا في حدود الترف والنعيم الذي ألفه الفتى. وصارت الفتاة هي المسيطرة على كل شيء تماما. وانقاد الفتى وهو فى لباس فتاة إلى كل ما تريده ابنة عمه.

وأخيرا وصل الاثنان إلى مدينة كبيرة آهلة بالسكان ونزلا في إحدى الضواحي، وقالت الفتاة لابن عمها أن يبقى في مكانه يراقب راحلتهما حتى تبحث لهما عن سكن؛ فوافق الفتى وبقي.

وذهبت الفتاة لترى المدينة، وبينما هي تتمشى رأت حانوتًا كبيرًا فيه من جميع أنواع البضائع وصارت تتفحصها، ورآها صاحب الحانوت فسألها هل تريدين حاجة؟ قالت: حتى الآن لم أجد الحاجة التي أريدها.

وعرف صاحب الحانوت من لهجتها أنها غريبة، فقال لها: أظنكِ غريبة؟

قالت: نعم. فقال: وما الذي جاء بك إلى هنا؟ هل معك تجارة ولا تريدين أن تشتري تجارة؟ قالت: لا هذا ولا ذاك إنما جئت بحثًا عن العمل.

وكانت الفتاة صبيحة الوجه مشرقة الأسارير، وكان صاحب الحانوت في حاجة إلى موظف كريم الأخلاق مشرق الطلعة ليكون في استقبال الزبائن.

فقال لها صاحب الحانوت: إننا في حاجة لموظف لعرض البضائع واستقبال الزبائن. فقالت: إني مستعدة إذا كان هناك أجر طيب.

واتفق الطرفان على أجر شهريّ معلوم. استلمت الفتاة عملها في يومها الأول، وكانت الفتاة تمثل دور رجل ووظفت على أنها رجل.

وسألها صاحب الحانوت عن أهلها وهل معها أحد منهم؟ فقالت: إنَّ لي ابنةَ عمٍّ ساكنة في ضاحية من ضواحي المدينة.

فقال التاجر: ائتي بها وأسكنيها معك في بيتنا. فإنَّ منزلنا واسع وفيه حجرات متعددة سوف أخصِّص لكما منها غرفتين.

فقالت الفتاة: إن ابنة عمي منطوية على نفسها وتهوى الانزواء والانفراد. وقد طلبتْ مني أن أنصب لها خيمة في المكان الذي هي فيه الآن.

فقال التاجر: إذاً لا داعي لإحراجها.

وأعطاها التاجر خيمة نصبتها للفتى في مكانه. وكانت هذه الفتاة تشتري له ما يحتاجه من النقود التي أعطاه والده، والتي احتفظ بها من بين جميع الأشياء.

وكانت الفتاة تأكل وتشرب وتكتسي على حساب التاجر، وهذا ما

اتفقا عليه في البداية. وكان التاجر يدفع لها وهو راض ومسرور بسبب إقبال الزبائن عليه، وتضاعفَ ربحه وكثر رزقه بسبب حسن تعاملها مع الزبائن.

ومضت الأيام والشهور حتى قاربت السنة أن تنتهي، والفتاة تجمع الأموال وابن عمها ينفقها، حتى جمعت مبلغاً لا بأس به. فقالت لصاحب الحانوت: لقد طالت غربتي وأريد العودة إلى بلدي وأحتاج أن تعطيني رواتبي الشهرية لأشتري بها بعض البضائع التي تروج في بلادنا.

فقال لها التاجر: وما الذي تريدين أن تشتريه، فعدَّدت له أصنافًا من الأطعمة والقماش والملابس...

قال لها التاجر: هذه البضائع كلُّها موجودة عندي والذي ليس عندي سوف اشتريه لك بأقل الأسعار. وأحضر للفتاة جميع ما طلبت، وجُهِّزت لها قافلة مثقلة بالأحمال. ومرت على ابن عمها فأخذته معها وهو في ثياب النساء ولا يملك إلا ناقلته الجرباء.

قربت الفتاة من أرض الوطن وخجلت أن تظهر أمامهم في ملابس الرجال؛ فخلعت ملابسها وأعطتها لابن عمها وخلع ملابسه وأعطاها إياه.

وأرسلت الفتاة إلى أهلها وأهل ابن عمها رسولا يبشرهم بقرب وصولهم.

وجاء البشير وفرح الأبوان وفرحت العائلتان وترقب والد الفتى أن يكون ابنه حقق نصرًا يثبت دعواه في خمول الفتيات وأهل الفتيات.

وترقب أبو الفتاة أن تكون ابنته قد حطمت هذه الخرافة.

وأقبلت القافلة تمشي رويدًا رويدًا. ونظر أبو الفتى فقال في نفسه إن هذه القافلة ولا شك هي ملك ابنه. ونظر أبو الفتاة الذي كان يثق بابنته ويرى فيها سمات الذكاء والنجاة أن تكون القافلة من نصيب ابنته.

وقربت القافلة وكانت الفتاة قد أرشدت ابن عمها إلى طريقة استقباله لوالده. وهي الطريقة التي زعمت أنها المتبعة لمن جاء من سفر بعيد وبعد مدة طويلة.

وملخص هذه الطريقة هي أن يأخذ كلٌّ واحد منهما حجراً في يده، فإذا أقبل عليه والده رماه بهذا الحجر، فإذا كان مقدَّرًا له أن يصيب الحجر، فذلك قضاء وقدرٌ لا مفر منه، وإذا كانت مقدرة له النجاة فإن الحجر سوف لا يصيبه.

أقبل الوالدان على ولديهما، وعندما قرب الفتى منه رفع يده وأهوى بالحجر على وجه والده فضربه في جبينه، فصار الدم يسيل على وجهه وعبارات الشماتة تتعاقب على أذنيه.

أما الفتاة أسرعت لوالدها الذي أخذها بالأحضان وقبلها على جبينها، وذهبت إلى البيت مع القافلة الكبيرة التي حضرت بها.

وصارت هذه الرحلة هي مدار الحديث لجميع سكان تلك البلدة فترة طويلة من الزمن.

كما أن والد الفتاة ارتفعت قيمته الاجتماعية نتيجة للثروة التي قدمت بها عليه ابنته.

ولم يعد أبو الأولاد يعيِّر أخاه أو يحاول الحط من قدره بسبب بناته.

وأخيرا..

يا عزيزاتي الصبايا الفاتنات. ما رأيكن في هذه القصة الشيقة؟

أرجو أن تأخذن هذه الفتاة مثلا وعبرة تقتضين بها. وتعرف كل واحدة منكن أن الله سبحانه وتعالى خلق للمرأة عقلا وجسدا. والمرأة المثالية تفكر بعقلها لا بجسدها وتخوض التجارب وتعمل كما يعمل الرجال تماما. وكم من امرأة ذكية نجحت فى حياتها وفاقت الرجال في أعمالهم وانتصرت في الحروب ونجحت في التجارة؟

إن المرأة... هي أم الرجل. هي التي أنجبته. إنها صانعة الرجال. وهي حواء.. أم البشرية!!

أسطورة كيد النساء

يُحكى أنه كان فى قديم الزمان وسالف العصر والأوان شابٌّ في ريعان الشباب، كامل الرجولة، عظيم الجانب، أنيقٌ، جميل.

كان ينتقل من مكان إلى مكان حاملا بضاعته فوق كتفه يعرضها على زبائنه الكرام، وخاصة النساء منهم لأنهن كن معجبات بما يحضره لهن من ملابس وحرائر وأدوات زينة. هذا غير أن له أيضا حانوتا صغيرا. وكان قد كتب لوحة في أعلى حانوته ضمنها العبارة التالية:

«إن كيدهن ضعيف!!..»

ونظرت النساء اللواتي يترددن عليه إلى هذه اللوحة وقرأن العبارة فرأين فيها شتيمة مقصودة لهن ولبنات جنسهن. كما رأين من ناحية أخرى أن هذه العبارة قد سلبتهن حقا أثبته لهن القرآن الكريم حيث يثبت: «إن كيدهن عظيم».

وتلقت المرأة هذه الطعنة بهدوء وفكرت في إعادة هذا الرجل إلى صوابه. وهي لا تريد أن تكون إعادته إلى الصواب بطريقة عملية يقتنع بها تمام الاقتناع ولا تكون نتائجها موضعا للجدل والأخذ والرد.

ووجدت الطريقة ورسمت خطوطها ثم جاءت إلى الرجل على عادتها واشترت منه ما راق لها مما لديه، ونظرت إلى العبارة المكتوبة في أعلى الحانوت فازداد غيظها ولكنها ضبطت أعصابها، فهي ليست المقصودة بهذه الإهانة وحدها وإنما يشاركها فيها جميع بنات جنسها.

ولهذا لا داعي لأن تغضب أو تثور، بل عليها أن تسير في تنفيذ خطتها بتعقُّل تام وأعصاب هادئة، حتى لا يلاحظ الرجل ما يراد به وحتى تسير الأمور سيرا طبيعيا، ويكون في النتائج درس عملي بليغ لإعادة هذا الرجل إلى صوابه.

وقالت المرأة لهذا التاجر: يا فلان هل أنت متزوج؟

فأجابها: لا..

فقالت: ولِمَ، وأنت رجل متكامل الرجولة ومستقر، وصاحب تجارة وبيع وشراء؟

فقال التاجر: إنني إلى الآن لم أوفق إلى المرأة التي أرضاها لتكون شريكة لحياتي.

فقالت المرأة: إنني أحب لك الخير وأحب لك الاستقرار التام، وإذا أردت فإنني مستعدة للبحث عن زوجة صالحة تكمل بها نصف دينك.

فشكرها الرجل وبالغ في الشكر وأبدى موافقته على اقتراحها.

وغابت المرأة عن الرجل عدة أيام، ثم عادت وقد تهلل وجهها بشرًا وسرورًا ووقفت على حانوت الرجل فكان مشغول البال في انتظار ما ستسفر عنه جهودها.

وقالت المرأة للرجل: لقد وجدت لك شريكة الحياة بعد بحث طويل وتحر دقيق. إنها تتمثل فيها جميع المزايا التي يريدها الرجل في المرأة كما أنها ذات حسب ونسب ومال؛ فقد ماتت أمها وخلفت لها ثروة طائلة وقد وُكِلَ أمر التصرف فيها إلى والدها. وقد جنت هذه الثروة على هذه الفتاة

فصار والدها يرفض أي زوج يتقدم لخطبتها وذلك خوفا من تسرب هذه الثروة من يده إلى يد غيره.

والطريقة الناجحة التي أريدك أن تسلكها للوصول إلى نتيجة مرضية، هي أن تصلي مع والدها صلاة الظهر فإذا خرج من المسجد فسلم عليه وقل إنني أريد أن أخطب منك ابنتك رغبة في القرب منك. فإنه سوف يقول لك أنه لا ابنة عندي، فاتركه. فإذا جاء اليوم الثاني فصلِّ معه صلاة الظهر، فإذا خرج من المسجد سلِّم عليه وقل له إنني أكرر خطبتي لابنتك العزيزة التي لا هدف لي من الزواج منها إلا إسعادها والقرب منك.

فإنه سوف يقول لك مثل ما قال لك في اليوم الأول، فإذا جاء اليوم الثالث فصلِّ معه على العادة وكرر عليه ما قلته بالأمس فإنه سوف يقول لك إنه ليس عندي إلا ابنة مصابة بالكساح، وهي لا تستطيع أن تمشي ولا أن تنتقل من مكان إلى مكان إلا ومعها من يحملها.

وقالت لهذا الرجل الخاطب إذا قال لك أبوها هذا الكلام فلا تصدقه، وقل له إنني أقبلها كما هي وأنا ليس لي من قصد إلا مصاهرتك وإسعاد ابنتك، فإنه في هذه الحالة سوف يوافق على زواجك بها.

وهكذا حصل، فإنَّ أبا الفتاة عندما رأى إلحاحه وعرف هدفه وافق على زواجه من ابنته.

واتخذت الاستعدادات للزواج وقدم الزوج مهرًا كبيرًا لا يتناسب مع مستواه المالي بل هو فوق طاقته، وإنما يتناسب مع مستوى الأسرة التي يريد الزواج من فتاتها. واستدان الرجل وجمع كل ما يستطيع جمعه وقدمه إلى عائلة الفتاة على أمل أن يعوض ما أنفقه من مال هذه الفتاة الذي ورثته من أمها.

وجاءت ليلة الزفاف التي أقيمت فيها جميع معالم الأفراح وزف الزوج إلى زوجته؛ أو على الأصح زفت الزوجة إلى زوجها، فإنه عندما أدخل في غرفة الزوجية جِيء بالفتاة تحمل في كرسي متحرك ووُضعت بين يديه وخرج الذين جاءوا بها وتركوا الزوج وجها لوجه أمام زوجته.

وكاد الرجل أن تتحطم أعصابه وأصيب بذهول عظيم عندما رأى الحقيقة ماثلة أمام عينيه. وعلم أن أهل الفتاة لم يخدعوه ولم يغشُّوه؛ فهم قد أطلعوه على الحقيقة كاملة فقبلها وأقدم عليها عن رضىً واختيار. وإنما الذي خدعه المرأة الخاطبة أو التي دلته على هذه الفتاة. بل حاكت له مكيدة بالغة الخطورة مؤلمة النتائج.

والتف الرجل بعباءته وتمدد على الأرض. إنه يريد أن ينام ولكن هيهات أن يقدر على المنام وهيهات أن تتركه الأفكار السوداء يهدأ على فراشه. وجعل الرجل يتقلب على الفراش من جنب إلى جنب ويفكر في هذه الأحبولة التي وقع فيها بطوعه واختياره.

وضاقت به الغرفة التي ينام فيها وهَمَّ بالخروج منها. ولكن لماذا يسيء إلى أصهاره وهم لم يسيئوا إليه؟ ولماذا يفتح مجالا للناس في الحديث عنه وعن زواجه؟ إذاً لا مجال إلا أن يصبر وأن يضبط أعصابه إلى الصباح. فإذا جاء الصباح فقد يأتي برأي جديد يخلصه من هذه الورطة التي وقع فيها فيخرج بأسلوب مهذب يحفظ له كرامته ويحفظ لأهل الفتاة كرامتهم، ولا يكون فيه مجال لحديث الناس وأقاويلهم التي تترقب مثل هذه الفرصة وتتحدث عنها وتتزيّد في الحديث وتضيف إلى الحادثة تعليقاتٍ وحواشيَ مبالغاً فيها، لا عن عداوة وكره ولكنه حب الحديث في مشاكل الناس، ورغبة في ملء الفراغ الذي لا يُملأ إلا بأمثال هذه الأحاديث.

وجاء الصباح وخرج الزوج من غرفة زوجته وهو يضغط على أعصابه، ويحاول أن يُظهِر أمارات السعادة والسرور.

وانتهت مراسيم الزواج في بيت الأصهار، والأمور سائرة سيرا طبيعيًا ونقلت الزوجة إلى بيت زوجها على كرسي متحرك، فاستقبلها استقبالا حارا وأظهر للذين جاءوا بها سعادة وسرورا، ورحب بهم وأكرمهم حتى انتهت مراسيم زيارتهم، فخرجوا وتركوه مع زوجته الكسيحة.

وجعل الرجل يفكر في مخرج كريم من هذه الورطة ولكن أعصابه المرهقة لم تمده بأي حلٍ يرضاه، فقد اجتمعت عليه عدة نكبات في وقت واحد؛ تحمّله للدَّين، ووجود هذه الزوجة التي لا تسر الناظرين. وعلاوة على هذا كله فإنه يشعر بالخزي والعار عندما يتذكر أن الناس يعرفون زوجته، ويطلعون على سوء تدبيره واختياره.

ولجَّت به الهواجس والهموم فلم يستطع أن يهتدي إلى رأي سليم يطمئن إلى حسن نتائجه.

وفي لحظة من لحظات تفكيره خطر على باله صديق يعرف أصالة رأيه وحسن تدبيره، ويعرف أنه أخ مخلص وفيّ. فقرر أن يذهب إليه وأن يكشف له النقاب عن هذه المشكلة العويصة التي يعيش في جحيمها وأن يطلب منه إمداده برأي يعينه على الخروج مما هو فيه من هموم تعيش معه ليل نهار.

وذهب الصديق إلى صديقه وشرح له الأمر من أوله إلى آخره، ولم يترك جانبا من جوانب المشكلة إلا أطلع صديقه عليه. كما أنه أوضح له بشكل خاص طريقة الخطبة وأخبره بأمر الخاطبة.

وقال لصديقه: إنك بعيد عن المشكلة ولعلك تنظر إليها من عَلُ، كما أنك تفكر فيها بأعصاب هادئة مطمئنة. ولهذا فإنني أرجو أن تدلني على طريق يخرجني منها بسلام ويضمن لي كرامتي ولأهل الفتاة كرامتهم.

وفكر الصديق في مشكلة صديقه مليا ثم قال له: أعطِني فرصة للتفكير يوما أو بعض يوم، فإن مشكلتك عويصة ودقيقة وحساسة والتسرع في مثلها قد يخلف آثارا سيئة، ونحن لابد أن نلتمس طريقة لا تخلف بعدها أثرا سيئا.

فقال الزوج: إن صبري كاد أن ينفد، ولكن لا حيلة لي إلا المزيد من الصبر، ولو كان هذا على حساب صحتي وراحتي وأعصابي.

وخرج الزوج من بيت صديقه على أن يعود إليه في وقت لاحق حدده الصديقان.

وجاء الموعد وذهب الصديق إلى صديقه، وهو واثق كل الثقة بأنه سيجد عنده الحل الصحيح السليم.

وعندما خلا الصديقان رأى الزوج أن ملامح السرور تبدو على وجه صديقه فاستبشر وسر وعلم أن صديقه قد وجد له مخرجا.

وقال الصديق المستشار: لقد فكرت في مشكلتك وعلمت يقينا أنها مكيدة مقصودة عملتها لك المرأة التي دلتك على الفتاة ورسمت لك طريق الخطبة، فهل بينك وبين هذه المرأة عداء ظاهر أو خفي؟ وهل أسأت إليها في علاقتك التجارية معها؟

فقال الزوج: إنَّ شيئًا من هذا لم يحدث.

فقال المستشار: وإذاً فما هو السبب؟

فقال الزوج: إني لا أعرف لذلك سببًا.

فقال المستشار: لأنَّ هناك سببًا لم تطلع عليه، لذلك أرى أنه لن يستطيع حل المشكلة حلا سليما إلا الذي سبَّبها، وأرى أن تقابل المرأة فتعاتبها عتابا رقيقا وأن تصف لها حالتك النفسية والمالية وأن ترجو منها أن تبحث لك عن حل.

فقال الزوج المسكين: إنني لا أعرف بيتها ولا أعرف اسمها، ولا أعرف إلا أنها من جملة النساء اللواتي يأتين إليّ لشراء بعض حاجاتهن من الملابس.

فقال المستشار: إذاً فعليك أن تصبر وأن تترقب مجيئها لشراء بعض حاجاتها، فإنها لابد أن تأتي إليك لترى آثار انتقامها، فهذه ولاشك عملية انتقامية لسبب لا أعرفه أنا ولا تعرفه أنت.

فقال الزوج: وكيف أقابلها وقد أقفلت حانوتي، فليس فيه ما يستحق أن يُباع أو يُشترى؟

فقال المستشار: عليك أن تفتحه ثانية وأن تترقب مجيئها ولا حل في نظري غير هذا، حتى ولو طال صبرك وتضاعفت آلامك.

ورضخ الزوج المسكين لرأي صديقه وفتح حانوته. ومرَّ يوم وثان وثالث ولم تمر به، فلما جاء اليوم الرابع جاءت وهي تتظاهر بأنها تريد شراء حاجة من حاجاتها المعتادة وسألته عنها، فقال: إنها ليست عندي ولكن في استطاعتي أن أبحث عنها وأن أشتريَها لك بأرخص ثمن ممكن. فشكرته.

ثم قال لها:

- يا أختي العزيزة ما هذه المشكلة التى أوقعتِني فيها؟ هل أسأت إليك في يوم من الأيام؟ وهل شعرت أنني حاولت خديعتك في شيء من الأشياء التي اشتريتِها مني؟ أو هل أسأت إلى أحد من أقاربك أو أصدقائك من حيث لا أشعر؟

فقالت المرأة: إنَّ شيئًا من هذا الذي قلت لم يكن.

فقال الزوج المسكين: وإذاً فلماذا أوقعتِني في هذه المشكلة العويصة التي لا أدري كيف أخرج منها؟

فقالت المرأة: إنك أسأت إلى بنات جنسي كلِّهن وأنا واحدة منهن.

فقال الرجل: وكيف؟

فقالت المرأة: هذه اللَّوحة المعلقة على باب حانوتك. والتي حرفت فيها القرآن الكريم وسلبت بها منا معشر النساء صفة وصفنا بها القرآن الكريم.

فقال الرجل: إنني لم أفهم من كلامك شيئًا حتى الآن.

فقالت المرأة وأشارت إلى اللوحة: إقرأ ما كتبت.

فنظر الرجل إلى اللوحة، وكان لا يحسّ بوجودها، وقرأ ما فيها وإذا هو «إن كيدهن ضعيف». وبعد أن قرأ العبارة علم أن هذه اللوحة هي أساس مشكلته.

فقال معتذرا متنصلا: لقد اشتريت هذه اللوحة صدفة لأنني أعجبت بشكلها وبخطها وبنقوشها ولم أكن أقصد بها إهانة أحد أو أقصد تحريف القرآن أو الحط من قيمة إنسان.

فقالت المرأة: لقد حزَّتْ في نفسي هذه اللوحة على باب حانوتك وكنت متيقنة أنك قد تعمدت وضعها للحط من قيمتنا نحن معشر النساء. ولهذا فقد دبرت لك ما دبرت لأعيدك إلى الصواب بطريقة عملية لا تقبل الجدل.

فقال الرجل: إنني أعتذر منك وأرجو أن تغفري لي هذه الهفوة التي لم أتعمدها، كما أنني أرجوك رجاءا حارا أن ترشديني إلى طريقة تخرجني مما أنا فيه من آلام نفسية تكاد أن تحطم أعصابي.

فقالت المرأة: إنني على استعداد لإخراجك مما أنت فيه بطريقة سهلة وسليمة ولكن على شرط.

فقال الرجل: إنني أقبل الشرط كائنًا ما كان.

فقالت المرأة: هو أن تزيل هذه اللوحة من باب حانوتك، أو أن تصحِّحها.

فقال الرجل: إنني أقبل هذا الشرط وأنا مستعد من الآن أن أحطم هذه اللوحة التي كانت سببا لهذه الكارثة، كما أنني مستعد لكتابة لوحة أخرى تكتب عليها الآية الكريمة كما هي.

فرضيت المرأة ثم قالت للرجل: الرأي عندي هو أن تقفل حانوتك ثم تشتري آلة حلاقة، فإذا جاء يوم الجمعة فرشت حصيرا أمام باب المسجد وجلست عليه وجعلت آلة الحلاقة أمامك وحلقت لكل من يطلب منك أن تحلق رأسه أو تحلق وجهه.

فقال الرجل: ثم ماذا؟

فقالت المرأة: إن صهرك سوف يخرج من المسجد وسوف يراك وسوف يُصدم بمرآك تحلق للناس، فإن الحلاقة في نظره تعتبر وصمة

عار إذا لحقت بصهره لحقت به وكانت سبّة عليه مدى الدهر.

فقال الرجل: ثم ماذا؟

فقالت: إن صهرك سوف يأخذ بيدك وسوف يذهب بك إلى مكان منزو لينصحك وليعتب عليك وليطلب منك أن تترك هذه المهنة، فهي لا تليق بك ولا تليق بأصهارك.

فقال الرجل: وماذا أقول له؟

فقالت: قل له إن هذه مهنتي وهي طريق إلى الكسب الحلال الذي لا غبار عليه، ولا سبيل إلى تركها.

فقال الرجل: وإذا قلت هذا الكلام فماذا سيكون جوابه.

فقالت: إنه سوف يطلب منك أن تطلق ابنته.

فقال الرجل: وماذا أقول له؟

فقالت المرأة: عليك أن ترفض هذا الطلب بكل إباء وشمم وأن تقول إنها زوجتي ولن أطلّقها مهما كانت الظروف.

فقال الرجل: ثم ماذا؟

فقالت المرأة: إنه سوف يدخل معك في مساومات لتطلق ابنته وسوف يعرض عليك أن تطلقها ويعطيك جميع ما صرفته من مال، فارفض هذا العرض، فإنه سوف يضاعف لك العرض مرة ومرتين وثلاثا فارفض ذلك كله وقل له، إنني لا يمكن أن أطلق زوجتي هذه التي تزوجتها عن رضىً واقتناع، ثم إن هذا الزواج يربطني بأسرة كريمة عريقة لا يمكن أن أفرط فيها مهما غلي الثمن.

فقال الرجل: ثم ماذا؟

فقالت المرأة: إن صهرك سوف يصر على طلاق ابنته وسوف يستمر في المضاعفات إلى أن تبلغ قدر ما خسرته عشر مرات. فإذا بلغت عشر مرات فوافق على هذا العرض على مضض وأظهر أنك توافق لا من باب الطمع، ولكن موافقتك ناتجة عن تقديرك لصهرك وحرصك على إرضائه.

وهكذا كان، ونفَّذ الرجل هذه الخطة بدقة بالغة.

وتعاقبت فصولها بحسب ما رسمت له المرأة. وتوصل الزوج وصهره إلى النتيجة التي كانت توقعتها المرأة، واتفق الزوج وصهره على الطلاق مقابل دفع المهر مضاعفا عشر مرات.

وجاء الليل وخيم على الكون وحضر الأب إلى بيت صهره ومعه بعض أفراد عائلته وكان يحمل المبلغ الذي اتفق عليه فنقده للزوج. وكتب الزوج ورقة الطلاق ودفعها إلى صهره بعد أن استوفى ما اتفقا عليه نقدًا وعدًا.

حمل الأب ابنته وودعهم الزوج وخرج في توديعهم إلى الباب. فلما اختفوا عنه أقفل عليه داره ثم ألقى نفسه على فراشه مرهقا متعبا. وجعلت الأفكار تتعاقب على مخيلته وعوامل الفرحة بالخلاص تغمر قلبه، وآثار التعب والإجهاد وهول المصيبة لا تزال تسيطر على جسمه المنهوك. وقال لنفسه:

- هل أنا أعيش في حقيقة أم خيال؟

إن ما وقع له أشبه ما يكون بالحلم المزعج الذي يراه المرء ويعيشه في

بعض لياليه القلقة، ثم يصحو من النوم فينتهي كل شيء. أما هذا الزوج فقد كاد أن يخسر عقله فى سويعات اليأس، ثم انتهت تلك السويعات وأفضت به إلى ثروة طائلة ما كان يحلم بالحصول عليها في أيام الشدة. ولكن الشدائد لها نهاية؛ وكم شرّ يجر إلى خير؟ وكم شدائد ومحن تفضي بالمرء إلى حياة سعيدة مستقرة؟

وجعلت هذه الأفكار تدور في ذهنه وأراد أن ينام، ولكن الهواجس لم تتركه ينام، فبقي يتقلب على فراشه تعبا مرهقا يترقب غفوة يتخلص فيها من متاعبه وأفكاره ولكن النوم لا يأتي.

وفي أخريات الليل غفا الرجل إغفاءة قصيرة استيقظ بعدها على زقزقة العصافير، ولكنه بقي في فراشه يترقب عودة النوم إلى أجفانه. وفعلا عاد النوم وذهب صاحبنا في نوم عميق نسي فيه الدنيا وهمومها وأفراحها. وعندما قرب المساء قام من نومه مرحا فرحا.

وفكر في صاحبه الذي أعانه في شدته ودله على طريق الخلاص، فلبس ثيابه وذهب إلى بيت صديقه ودق عليه الباب ففتحه وسلم كل واحد منهما على صديقه وسأل الصديق المستشار صديقه عما انتهى إليه أمره. فقص عليه القصة بجميع فصولها وأحداثها، وأخبره بنهايتها. فتعانق الصديقان عناق فرحة وسرور وحمدا لله على هذه النهاية السليمة التي كانت خاتمة المطاف.

أسطورة الطاحونة والمرأة والشيطان

أسدل الليل ستائره السوداء. وارتدى الكون ثيابه الداكنة، وساد الهدوء والسكون على القرية الصغيرة. وفي هذا الجوّ الهادئ الشاعريّ الذي يبعث السكينة والطمأنينة إلى النفس، جلست بعض النسوة العجائز على الأرض أمام أحد بيوت القرية، وكانت جدتي رحمها الله تتوسط الجلسة، وقد رحن يتسامرن ويتحادثن ويثرثرن كعادتهن، وكان موضوع الحديث تلك الليلة عن الطاحونة المهجورة التي يقطنها العفاريت ويمنعون نساء القرية من طحن غلالهن، والتي كان يملكها الشيخ طلال بن حمد، وهو من أحد أعيان القرية وقد مات مقتولا فيها، ولم يعرف أحدٌ مَن القاتل. وقد قيدت قضيته ضد مجهول.

ومن تلك اللحظة أغلقت الطاحونة ولم يجرؤ أي إنسان أن يقترب منها. وقد أشيع أن الشيخ طلال كان متزوجا من ملكة الجان وقد خانها من بنات البشر، فدبَّت الغيرة في قلبها فقتلته انتقامًا لشرفها الذي أهين. ومن وقتها راحت النِّساء يطحنّ غلالهن في طاحونة أخرى بعيدة عن القرية ببضعة كيلومترات وهذا ما كان يسبب لهن التعب والإنهاك، ولكن ما العمل؟ إنهن لابد أن يتحملن تلك المشقة فى سبيل أن يصنعن من الدقيق خبزا يأكلن منه ويسد جوعهن. ولقد كان تعليق إحدى النساء على موت الشيخ طلال قائلا:

- لقد كان الشيخ طلال عينه فارغة، وكان يفعل أشياء تغضب الله وقد نال جزاءَه.

وتقول أخرى:

- حقا كانت له أساليبه الدنيئة مع بنات الناس. كانت التي تعجبه يجعلها تطحن غلالها، والتي لا تعجبه يرفضها. كان يعاكسها ويطردها من الطاحونة ولا يجعلها تطحن غلالها. وهذا كان ثمن جبروته واستهتاره. إن ربه كان له بالمرصاد.

وتقول جدتي:

- نعم لقد نال عقابه. مات. ولكن ماذا نفعل نحن؟ إن أيَّ امرأة لا تستطيع أن تدخل هذه الطاحونة المسكونة التي تسكنها العفاريت.

منذ أيام قلائل تجرأت إحدى النساء ودخلت الطاحونة ومعها غلالها، وما أن وضعت القمح في الطاحونة حتى سمعت صوتا جهوريا قويا يصرخ فيها قائلا:

- أتجرؤين أيتها الإنسية القذرة أن تدخلي طاحونتي.

وذعرت المرأة المسكينة وتصلبت يداها ولـُجم لسانها، وراحت تجري وتجري وتقع أرضًا، ثم تحاول النهوض وتجري وهو خلفها يضربها بالسياط، إلى أن انكفأت على وجهها فاقدة الوعي. ومن يومها وهي راقدة في بيتها شبه مشلولة.

وتعلِّق إحدى النساء، قائلة:

- مسكينة هذه المرأة، ولكن ما العمل؟

وتصرخ إحدى الموجودات، وهي امرأة شابة جاوزت الثلاثين من عمرها على جانب عظيم من الجمال والحيوية والنشاط، قائلة في لهجة ساخرة:

- حقًّا... إنَّ النساءَ ناقصاتُ عقل ودين.

ونظرن إليها جميعا فاغرات أفواههن في دهشة قائلات:

- ماذا تقولين يا انتصار؟ ألم تصدِّقي ما نقول؟

وابتسمت المرأة في ثقة:

- أصدِّق أو لا أصدِّق. ولكن يجب على المرأة منا أن تكون قوية وشجاعة ومؤمنة بالله تعالى، وأن تطرد الخوف من نفسها وتفعل ما تود أن تفعله، وإن فشلت مرة أو مرات تحاول مرات ومرات ويكون عندها الأمل في النجاح.

إنَّ العفريت لا يقتل الإنسان لأن الله سبحانه وتعالى منعه من القتل ومن أن يزهق روح الإنسان. إن الموت بيد الله. والعمر واحد، والله واحد. لم يكن الشيطان أو العفريت عنده السلطان. حقًّا إنَّ الإنسان الضعيف الإرادة يخشى العفريت ويقول المثل «اللي يخاف من العفريت يطلع له، ما العفريت إلا بني آدم، الإنسان نفسه هو العفريت وهو الشيخ الورع».

قد يكون العفريت الذي في الطاحونة هو أحد ورثة القتيل أو أي رجل آخر يريد أن يجعل هذه الطاحونة له وحده يعيش فيها بمفرده ويمارس نشاطه الإجرامي. ولذلك هو يرهب الناس ويبعث في نفوسهم أو نفوسهن الذعر والجزع ولا يقترب من ممتلكاته التي سلبها، ومن يدري، ربما يكون هذا العفريت هو إنسان بشريّ، قريب صاحب الطاحونة وهو الذي قتله كي يستحوذ على الطاحونة.

وفغرت النساء أفواههن غير مصدقات ما يسمعن. وأردفت انتصار قائلة:

- أنا التي سوف أكسر حاجز الخوف الذي في قلوبكن. أنا التي أتجرأ وأتجاسر وسوف أحمل جوالاً من الغلال وأدخل الطاحونة بمفردي وأطحن غلالي. والله معي، وسوف أرى ماذا يفعل هذا العفريت بي. أرى ماذا يفعل بي؟ إنه لا يستطيع أن يقتلني لأن الروح من أمر ربي، هو الذي يحيي ويميت. إن العمر واحد والرب واحد، أما إذا كان إنسان فماذا يفعل بي؟ إنه لا يستطيع أن يفعل أي شيء أكثر مما نناله منهم كل يوم من تحرش وقلة أدب. سوف أفعل وأصمم على أن أحقق هدفي.

وتقاطعها إحدى النساء قائلة:

- حقا! إننا نرى كل يوم من المعاكسات أشكالا وألوانا من الرجال الخبثاء الأنذال، فإذا كان العفريت الموجود في الطاحونة رجلا من البشر. فما أكثر شيء يريده من المرأة؟ ففي هذه الحالة تستطيع المرأة أن توافقه على طلبه أو ترفضه!.. أما إذا كان عفريتا من الجان حقًا، فماذا يستطيع هذا العفريت أن يصنع مع امرأة من البشر؟ إن المرأة قد تستطيع بقوة إيمانها وثقتها وشجاعتها أن تنتصر على العفريت. ألم تسمعن عن المرأة التي انتصرت على الشيطان؟!..

وهتفت إحدى النساء:

- نعم سمعنا. وسمعنا أيضا عن المرأة الشيطان التى انتصرت على الشيطان نفسه، سواء كان رجلا من البشر أو عفريتا من الجان.

وتقول انتصار في ثقة:

- إذن سوف أكون أنا التي سوف تنتصر على الشيطان. غدا إن شاء الله سوف تكون المعركة بيني وبين الشيطان في الطاحونة المهجورة أو

في بيت الشيطان. وأنا مستعدة لمواجهة الموت. وسوف يكتب الله لي الانتصار وإن شاء الله سوف أكسب المعركة ضد الشيطان وسوف أكون أنا اسمًا على مسمًّى.

وهتفت النساء جميعهن:

- إن الله معك يا انتصار.

وأشرقت شمس اليوم التالي وأرسلت أشعتها الذهبية على المراعي والحقول، وحملت انتصار جوالا من القمح فوق رأسها، وقد تهدل شعرها الأسود الفاحم وراحت نسمات الهواء تداعبه فيتطاير حول وجهها المبتسم. وراحت تتمتم في ثقة وشجاعة: «اللَّهم انصرني على هذا الشيطان اللَّئيم. اللَّهم اكتب لي النصر المبين».

ووصلت إلى باب الطاحونة الضخم المغلق، ففتحته بهدوء وثقة. فانفتح الباب قليلا وتريثت لحظة كأنما انتابها الخوف، ولكنها بعثت في نفسها الشَّجاعة ودفعت الباب مرة واحدة دفعة قوية حتى لا تهبط عزيمتها، فانفتح الباب وهو يحدث صوتًا مرعبًا، كأنه صرخة الشيطان الذي بداخله، وتقدمت رابطة الجأش، بخطوات قوية، ثابتة، شجاعة، خطوات كلها ثقة وإيمان، خطوات جريئة نحو مصير مجهول وهي تتلفت حولها زائغة العينين مبتسمة في ثقة، متمتمة في إيمان: «اللهم أنقذني من هذا المصير المجهول. اللَّهم قوِّ إيماني. اللَّهم خذْ بيدي. اللَّهم انصرني على هذا الشيطان الرجيم، إن كان عفريتا من الجان، أو رجلا من البشر في ثوب شيطان. اللَّهم كن معي... كن معي».

واقتربت كثيرًا نحو الطاحونة وسكبت جوال القمح بداخلها، ثم ضغطت على الزر الكهربائي الذي يديرها، فدارت الطاحونة وهي

تصدر صوتًا قويًا، صاخبًا يقطع سكون المكان ويبدد الهدوء. ومضت لحظات تنظر حولها وهي تحاول أن تسيطر على أعصابها وتقول في نفسها: «اللّهم كلّل عملي هذا بنجاح».

وفجأة!.....

سمعت صوت الطاحونة ينقطع، وينقطع التيار الكهربائي، وصوتًا قويًا كالرعد، كالعاصفة.. كالبركان الذي ينفجر، يصرخ بقوة:

- من تلك المرأة التي تتجرأ أن تدخل طاحونتي وتديرها دون إذني؟ من التي تتجرأ أن تدخل هذا المكان الخاص بي وتزعجني؟

وتلجم لسان المرأة، وارتعدت مفاصلها عند سماعها هذا الصوت المخيف، ولكنها بثت الشجاعة في نفسها ونظرت خلفها. فإذا هي ترى عملاقا قويا يكاد يكون عاريا من ملابسه، يتطاير الشرر من عينيه ويسيل اللعاب من بين شفتيه الغليظتين. فحملقت فيه بشجاعة وهي ترسم شبه ابتسامة فوق شفتيها وتقول في رقة، في صوت كله أنوثة، وعذوبة، وشجاعة، وإيمان:

- أنا انتصار أيها الشيطان الرجيم. أنا المرأة من البشر جئت أطحن غلالي كي أطعم أطفالي الجياع. فهل يرضيك أن يموتوا جوعا؟

وقال العفريت في صوت أجش:

- نعم يرضيني أن يموتوا جوعًا، وتموتين أنتِ أيضا. هل أنت أحسن من نساء جنسك؟ إن أيَّ امرأة لا تجرأ أن تقترب من هذا المكان الذي هو بيتي.. بيت الشيطان.. أن يجرأ أن يكسر أوامر الشيطان، أوامري.

وخفق قلب المرأة جزعًا، ولكنها قالت في ثقة واعتزاز:

- أنا لا أكسر أوامـرك ولكني أرجوك أن تتركني أطحن غلالي وأنصرف.

ويضحك الشيطان في غرور قائلا:

- تطحنين غلالك وتنصرفين. ها ها!... إنك مغرورة أيتها المرأة المفتونة. ومن قال لك أنني سوف أسمح لك بذلك؟ من قال لك إنني سوف أدعك تنصرفين؟

وتحدق المرأة في عينيه الجاحظتين قائلة:

- قلت لك أرجوك أن تدعني أطحن غلالي وأنصرف.

ويقترب منها الشيطان ويمسك شعرها بيديه الغليظتين بقوة ويهزها قائلا:

- أنك تسخرين بي أيتها المرأة. إن هذا المكان لن يدخله أيُّ بشر.

وتشعر المرأة بشعرها يكاد ينتزع من رأسها ولكنها تتمالك وتصرخ فيه:

- إن كنت شيطانًا حقًّا، أو عفريتًا من الجان، فلا تسوّل لك نفسك أن تستعمل قوتك البدنية مع امرأةٍ ضعيفة مثلي. إن الشياطين لا يأتون هذه التصرفات البشرية. إنك رجلٌ مثل بقية البشر استطاع أن يستولي على هذه الطاحونة ويوهم الناس بأنه عفريت من الجان. لا.. لا.. إن الشيطان قد يكون رحيما أمام توسلات امرأة ضعيفة مثلي لا حول لها ولا قوة. إنك بشر.. بشر.

وتراجع الشيطان إلى الخلف وهو يفلت شعرها، وراح ينظر إليها في قسوة ويقول:

- إنك تخرِّفين أيتها المرأة، ولكن أنا مهما أكون فلن أدعك تطحنين غلالك وتذهبين.

وتصرخ فيه المرأة بقوة:

- لا بل سوف أطحن غلالي وأطعم أولادي ولتقتلني إذا أردت. إنني أستحلفك باسم الله القوي الجبار أن تجعلني أطحن غلالي وأنصرف.

ويصرخ فيها الشيطان وهو يشدها من ثوبها بقوة فتتمزق ملابسها ويظهر صدرها عاريا صارخا ثائرا..

ويحملق الشيطان في الصدر العاري ويرى جماله وفتنته وأنوثته. يرى الثمرتين الشهيتين الناضجتين، فيسيل لعابه ويقبض عليها بكلتا يديه يعصرهما في قسوة وهو يلقي بها على الأرض، فتقع المرأة وتتعرى أكثر ويزداد هو هياجًا، وتنتابه حالة من جنون الشهوة الجامحة. فيرتمي فوقها ويغتصبها عنوة؛ والمرأة تحته تحاول أن تقاوم وتناضل وتضربه بكلتا يديها. ولكن الشيطان أصابته الرغبة الشيطانية الحيوانية، فراح يسيطر عليها بقوته ويحتويها بين ذراعيه في قسوة.

وأخيرا.. انهارت المرأة واستسلمت لرغباته الجامحة مرغمة، وظل هو يروي عطشه منها حتى انهارت قواه، وارتمى بجانبها في إنهاك وتعب شديدين، وقد انتابته سنة من النوم.

ونظرت إليه المرأة في قرف. لقد نام الشيطان لا.. إنه ليس شيطانا، إنه رجلٌ وإلا ما فعل ما فعل.

ونظرت حولها فرأت آلة حادة، فانتابتها فكرة سريعة. فأمسكت بالآلة وهوت بها على رأسه فهشمته تماما ثم فصلته عن جسده بكل

وحشية ووضعته في جوال القمح ذاهبة به إلى نساء القرية اللواتي قابلنها بالزغاريد.

ومنذ تلك الليلة فتحت أبواب الطاحونة وراحت النساء يطحن غلالهن.

وحازت انتصار، الانتصار على هذا الشيطان الذي كان يبعث الخوف والرعب بين نساء القرية وهن لا يدرين ما الثمن الذي دفعته ثمنا لهذا النصر العظيم، وقتل الخوف الذي كان يسيطر عليهن.

أسطورة السحر الحلال

التفت النساء والأطفال حول جدتهم العجوز التي راحت تقص عليهم في صوت خافت، قائلة:

كان في قريتنا هذه رجلٌ كبير السن متزِّوجٌ من إحدى بنات عمه وقد رزق منها ستة أولاد ذكور، كبروا وصاروا رجالا أقوياء وساعدا لوالدهم في المهمات، وزينة وشرفا في جميع المناسبات.

كما أن هذا الشيخ كان شجاعا كريما محبوبا، يرحل قومهٍ معه إذا رحل وينزلون إذا نزل، ولا أحد منهم يخرج عن رأيه أو يشذّ عن طريقه.

وكان من عادة هذا الشيخ وأولاده أنه إذا نزل منزلا جعل بيته في مرتفع من الأرض. وحفت بيته بيوت أولاده؛ ثلاثة عن يمينه وثلاثة عن يساره.

وكبرت زوجة الشيخ ابنة عمه حتى صارت عجوزًا، بينما الشيخ لا يزال قويا يفيض بالمرح ويفيض بالحيوية.

واستشار الشيخ خفية بعض من يثق به في الزواج من زوجة ثانية فأشار عليه بالزواج من فتاة جميلة يعرفها، وهي من قبيلة أصيلة عريقة في الشرف والعروبة.

وصمَّم الشيخ على الزواج ولكنه كتم أمر هذا الزواج خوفا من أن تفسده زوجته القديمة وأولاده منها.

وفكر الشيخ في طريقة مفاجئة وحاسمة في هذا الزواج، ووجد الطريقة، حيث اختار ذات يوم عشرة من أفراد القبيلة ليس فيهم أحد من أولاده أو أقاربه المقربين، وأشاع بأنه سوف يغير بهم على قبيلة مناوئة غارة خاطفة وسوف يعود سريعا.

وسار الشيخ ورفقته العشرة حتى وصلوا إلى مضارب ذلك الحي الذي وصفت فيه الفتاة التي يريد خطبتها، وحلوا ضيوفا على والدها الذي هو شيخ قبيلته أيضا.

رحَّب بهم الشيخ، وأوقد النار وأكثر الحطب، وقدم لضيوفه القهوة والشاي، ثم قدم لهم بعد ذلك الذبائح في وليمة عامرة. وبعد أن انتهى الطعام خلا الشيخ بمضيفه، وقال له:

- لقد جئتك خاطبًا ابنتك.

فقال والد الفتاة: أهلاً وسهلاً، إنني لم أربِّها إلا للزواج الموفق السعيد. ودعوا بالمطوع حالا وعقد عقد الزواج. ودخل الشيخ بزوجته في ليلته تلك.

ثم أصبح الصباح، فاستأذن الشيخ في الرحيل، وأخذ زوجته معه وعاد بها إلى مضارب قومه وعشيرته. وأنزل زوجته في بيت في طرف من أطراف الحي.

وعلم أولاد الشيخ بهذا الزواج، وأخبروا والدتهم وكثر الهمس بين الأولاد وأمهم. وتحركت في الأم عوامل الغيرة والمنافسة، وبدأت تتزيَّن وتكحِّل عينيها وتمشط شعرها وتلبس حليها. وطلبت من زوجها أن يجعل لها ليلة وللأخرى ليلة ثانية، بينما كانت قبل هذا الزواج لا تنام

بالقرب من زوجها، وتعتذر بأنها كبرت ولم يبقَ عندها رغبات ولا شهوات.

واستجاب الشيخ لرغبة زوجته وابنة عمه، وصار يقسم لياليه بالعدل بين زوجتيه، وكان الشيخ يعتذر لزوجته القديمة ويطيب خاطرها ويحاول أن يطفئ من نار غضبها وغيرتها ما استطاع، ولكن عوامل الغيرة والمنافسة كانت على أشدها. واستمرت تلك المنافسة بين الزوجتين فترة قصيرة من الزمن ثم انتهت في صالح الزوجة الجديدة لأن المتنافستين غير متكافئتين.

وهدأت الأمور وسارت الأحوال، وتقبلت الزوجة القديمة وأولادها ذلك الأمر الواقع على ما فيه من مرارة وألم.

واستولت الزوجة الجديدة على قلب زوجها ومشاعره، وملكت عليه زمام أموره، فصار لا ينزل في منزل إلا بأمرها، ولا يرحل إلا بأمرها.

واشتد الأمر على الأولاد، وازدادت حسرتهم وازدادت آلامهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يقولوا شيئا خوفا من أن يغضبوا والدهم.

فضبطوا أعصابهم، وتركوا الأمور تسير كما قدر لها. ولكنهم لم يشعروا في يوم من الأيام إلا بالزوجة الجديدة تجعل وسم قبيلتها على إحدى الآبال الأصايل التي لوالدهم. وحز ذلك في نفوس الأولاد أكثر فأكثر، وقالوا فيما بينهم إن هذه الفتاة الغريبة قد سحرت والدنا حتى صار يسير على رغباتها ويحقق طلباتها ولا يخرج عما تريد.

فقال أكبرهم وماذا تريدوننا أن نفعل؟ إننا لا نستطيع أن نصنع شيئا، لأننا لا نريد أن نغضب والدنا، ولا أن نشمت أعداءنا. وسكت الأولاد

على مضض، ومرت هذه الحادثة بسلام.

ولكن الأولاد لم يشعروا ذات يوم إلا بالزوجة الجديدة تجعل وسم قبيلتها على ذود بأكمله هو ذود المجاهيم، وهو أكرم ذود عندهم وأغره. فقد طلبت الزوجة الغريبة من زوجها هذا الذود فأعطاها إياه وسمح لها بأن تضع وسم قبيلتها على كل واحد منه.

ورأى الأولاد الستة ما صنعت زوجة والدهم، فكادوا أن يفقدوا صوابهم، ولكنهم تواصوا بالصبر. وذهبوا إلى أخيهم الكبير واشتكوا إليه الحالة وقالوا: إن الأمر بلغ مبلغًا لا يحسن السكوت عليه، لقد سحرت هذه الفتاة الغريبة والدنا، وهيمنت عليه هيمنة تامة. وقد كان لا ينزل إلا بأمرها ولا يرحل إلا بأمرها فقبلنا هذا الأمر وسكتنا عليه. ثم وضعت وسم قبيلتها على أمرك ناقة لدينا فقبلنا ذلك الأمر وصبرنا عليه. والآن تضع وسم قبيلتها على ذود بأكمله، وهذا أكرم ذود لدينا وأشرفه؟

لقد نفد الصبر، ولم يبق في قوس الاحتمال منزع وليس لدينا شك في أن هذه الزوجة الغريبة قد سحرت والدنا، حتى صارت بواسطة هذا السِّحر تتحكم فيه وتملي عليه أوامرها، وتسيِّره كما تشاء وتهوى، وقد بلغ الأمر مستوى لا يحسن السكوت عليه.

فقال الأخ الأكبر: إنني معكم في رأيكم في أن والدنا ليس سويًا، وتصرفاته ليست سليمة، ولا شك عندي أن هذه الزوجة الغريبة قد صنعت له شيئا حتى صار لا يخرج عن رأيها، ولا يردُّ لها طلبًا.

ولكن ما هو الطريق إلى علاج هذا الوضع؟ إننا إن كلمنا والدنا

أغضبناه، وقد يزداد في اندفاعه وتصرفاته هذه. فماذا نصنع إذًا؟

فقال أصغرهم: إنَّ الرأي عندي. فقال الإخوة الباقون: وما هو الرأي؟

فقال: هو أن نذهب إلى أمير منطقتنا، وأن نشكو عليه والدنا، ونقصّ عليه تصرفاته، ونخبره بأن هذه الزوجة الغريبة قد سحرته. ونطلب إحالتنا نحن ووالدنا وزوجته الجديدة إلى القاضي الشرعي ليحكم في الأمر ويفصل في القضية.

وشكا الأولاد والدهم وزوجته، وشكَّ الأمير في الدعوى، وتردد في قبول شكوى الأولاد ضد والدهم.

ولكن الأولاد ألحوا على الأمير وأكدوا له صدق دعواهم ، وقالوا: إن الشَّرع هو الشَّرع فيما يتعلق بالآباء والأبناء، وشكوانا ليست لوالدنا، وإنما الشكوى منصبة بكل ثقلها على تلك الزوجة الغريبة التي فعلت الأفاعيل وقلبت أدمغة الرجال، وصارت تصرفاتها مثار الشكوك.

وأرسل الأمير رسولا يستدعي الشيخ وزوجته الغريبة. وجاء الشيخ ومعه زوجته، وهو لا يدري بدعوى أولاده. وعندما وصل وسلم على الأمير قال له: إنَّ أولادك قد قدَّموا دعوى ضدَّك أو ضدَّ زوجتك أو ضدَّكما أنتما الاثنين، وأنا الآن سوف أبعثكم إلى القاضي لينظر في الدعوى.

فبهت الشيخ وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله! أولادي يشتكونني.

وذهب الجميع إلى القاضي وجلسوا في حلقة حواليه. ونظر إليهم القاضي وقال: مَن المدعي؟

فقال الأولاد الستة بصوت واحد: نحن.

وسأل القاضي مرة ثانية قائلا:

- ومَن المدَّعى عليه؟

فقالوا أيضًا: إنه والدنا وزوجته.

وسأل القاضي عن الزوجة فقال الشيخ: إنها هنا عند الباب. فأمر القاضي بأن تحضر وأن تسمع ما يوجه إليها من تهم وأن تدافع عن نفسها وتبرئها من تلك التهم.

وحضرت الزوجة وتكلم القاضي فقال:

- أنيبوا عنكم أيها الأخوة أحدكم، وليكن المتكلم منكم واحدا.

فأنابوا كبيرهم.

وسأله القاضي عن دعواه فقال: إنني أنا وإخوتي نتهم زوجة والدي بأنها سحرته وسيطرت على عواطفه حتى انقاد لها كما يقاد البعير بالزمام.

فقال القاضي: وما هي الأدلة على كلامك؟

فقال الأخ الأكبر: لقد كان والدنا سديد الرأي، صائب التفكير، معقول التصرفات حتى جاءت هذه الزوجة فصارت تسيره كما تشاء؛ فلا يرحل إلا بأمرها ولا ينزل إلا بأمرها. وأخيرا أعطاها أكرم إبله وأغلاها، فوضعت وسم قبيلتها على تلك الإبل وهي ذود المجاهيم.

هذه دعوانا على والدنا وعلى زوجته الجديدة.

والتفت القاضي إلى الوالد فقال له: ما رأيك في هذا الكلام؟

فقال الشيخ: إن الدعوى موجهة إلى زوجتي في الدرجة الأولى وأنا في هذه الدعوى قد وقعت بين نارَين؛ أولادي الذين أحبهم، وزوجتي التي أحبها أيضًا.

لهذا فسوف يكون موقفي في هذه الدعوى كشاهد، لأن الدعوى موجهة في الدرجة الأولى ضد زوجتي. ولن أتدخل في هذه الخصومة إلا عندما يوجه إليّ فضيلة القاضي سؤالا أو استفسارًا.

وسأله القاضي: هل سحرتك زوجتك كما يقول أولادك؟

فقال: إنه لا يشعر بأيِّ شيء من هذا. ولكن المسحور قد لا يعلم أنه مسحور، كما أن المجنون قد لا يشعر أنه مجنون. فالسحر شيء خفي لا يعرف إلا بآثاره.

فقال القاضي: ما جوابك عن ذود الإبل التي أعطيتها زوجتك الجديدة؟

فقال الشيخ: أما ذود الإبل فنعم أعطيتها إياه لأنني بخستها حقها في المهر عند الزواج ، فأردت أن أعوضها عما فاتها. وأنا في الواقع أعطيتها الذود ولكنها هي والذود لي. فالذود يرد ويصدر علينا، فكأن شيئا لم يكن.

وانتهى القاضي من أسئلته للشيخ وجاء دور الزوجة فوجه إليها القاضي هذا السؤال فقال:

– لقد سمعتِ ما قاله أولاد زوجك، وما وجهوه إليك من تهمة. فهل هو صحيح أنكَ قد سحرت زوجك حتى صار ينقاد لما تريدين انقيادًا أعمى، فلا يتصرف إلا بأمرك؟ فماذا تقولين في هذه التهمة؟

وأنصت القاضي في انتظار جواب الزوجة، وترقب أولاد الشيخ ما ستقوله هذه الزوجة أيضا.

وتكلمت الزوجة فقالت: نعم لقد سحرته.

ورفع القاضي رأسه.

وتحفز الأولاد ورفعوا رؤوسهم. وقالوا فيما بينهم وبين أنفسهم لقد انتصرنا، فقد اعترفت بالتهمة، ولم يبق إلا الحكم عليها.

فقال القاضي: وكيف سحرتِه؟

فقالت الزوجة: نعم سحرته بأفخاذي الدافئات ونهودي الواقفات. وملكت عواطفه بخدي الأسيل وطرفي الكحيل وشعري الطويل. إن جاء إلى البيت وجدني. وإن دعاني أتيت أو طلب مني شيئا لبيت، لا يسمع مني إلا ما يحب، ولا يرى مني إلا ما يهوى؛ إن غضب لاينت، وإن سكتَ تكلمت، وإن أنعم شكرت، وإن قصَّر صبرت.

بهذه الخلال وأمثالها سحرته. فإن كان في عملي هذا ما يخالف الشرع أو يقدح في الشرف فاحكم أيها القاضي علي بما استحقه.

وبعد أن سمع أولاد الشيخ كلام الزوجة انكمشوا وعلموا أن الحكم لن يكون في صالحهم.

ونطق القاضي بالحكم قائلا:

- لعمرك إن هذا لهو السِّحر الحلال الذي يبحث عنه جميع الرجال. قوموا أيها الأولاد فليس لكم دعوى على شيخكم ولا على زوجته.

وقام الخصوم من مجلس القاضي، وركبوا فوق رواحلهم وساروا صفًا واحدًا وفي طريق واحد.

وشعر الشيخ بمرارة الهزيمة على أولاده فطيب خاطرهم. وشعر الأولاد بإساءتهم إلى والدهم وزوجته، فبدأوا يكفرون عن خطيئتهم. وعلم الوالد من مجريات الدعوى أن أكثر ما أغضب أولاده وحز في نفوسهم هو إعطاء الزوجة ذلك الذود من المجاهيم. ولهذا فقد فرق على أولاده إبلا من كرائم الإبل التي يملكها.

وبهذا هدأت صدورهم، ورضوا عن والدهم، ولم يحاولوا في يوم من الأيام أن ينغّصوا عليه تلك العلاقة الطيبة بزوجته الجديدة، تلك العلاقة المشحونة بالحب والوفاق التي يعيش فيها شيخهم.

وسارت الأمور على هذا المنوال، ولكن كل حال إلى زوال، وكل اجتماع إلى افتراق، وسبحان من لا يحول ولا يزول.

ورفرفت حمامة السلام على بيت الشيخ العجوز وزوجته الساحرة الحسناء.

أسطورة
الأميرات العابثات

غربت الشمس وراء الأفق البعيد وأسدل الليل ستائره على الكون، وجلست جدتي العجوز، وراحت تحكى قائلة:

كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان سلطان واسع الثراء متزوجٌ من ملكة جميلة ولكنها كانت مئناثا، أي لا تأتي إلا بإناث.

فولدت للسلطان أول مولود طفلة، ثم أتبعتها بأخرى وثالثة ورابعة. وكان السلطان يتطلع إلى مولود ذكر يشد أزره ويخلد ذكره ويرث عرشه. ولكن أمنية هذا السلطان لم تتحقق والكمال لوجه الله. فقد طلب هذا السلطان المجد فحازه من كل أطرافه، وأراد ولدًا ذكرا فلم يرزق ولدا. ولو كان هذا الأمر يؤخذ بالقوة والإقدام لأخذه هذا السلطان بلا تأخر ولا توان، ولكنها مواهب يهبها الواحد المنَّان.

وصبر هذا السلطان وتقبل هذا الواقع على مضض. غير أنه كان يتعلق بخيط ضعيف من الأمل عندما تحمل زوجته، فإذا وضعت أنثى تلاشى أمله وتكالب عليه الحزن واشتد به الجزع.

وهكذا استمر هذا السلطان على حالته بين اليأس والأمل. واستمرت زوجته في ولادة الإناث، حتى بلغ عددُهن اثنتَي عشرة أميرة؛ وكن أميرات في غاية الجمال والروعة والدلال.

فأمر السلطان بأن يبني لهن غرفة واسعة خاصة يجتمعن فيها وينمن فيها، وتكون هي مسرحهن وقصرهن. واجتمع بنات السلطان الاثنتا

عشرة في هذه الغرفة وعشن فيها كأحسن ما يعيش الإخوان من تعاون واتفاق على كل الأمور. وكانت الكبرى هي صاحبة الكلمة الأولى.

وعاشت هؤلاء الأميرات معززات مكرَّمات ولكنهن معزولات، يشعرن بما يحيط بهن من فراغ وعواطف وانفعالات.

وكبرت الأميرات حتى بلغن سنَّ الزواج. وكانت كل واحدة منهن تضرب بجمالها المثل. وسار ذكر جمالهن في طول البلاد وعرضها، وسمع به القريب والبعيد من سلاطين البلاد المجاورة.

وجاء الخطَّاب إلى السلطان من كل جهة وصوب. ولكن هذا السلطان لا يريد أن يهب بناته لأزواج قد لا يستحقونهن، ولا يرتفعون إلى مستواهن من علم وعقل ودهاء.

وكان السلطان قد لاحظ على بناته ملاحظة لم يستطع أن يعرف حقيقتها، وهي أن بناته الاثنتي عشرة يُمسين وأحذيتهن جديدات، ويصبحن باليات مقطعات. كان هذا هو دأبهن كلَّ ليلة.

وقد حرص السلطان على أن يعرف السبب وأوصى الخدم والحشم الذين يحيطون ببناته بأن يراقبوا هذه الظاهرة وأن يخبروه بسرها. ولكن الرقباء والعيون لم يستطيعوا أن يحلوا هذا اللغز، ولا أن يعرفوا الأسباب لهذه الظاهرة الغريبة.

وأعلن السلطان بأنه لن يزوج أحدا من بناته حتى يعرف هذه الظاهرة. وإذا أخفق الخاطب في هذا الأمر فإن جزاءه الموت. لأن من يرى الأميرات ويراقبهن لابد أن يتزوج بإحداهن، أو يموت في سبيلهن.

وشاع هذا الشرط. أو هذه العقوبة بين الناس. وكان كثير من الأمراء يرغبون من الزواج بإحدى هؤلاء الأميرات، ولكن ذلك الشرط القاسي يحول بينهم وبين ما يرغبون. ولهذا فقد تقاعس الكثير من الأمراء عن هذا المطلب العسير.

إلا أن هناك بعض الأمراء المغامرين تقدموا إلى السلطان خاطبين. فتقدم أول أمير وهو واثق بذكائه ودهائه، وأنه سوف يكتشف هذا السر ويفوز بإحدى بنات السلطان. وأخبر السلطان هذا الأمير بما يراد منه، وأخبره بالنتائج، وهي إما الزواج بإحدى الأميرات أو الموت.

فقبل الأمير رقم واحد هذا الشرط. وأُدخل الى القصر السلطاني وأُنزل في غرفة مجاورة لغرفة الفتيات الاثنتي عشرة، بحيث يستطيع مراقبة الغرفة من جميع جهاتها. وجاء الليل، وعلمت الأميرات بهذا الضيف الجديد، والمهمة التي أنزل من أجلها في غرفة المراقبة.

وبدأ الرجل يتطلع يمينا وشمالا، ويراقب الأبواب ويراقب النوافذ، ويراقب كل ما يحيط به ليعرف السر وليفوز بإحداهن ولينجو من الموت.

وخرجت إليه إحدى الأميرات وسلّمت، فردَّ عليها التحية بأحسن منها. وقالت له أنت ضيفنا هذه الليلة. حق الضيف الإكرام، ولكننا فتيات معزولات وليس لدينا ما نقدمه لضيفنا العزيز إلا هذا الشراب الذي هو أحلى من الرضاب.

وقدمت له كأسا من الشراب في كوب لطيف وبشكل ظريف، فأخذه من يدها وشربه بلا روية ولا تفكير. وأخذت الفتاة منه الكأس فارغا بعد أن أعطته إياه ملآنا. ولم يلبث هذا الأمير إلا دقائق معدودات حتى غلب عليه النوم وراح في سبات عميق.

أما الأميرات فإن أكبرهن أزاحت أحد الأبسطة، ثم تكلمت ببعض الكلمات فانفتحت الأرض، وهبطن من هذه الفتحة وذهبن إلى حيث يذهبن كلّ ليلة.

وجاء الصباح، ووجد الأمير نائما، والأميرات قد صنعن في هذه الليلة مثلما يصنعنه كل ليلة. وقُدِّم الأمير ليد الجلاد بلا تردد ولا عناد، فهذا هو الشرط الذي جرى عليه الاتفاق لا مفر منه ولا انعتاق.

وانتهى دور المغامر الأول وتبعه أمير ثان على أمل أن يكون أذكى من سابقه وأكثر يقظة وذكاء، ولكن نفس الأسلوب الذي سلكه الأول ونفس النتيجة التي انتهى إليها، كانت هي مصير الثاني. وتبعهما ثالث ورابع وخامس إلى أن بلغ الضحايا اثنا عشر أميرا بعدد الأميرات.

هنا توقف الخطَّاب، وبدأ كل من يريد أن يتقدم يحسب للشرط ألف حساب.

وكان هناك جنديٌّ مغامر ذاق مرارة الجوع وشظف العيش ومرت عليه أنواع الشدائد والمحن. وقال هذا الجندي في نفسه لماذا لا أتقدم لخطبة إحدى هؤلاء الأميرات؟ فإما أن أحيا سعيدا، وإما أن أموت وأتخلص من هذه الحياة الشقية غير المأسوف عليها.

وراقت لهذا الجندي تلك الفكرة وتغلغلت في أعماقه، وصارت هي حديث نفسه في جميع الأوقات.

ولم يبح بهذه الهواجس لأحد ماعدا عجوز يعرف قدرتها العجيبة على معرفة الأمور وحل المشاكل، وتخطي العقبات. فذهب هذا الجندي يستشيرها ويطلب منها رأيها وتدبيرها.

وقد نفحها بكل ما لديه وما وفره من نقود. ووعدها بأنه إذا فاز بإحدى الأميرات فإنه سوف يكون للعجوز كالولد البار الذي يقاسم والديه كل ما يملكه من ثراء.

وقالت العجوز لهذا الجندى: أترك لي فرصة للتكفير إلى الغد. فأعطاها الجندي فرصة للتفكير والتروي. فالأمر خطير وفيه حياة أو موت، وعليه يترتب الفشل الأبدي أو النجاح الباهر.

وذهب الجندي ثم عاد إلى العجوز في الغد، فقالت له: لقد وجدت الطريق إلى الفوز فألقِ إليّ بسمعك، وأرعني تفكيرك واتبع ما سوف أقوله لك. فإنك إذا فعَلت ذلك سوف تحظى بمطلوبك وتنال مرادك، وتنجو من ألوان الشقاء التي تعيش فيها.

وأصاخ الجندي بسمعه إلى تلك العجوز، فقالت له:

- إنك إذا جُعلتَ في غرفة مقابلة لغرفة الأميرات فسوف تأتيك إحداهن ومعها شراب في كوب وسوف تقدمه إليك كضيافة لك. فإذا أعطتك هذا الكأس فخذه منها وتظاهر بأنك تشربه أمامها. ولكن إياك أن تشرب منه نقطة واحدة، بل صبه بين ثوبك وجلدك، ودعه يتسرب بين ملابسك. ثم تظاهر بعد ذلك بأنك رحت في نوم عميق. فإذا اطمأنت الفتيات بأنك نمت فإنهن سوف يقمن بالاستعداد للذهاب إلى حيث يذهبن كل ليلة.

فافتح عينيك بحذر وراقبهن بيقظة تامة. وخذ هذه العباءة فإنك إذا لبستها سوف ترى ولا تُرى. كما أن هذه العباءة سوف تطير بك في مجال الطيران، وسوف تهوي بك إلى أعماق الأرض إذا كان الأمر يتطلب ذلك.

فشكرها الجندي على هديتها الثمينة وعلى إرشاداتها القيمة، وأخذ العباءة معه ولفها في منديل ووضعها تحت أبطه ثم توجه إلى قصر السلطان. وتقدم إليه على أنه خاطب، فرحَّب به السلطان. وقال له: هل تعرف الشرط إذا أخفقت فيما طلب منك؟ فقال الجندي: نعم إنني أعرفه وأنا أرضى به ومقدم عليه.

وأمر السلطان بأن ينزل الجندي في تلك الغرفة التي سكنها أشخاص عدة ثم ذهبوا في خبر كان. وكان كل واحد منهم يمنِّي نفسه بأن يكون أذكى من سابقه ولكن نتيجتهم كانت واحدة.

وجاءت إحدى الأميرات إلى ذلك الجندي بالكأس المعهود وسلمت عليه وقدمته له على أنه ضيافته من قبل الأميرات. فشكرها وأخذ الكأس وتظاهر بأنه يشربه ولكنه صبَّه بين جلده وثوبه. ثم تظاهر بأنه راح في نوم عميق.

وجاء موعد ذهاب الأميرات فلبسن ملابسهن، والجندي يراقبهن مراقبة يقظة، ثم وقفت كبراهن عند زاوية من زوايا حجرتهن وجعلت تتلو بعض الكلمات والجمل التي لم يفهم من معانيها شيئا.

وبعد تلك الكلمات انفتحت في أرض الغرفة فتحة بقدر ما يدخل الإنسان، يتصل بها سرداب طويل ينزل في أعماق الأرض. وهبطت الأميرات مع تلك الفتحة ورحن يسرن في ذلك السرداب الطويل ونهض الجندي الشجاع ولبس تلك العباءة السحرية، ثم نزل من تلك الفتحة التي نزلت منها الأميرات، ثم جعل يقتفي خطاهن، ويسير حيث يسرن وهو يراهن وهن لا يرونه ويسمع كلامهن وهو صامت لا يتكلم.

وقالت الأميرة الصغرى لأخواتها: إنني أحس إحساسًا غريبًا بشيء

من الانقباض لا أعرف له سببًا، وإنني أترقب شرًّا من هذا الخاطب الجديد، وأشعر شعورًا داخليًّا بأنه سوف ينجح في مهمته ويكتشف سرَّنا.

فقالت لها أختها الكبرى: إنك دائما متشائمة، وترقبين الشر، وتتوقعين الكوارث، وتخشين من أمور لا يصح أن يحسب لها المرء أي حساب. أما تذكرين كم مر بنا من الأمراء الأذكياء الذين ذهبت مساعيهم سدى وكان مصيرهم الرَّدى؟

فسكتت الصغرى على مضض. وسارت الأميرات في طريقهن، والجندي يتابعهن متابعة الظل؛ يستقيم حيث يستقمن وينحرف حيث ينحرفن.

وبعد قليل من السير أفضى بهن ذلك السرداب إلى واد جان متشابك الأشجار مغرد الأطيار، فانبهر الجندي أشد الانبهار. وأمعن النظر في أشجار ذلك الوادي، فإذا هي من فضة خالصة تلمع لمعانا براقا، وتتوهج بالإشراق والصفاء.

وأراد الجندي أن يأخذ غصنا من إحدى الشجرات ليكون له بينة وشاهد عدل بصدقه. وقصد إحدى الشجرات وأمسك بغصن وقطعه، ولكن الغصن عند القطع صاح بصوت سمعه الأميرات والتفتن يمينا ويسارا فلم يرين أحدا. فعدن إلى حالتهن ولم يقلقن من ذلك الصوت ماعدا الأميرة الصغرى التي علقت عليه قائلة:

– لقد قلت لكن يا أخواتي إنني أحسّ بأننا مراقبات، وأن معنا شخصًا يراقب حركاتنا وسكناتنا، ويسير معنا حيث سرنا. ولكن الأميرة الكبرى قالت لأختها: إنكِ دائما متشائمة، تظنين أسوأ الظنون وتخافين

من الأوهام وترهبين من لا شيء. وما هذا الصوت الذي سمعناه إلا صوت أحد أصدقائنا من الأمراء الذين ينتظروننا ويترقبون وصولنا إليهم.

وسكتت الصغرى على مضض.

وواصلت الفتيات سيرهن والجندي يسايرهن ويتبع خطاهن، وهن لا يرونه وهو يراهن. وخرجن من الوادي الأول ودخلن في واد آخر يفوق الأول جمالا وروعة. ونظر الجندي إلى أشجاره فإذا هو يرى لها وهجا وإشراقا أكثر من الوادي الأول. وأمعن النظر فإذا تلك الأشجار كلها من الذهب الخالص.

وقصد إحدى الشجرات، واختار منها غصنا فقطعه وحدث صوت وصراخ من الشجرة سمعه الفتيات، ولكنهن لم يلتفتن إليه ماعدا الصغرى فإنها لفتت أنظار أخواتها إلى ذلك الصوت، وقالت إن معنا شخص غريب يتتبع خطانا ويراقب حركاتنا، وهذا الصوت الذي سمعناه هو أقوى دليل على ذلك.

فأسكتتها أختها الكبرى وقالت لها إن ذلك الصوت من أصوات الأصدقاء الذين ينتظرون وصولنا إليهم، ولا مجال للتخوف ولا للأوهام.

ومضت الفتيات في طريقهن وخرجن من ذلك الوادي ودخلن في وادٍ ثالث له وهج وإشراق أكثر من سابقيه ونظر الجندي إلى أشجاره فإذا ثمارها من اللؤلؤ والمرجان.

وذهب الجندي إلى إحدى تلك الأشجار واختار غصنا من أغصانها فقطفه وأخذه معه وأحدث قطعه صرخة سمعها الأخوات، ولكن

الصغرى لم تقل شيئا والأخريات لم يعرن ذلك الصوت أي التفات.

وواصلن السير فخرجن من ذلك الوادي وأشرفن على بحيرة عظيمة وعندما وصلن إلى ساحلها وجدن اثني عشر أميرًا في انتظارهن. وكل أمير لديه زورق في غاية الروعة والبهاء. وركبت كل أميرة في زورق. أما الجندي فقد ركب في الزورق الذي ركبت فيه الأميرة الصغرى.

وسار هذا الموكب من الزوارق في عرض البحيرة، ولكن زورق الأميرة الصغيرة كان في المؤخرة، وقد بذل الأمير الذي يقوده جهودا مضنية ليكون في المقدمة كما هي عادته ولكنه لم يستطع. وقال للأميرة:

- إنني أجدف بكل قوتي ولكن الزورق بطيء الحركة، ثقيل السير على خلاف عادته.

فقالت الأميرة: لعل لذلك سببا خفيا لا ندريه.

واستمر الموكب في سيره إلى أن وصل إلى الشاطئ الثاني وإذا فيه قلعة قد بنيت على تلٍ مرتفع يشرف على البحيرة. وقصد الجميع إلى تلك القلعة المتلألئة بالأنوار المحاطة بالأزهار، وعندما قربوا منها سمعوا أصوات الموسيقى العذبة، وشمّوا الروائح الزكية.

وكان في تلك القلعة إيوان واسع معدٌّ للرقص، فدخله الجميع وأخذوا يرقصون على أنغام الموسيقى، ويردِّدون بعض المقاطع من تلك الأغاني التي يسمعونها من الموسيقى.

ودهش الجندي من جمال تلك القلعة وحسن تنسيقها، وأجال نظره باحثا عن مصدر الموسيقى والأغاني فلم يرَ شيئا.

واستمرَّ الرقص إلى قرب الفجر؛ وعندئذ خرج الجميع واتجهوا إلى الزوارق فركبوها. وركب الجندي مع الأميرة الكبيرة بعد أن أخذ من تلك القلعة كأسًا نادرة. وسبحت الزوارق بمن فيها إلى الشاطئ المقابل، وهناك ودَّع كل أمير رفيقته، واتفق الجميع على أن يكون الموعد غدا في نفس الزمان والمكان المعتاد.

وسارت الفتيات في طريقهن الذي جئن منه. وعندما وصلن السرداب الذي يصل بهن إلى غرفتهن سبقهن الجندي، وصعد إلى غرفته مسرعا ونام على فراشه وارتفع شخيره. وعندما جاءت الفتيات وأشرفن عليه وجدنه نائما لا يبدي حراكًا.

فخلعت كل واحدة منهن ملابسها، وكانت أحذيتهن قد تخرقت من كثرة الرقص.

ودعا السلطان ذلك الجندي في الصباح، وسأله عما رأى وعما سمع، وكان الجلاد قد استعد لقطع رأسه، والنطع قد فرش في المكان المعتاد. ولكن الجندي قال للسلطان: لقد عرفتُ السر واطلعت على الأسباب.

فقال له السلطان: أفصحْ في الجواب، وعليك بالاقتضاب.

فقصَّ عليه الجندي جميع ما شاهد، وأخبره بكل ما رأى وبكل ما سمع، وأخرج له الأغصان الثلاثَ والكأس النادرة، وفرح السلطان بتوصله إلى تلك المعلومات.

وكانت الأميرات خلف الباب ينصتن إلى ما يدور بين والدهن السلطان وبين الجندي، وسمعن كل شيء وعرفن أن أمرهن قد انكشف.

وبعد دقائق معدودات أمر السلطان بأن تحضر بناته الاثنتا عشرة بين

يديه ليحقق معهن، وليعرف من أفواههن صدق ما نُسب إليهن.

وجـاءت الفتيات الاثنتا عشرة، وسألهن والدهن أين يذهبن ومـاذا يقلن في الأخبار التي نقلها إليه ذلـك الجندي الذكي.

ورأت الأمـيرات أنـه لا مجـال للإنكار فاعترفن بما جرى، وأرفـقـن هـذا الاعـتراف بـالاعـتـذار وإعـلان التوبة والندم على كل ما جـرى، وأظـهـرن تصميمهن على عـدم الـعـودة إلى مثل هـذه الأمـور التي قادهن إليها طيش الشباب والفراغ.

وقال السلطان للجندي: لقد نجحت أيها الجندي في هذا الأمر الذي فشل فيه رجال كثيرون، ولهذا فإنني وفاءً بالشرط وحفاظًا على الوعد أخيِّرك بين بناتي الاثنتي عشرة، فاختر عروسك من بينهن، فأنت أهل لأحسنهن وكفء لما شئته منهن.

فشكر الجندي السلطان على كريم وفائه، وقال له: يا مولاي السلطان إنني كبير فى السن بعض الشيء وأرى أن الأحسن لي ولزوجتي أن نكون متقاربين في السن، ولهذا فإنني أختار كبرى الأميرات.

وأرسل السلطان حالا إلى رئيس القضاة في مملكته المترامية الأطراف، وأحضر الشهود وعقد للجندي الشجاع على كبرى الأميرات، وعاش معها في تبات ونبات، ورزق منها الكثير من البنين والبنات.

أسطورة الوصية

مالت الشمس نحو الغروب وأظلم الكون. وابتدأت قطرات مياه تتساقط على الأرض وتغرق النخيل والأشجار والبشر، كأنها تغسل خطاياهم وتطهرهم من أدناسهم. والتفت النسوة والأطفال حول النيران المتقدة يلتمسون الدفء وهم يحكون أجمل الحكايات ويمرحون ويضحكون.

وفجأة قالت إحدى النساء: أما أنا.. فسأحكي لكم حكاية الوصية.

وقال الجميع في دهشة: الوصية!..

قالت المرأة: نعم وصية الأب الذي أوصى ابنه أن يتزوج من فتاة وليست امرأة، ولكن الشاب عصى والده، وتزوج من امرأة كان يعاشرها في الخفاء. ولكن انظرن.. ماذا حدث له بسبب مخالفته الوصية.

كان تاجراً مشهوراً له ثروة طائلة ولم يرزق إلا ولداً واحداً، فكان هذا الولد أمله في الحياة وموضع اهتمامه ورعايته، وكان يتعهده بالنصائح ما بين وقت وآخر.

وكبر هذا التاجر.. وصار ولده شاباً مكتمل الرجولة. وأحس الوالد بالضعف والكبر فصفّى تجارته وحولها إلى ذهب، ولم يترك منها إلا بقايا بسيطة للإنفاق على أسرته.

وجمع هذا الذهب ووضعه في جلد رقبة بعير ثم حفر حفرة تحت سقف الدرجة ودفنه فيه..

وصار معظم أماني الوالد أن يتزوج ولده.. ولكن الزواج لا بد أن يكون من امرأة تكون بكراً لم تجرب الأزواج ولم تتنقل بينهم.. ودعا ولده ذات يوم وقال له:

- يا ولدي إن أيامي في الدنيا معدودة.. وإن أمنيتي في أخريات حياتي أن أراك متزوجاً زواجاً موفقاً.. وأن أرى أولادك قبل أن أغادر هذه الدار الفانية.. وإن لي وصية في الزوجة وهي أن تكون بكراً.. وإياك والمرأة الثيب...!!!

فأجابه ولده بأن عمرك إن شاء الله سوف يطول وأن نصائحك لي سوف تكون نافذة.. وسأحرص على تطبيقها بحذافيرها.. فدعا له والده بالتوفيق ثم انصرف الولد من عند والده..

ودارت الأيام وأحب الولد امرأة مطلّقة بطريقة ما..!!

وبادلته هذا الحبّ.. واتفقا على الزواج واشترط عليها إذا سألها والده هل هي بكر أن تقول له إن ولدك تزوجني وأنا بكر.

وتمَّ الزواج ونقل الولد زوجته إلى دار أبيه وسأله لعل زوجته بكرٌ، فقال إنها بكر.. وسأل الوالد الزوجة عن ذلك فكان جوابها مطابقاً لجواب ولده..

وسرَّ الوالد من هذا الزواج وقرت عينه باستقرارٍ ابنه.. ووضعه اللبنة الأولى في سبيل تكوين أسرة تحمل اسم العائلة وتخلد ذكراها..!!

وتكاثرت الأمراض على الأب، وحطت من قواه أمراض الشيخوخة فكانت زوجة ولده تظهر نحوه عطفاً وشفقة وتقوم بخدمته ليل نهار ولا تكاد تفارق فراشه الذي أمسى ملازماً له طيلة ساعات الليل والنهار..

وتوسم الشيخ في زوجة ولده عقلاً ونجابة وحسن تدبير.. كما أنه من ناحية ثانية.. يرى أن ولده لا يزال في ريعان الشباب.. ولا تزال تسيطر على نفسه بعض نزوات الشباب وطيشه.. ولهذا فقد أخفى مخزون الذهب عن ولده ولم يطلعه على أي خبر عنه..

وعندما أحس الشيخ بدنو أجله.. جاء بزوجة ولده وقال لها لقد خلّفت لكم ثروة بعضها بين أيديكم أنفقوا منها باتزان وتعقل، والبعض الآخر مدفون تحت سقف هذه الدرجة، فإن احتجتم فخذوا من هذا الذهب المخزون تحت الدرجة.. وإياك أن يعلم عنه زوجك أو يستولي عليه.. فإنني أخشى أن يسرف في الإنفاق منه.. وأن يبدده فلا يكون أمامكم إلا الحاجة والعوز. فدعت له زوجة ولده وأكثرت من الدعوات الصالحات.

ومات الأب وورث ثروته الابن وصار ينفق مما تحت يده نفقة من لا يخشى الفقر.. ولا يحاول أن ينمي شيئاً منه.. أو يبحث عن مصادر تعوضه عما ينفق ...

واستمر على هذه الحالة.. إلى أن تقلص ما عندهم من نقود. ثم جعل يبيع الأثاث والمفروشات وينفق من ثمنها، ثم بعد هذا لم يجد الشاب شيئا ينفق منه فضاقت به البلد.. وتغيرت نظرات الناس فيه وبدأ يرى علامات الإهمال ولانصراف حتى من أعز أصدقائه..

ورأت زوجته ما هو فيه من حالة سيئة من جراء الفقر والعوز الذي يعيش فيه، فأشارت عليه بأن يسافر وأن يسعى في طلب الرزق لعل الله يفتح له باباً يعيش منه وينفق على عائلته..! وعزم الشاب على السفر.. ورأى قافلة متجهة إلى الكويت فرافقها ووصل إلى الكويت..

والتمس عملاً يكسب منه الرزق ولكنه لم يجد، فالأعمال الشاقة لا يرضاها لنفسه والعمل الهادئ لم يتيسر له.. وذهب ذات يوم بعد أن خاب أمله في وجود عمل يتناسب مع رغباته.. ذهب إلى أحد المساجد وصلى فيه صلاة الظهر.. وكان من الصدف المباركة أن كان يصلي بجانبه أحد أثرياء البلد.. فسلم الثري على الشاب وسأله عن بلده فأخبره بها، ثم سأله عن عائلته.. فأخبره أيضاً أنه فلان ابن فلان..!!

وسمع هذا التاجر اسماً ليس غريباً عليه.. بل هو اسم تاجر من تجار نجد كان يتعامل معه.. ويبيع ويشتري منه بمبالغ طائلة.. فقال التاجر وما هي أخبار والدك فقال توفي..!! فدعى التاجر لزميله الراحل بالرحمة والغفران. ثم سأل التاجر هذا الشاب عن سبب مجيئه إلى الكويت وتحمله مشاق السفر، فقال الشاب لقد أنفقت ما تبقى من المال بعد أبي.. ونفد ما في يدي.. ولم يبق أمامي إلا السفر لطلب المعيشة..!!

فقال التاجر لهذا الشاب: إن لوالدك ثروة كبيرة لا يمكن أن تنفد بهذه السرعة.. ولابد أن في الأمر سرًّا، فهل أوصاك والدك قبل الوفاة بوصية خاصة..!!

فقال الشاب: نعم، أوصاني بأن لا أتزوج ثيِّبا بل علي أن أتزوج بكراً.. ولكنني أحببت واحدة في أخريات حياة والدي وكانت ثيِّبا.. فدفعني الحب الذي جعله الله في قلبي لهذه المرأة إلى أن أتزوجها وأن أخدع والدي وأكذب عليه بأنها بكر، واتفقت مع زوجتي على ذلك فلم يشك والدي في صدقنا. ومات مطمئن البال قرير العين لأن آخر أمنياته في الحياة أن يراني متزوجًا سعيدًا بزواجي..

وفعلاً كان هذا، فقد كانت زوجتي ذكية عاقلة مدبرة لشؤون البيت..

كما أنها أولت والدي في أيامه الأخيرة عناية فائقة، وكانت لا تكاد تفارق فراشه في ليل أو نهار لتوفر له جميع طلباته وتساعده على جميع الصعوبات التي كان يعاني منها..!!

فقال التاجر: ومع هذا كله فإن في الأمر سرًّا لا يزال غامضاً ولا بد من التحايل على معرفة هذا السر ...!!!

فقال الشاب: إن الأمر إليك، فانظر ما هو الطريق الموصل إلى اكتشاف هذا السر..!!

قال التاجر: لقد رأيت أن أفضل طريقة هي أن أزوجك ابنتي البكر وأن تسافر معك إلى بلدك على أساس أنها عبدة مملوكة.. وسوف تطلي جلدها بطلاء أسود بحيث أن يراها لا يشك في أنها جارية سوداء!..

وتذهب بها إلى زوجتك وتقول إنها جارية وجدتها رخيصة فاشتريتها وقد جئت بها لخدمتك.. وهي صماء، خرساء أي لا تسمع ولا تتكلم.. وسوف نؤكد على ابنتي أن لا تتكلم بأي كلمة.. و أن تتظاهر بأنها لا تسمع أي كلمة ولكن هذا كله بشرط..!!

فقال الشاب: وما هو الشرط؟

فقال: أن لا تمسَّ ابنتي و أن يكون هذا العقد عقدًا صوريًّا لا يبيح لك أن تضاجعها.. ولا أن تفعل معها ما يفعله الأزواج مع زوجاتهم؛ وإذا خالفت هذا الشرط فإن العقوبة تكون قطع يدك اليمنى..!!

فقبل الشاب هذا الشرط ورضي بالجزاء إذا خالفه، وعقد الزواج بين الشاب وابنة التاجر. وطليت بالطلاء الأسود حتى لا يشك من يراها أنها جارية..!! وتظاهرت بالصمم والطرم..!!

وصل الشاب إلى بلده.. ودخل بيته فوجد زوجته على الحال التي تركها عليها، وجاء بالجارية فقال لها: هذه جارية وجدتها رخيصة فاشتريتها لتكون خادمة لك إلا أن فيها عيبًا وهو أنها صماء بكماء فهي لا تسمع ولا تنطق، ولكن ذلك لا يهمنا فان من الممكن إفهامها بالإشارة عما نريد أن تعمله، أما ما عدا ذلك فلسنا في حاجة إليه..!

واقتنعت الزوجة بهذا الكلام ولم يدخلها أي شك في أن هذه الجارية لا تسمع ولا تنطق ....

بقي الزوج مع زوجته يروح ويغدو والجارية عندها تعمل في البيت حتى علمت الزوجة بمواعيد معينة لخروج زوجها ومجيئه وأخبرت حبيبها.. فصار يأتي إليها في الأوقات التي يكون زوجها خارج الدار ويخلو بها خلوات مريبة والجارية ترى وكأنها لا ترى شيئاً.

وجاءها ذات يوم هذا الحبيب وقال لها: لقد وردت بضاعة رخيصة سوف نجني من مكاسبها كثيرا. وإني أريد منك أن تعطيني مائة قطعة ذهبية.

وسألت الزوجة حبيبها عن نوع البضاعة فقال إنها قطعان من الإبل المعروضة للبيع وأثمانها رخيصة وفيها مكاسب كبيرة.

فذهبت الزوجة إلى بيت زوجها.. ثم جاءت بالقطع الذهبية المطلوبة من تحت الدرجة ودفعتها لحبيبها.. وتمنت له مكاسب طيبة.

وجاء الزوج، فانتهزت الفتاة فرصة من فرص غفلتها أو انشغالها فأخبرت الزوج بما رأت وما سمعت وانكشف الأمر للزوج.. وكان قد رسم الخطة رسماً دقيقاً بحيث لا يحتاج إلى تأمل ولا تفكير..!!

ودعى زوجته وقال: لقد قررت الرحيل من هذه البلد لأنه لا عمل لي فيها ولا رزق. والمرء يسعى وراء الرزق في أي مكان، فهل ترافقيني إلى حيث أريد؟

فاعتذرت الزوجة بأنها لم تألف الغربة.. ولا تقوى على مشقة السفر.. وفي إمكانه أن يذهب وحده.. ثم يعود إليها متى شاء ...!!!

فقال الزوج: إذاً ارحلي إلى أهلك وابقي عندهم لأنني سوف أبيع هذه الدار حالاً، وبالثمن الذي تقف عنده بعد عرضها في المزاد العلني.

فلم يسع الزوجة إلا أن تجمع أغراضها الخاصة ثم تذهب إلى بيت أهلها.

ودخل الزوج إلى بيت الدرجة فوجد المال فاستخرجه كله من تحت الدرجة، وباع أثاث بيته وقال لأحد الباعة أعلن عن بيع بيتي في المزاد العلني، فبدأ هذا البائع ينادي على البيت ويعرضه للراغبين.

وذهبت هذه الزوجة إلى حبيبها وقالت له اشترِ البيت بأي ثمن يُطلب فيه ولا تدعه يذهب إلى غيرنا، فإن فيه مالاً وفيراً يعوضنا عن جميع ما ندفع فيه. وكان البيت تقدر قيمته بألفي ريال، ولكن الثمن الذي دفع فيه بلغ عشرة آلاف ريال دفعها حبيب الزوجة الخائنة. وباع الرجل بيته وقبض ثمنه وشدَّ الرحال متوجهاً إلى المدينة التي يسكنها أبو الفتاة التي معه.

وعندما وصلا منتصف الطريق هطلت عليهما أمطار غزيرة سالت على أثرها الشعاب والوديان ...

وذهبت الفتاة إلى أحد الغدران فاغتسلت ونظفت جسمها من ذلك

الطلاء الأسود الكريه الذي انتهى دوره وانتهت مهمته.. وبدت الفتاة كأنها بدر طالع من خلال دجنة..

ورآها زوجها فلم يملك نفسه. كما أنها هي لم يكن عندها أي مقاومة أو تمنُّع.. فهي تعلم أنها زوجته بعقد صحيح لا غبار عليه وهو يعلم أنها زوجته ولكنه نسي الشرط والوفاء بالشرط لهذا التاجر الشهم الذي استطاع بفطنته وذكائه أن يكتشف هذا السرّ المغلق بهذه الطريقة التي هي غاية في البساطة.. فالشاب أمام هذا الإغراء وهذه الاستجابة من قبل الشابة لم يفكر في هذا الشرط الذي هو قطع يده اليمنى...

ووقع المحظور وضاجع الرجل زوجته وأخلَّ بالشرط الذي اتفقا عليه.

وذهبت السكرة وجاءت الفكرة. وبدأت الأفكار والهواجس تتعاقب على نفسه وبدأ تأنيب الضمير، ولكن هذا المحظور قد وقع وهذا شيء مكتوب في اللوح المحفوظ. فليقابل الأحداث إذاً بصبر وشجاعة وصراحة ولتقطع يده فقد كسب ثروة طائلة وهو ليس بحاجة إلى أن يعمل ولديه زوجة، فهو لا يخشى أن يعيبه قطع اليد أمام الزوجات. إذاً فليكن ما يكون.

وقدم الرجل بزوجته على ذلك التاجر وأخبره بأن ما كان توقعه كان صحيحاً، وأن الثروة كانت في قبضة زوجته السابقة، وأن الطريقة التي رسمها لاكتشاف السر كانت حكيمة وموفقة. فسُرَّ التاجر بهذه النتائج سروراً كبيراً، ثم سأل الشاب عن الشرط الذي كان بينهما في أن لا يمس ابنته وأن لا يضاجعها.

فقال الشاب: أما هذا الشرط فإنني لم أفِ به وأنا شديد الأسف لما

حدث.. وإنني أشعر بالذنب وأشعر بأنني أسأت التصرف وأني أستحق من العقوبة أكثر مما فرض علي.

فقال التاجر أمَّا أكثر فلا، وأما الشرط سوف أنفذه عليك فكن على استعداد لقطع يدك اليمنى.

فقال الشاب: إنني على أتم الاستعداد ولعل في قطعها ما يكفر عن خطيئتي.

واستعد الأب لتنفيذ الشرط وبدأ يحد الشفرة ...

واستعد الشاب لتحمل آلام قطع يده اليمنى، وجاء دور التنفيذ. وقال التاجر للشاب: إنني لن أقطع يدك أمام ناظريك لطفاً بك واحتراماً لمشاعرك. ولكنني سوف أخرق في هذا الحائط ثقباً بقدر ما تدخل يدك وتكون أنت داخل هذه الغرفة وأكون أنا خارجها، فتدخل يدك في هذا الثقب وتخرجها إلي فأقطعها وأنا لا أراك وأنت لا تراني فيكون في هذا رحمة بك.

فقال الشاب للتاجر: الرأي ما ترى.

وثقب الثقب ودخل الشاب في الغرفة واستعد التاجر لقطع يده. ولم يشعر الشاب وهو في هذه الغرفة إلا بابنة التاجر تدخل عليه من حيث لا يشعر والدها، ورأته يريد أن يدخل يده اليمنى مع هذا الثقب فأمسكته، وقالت له: إنني أنا التي سوف أدخل يدي بدلاً منك. فقال الشاب: إن الجرم جرمي، وأنا الذي أستحق العقاب.

فقالت الشابة: ولكنني شريكتك في الذنب، فلولا استجابتي لما عملت شيئاً.. ثم أنا في بيتي مستورة.. أما أنت فتخرج إلى الأسواق

وقطع اليد اليمنى يعيبك ويلفت إليك النظر.. ويجعل الناس يظنون فيك مختلف الظنون.....

وتأخر الفتى في إخراج يده من الثقب.. فاستحثه التاجر وطلب منه أن يبادر بإدخال يده من الثقب للخلاص من المهمة.. وكانت الفتاة قد تغلبت على الشاب وأقنعته بأن تدخل يدها بدلاً منه..!!

وهكذا كان.. فإن الفتاة أدخلت يدها في الثقب واستعدت لقطع يدها.. ولكن الوالد عندما رأى اليد عرف أنها ليست يد الفتى وإنما يد الفتاة أمر بسحب يدها ثم دخل على الفتى والفتاة في تلك الغرفة وقال موجهاً الحديث للفتى: أرأيتَ نتائج نصيحة والدك في أن لا تتزوج إلا بكراً، فانظر إليها، وأشار إلى ابنته، إنها تريد أن تفديك بنفسها، وأن تتحمل عنك هذه العقوبة القاسية مع أنك أنت الجاني وأنك أنت الذي تستحقها ولا أحد غيرك يستحقها ...

فخجل الفتى وشكر التاجر على هذا الدرس البليغ الذي ألقاه عليه وقال: إنني لا أستطيع الآن أن أنطق بما يجيش به صدري من تقدير عظيم لك أيها الشهم الكريم، ولكنني سوف أبقى طيلة أيام حياتي أسيراً لفضلك وكرمك ومعروفك وتعاليمك القيمة التي أعادت إلي ثروتي وحفظت لي شرفي، وخلصتني من تلك الأفعى التى أوقعني فيها جهلي بالأمور، وعصياني للنصح، واندفاعي إلى سبيل الهوى..!!

فقال له الثري: ما دمت قد وصلت إلى هذا الحدّ من الفهم لواقعك.. فإن ابنتي هي زوجتك الشرعية عشْ معها كما يعيش الأزواج مع زوجاتهم.. وإذا شئت أن تضع أموالك مع أموالي فنكون شركاء في العمل فإني لا أرى من ذلك مانعاً....

فرحّب الشاب بهذا العرض وقبله وأضاف أمواله إلى أموال صديق والده وصار هذا الشاب يعمل ببدنه أكثر مما يعمل بفكرة... وصار التاجر الشيخ يعمل بفكره ورأيه وتجاربه أكثر مما يعمل ببدنه..

وعاش الشاب مع زوجته الشابة عيشة كلها سعادة ووفاق..!! وصارت هي أم أولاده وهو أبو أولاد..!!..

وعاش الجميع في تبات ونبات ورزقوا الكثير من البنين والبنات.

وكان الشاب بين الحين والآخر يذكر وصية والده ويذكر شهامة التاجر الذي زوجه ابنته وغفر له خطيئته.

أسطورة المرأة الحمامة

هذه قصة أحد الرجال الذين ليس لهم في هذه الدنيا أي هواية أو عمل غير هواية الصيد. فهو يخرج إلى الصحراء كل يوم ويضرب في أعماقها سائرا في شعابها ووهادها ومنقبا في جبالها باحثا عن الصيد الذي منه معيشته وفيه هوايته. وكان في بعض الأيام يوفق فيجد صيدًا كثيرًا وفي بعضها لا يجد شيئًا، وفي أيام يصطاد بقدر ما يكفيه ويكفي أهله.

وكانت آلة صيده القوس ذا السّهام الحادة. وكان قلما يخطئ إذا رمى، فهو من الرجال الذين يصدق عليهم المثل القائل «ما يرمي إلا في لحم». وكان قانعًا بمعيشته هذه راضيًا عنها، لا يتذمر إن لم يجد شيئا، ولا يبطر أو يبذّر إن وفّق إلى صيد كثير. وكان يجفف اللحم الذي يزيد عن حاجته فيتركه للغد خوفا من عدم وجود صيد.

وكان أكثر ما يصيد الأرانب والغزلان لأن الأرض التي حول بلده أرض أرنب وغزال.

وخرج إلى القنص ذات يوم وضرب في فيافي الصحراء باحثا عن الصيد فلم يوفق إلى شيء منه. وطال سعيه وبحثه في ذلك النهار إلا أنه لم يجد، وتشاءم من يومه وظن به شتّى الظنون.

وجاء إلى غدير صاف في سفح جبل، وبين صخور صماء لا يتسرب الماء من خلالها. وكان هذا الغدير عميقا لا ينضب صيفا ولا شتاءً. ومع كثرة مائه وطيب موقعه فإنه غير معروف لدى سكان البلاد ولا مقصود

للنزهة أو للشرب، ولذلك فإن الصيد يرد عليه. والضباء تتعاقب على مائه.

وانزوى صاحبنا الصياد في غار قريب من الغدير بحيث يرى جميع ما يرد على الماء في الوقت الذي لا يراه فيه أحد.

وبقي في مكانه، مراقبًا منتظرا. وطال به الانتظار وكاد اليأس يتسرب إلى نفسه. وبينما هو في شبه إغفاءة من طول الانتظار، إذا به يرى ثلاث حمامات بيض يحلقن فوق الغدير، ثم يهبطن إلى الأرض قليلا قليلا، فكتم الرجل أنفاسه. وهدأ تماما حتى إن من يراه لا يظن إلا أنه حجر من الأحجار. ودنت الحمامات الثلاث من الأرض. ثم أهوت إلى صخرة كبيرة مشرفة على الغدير فوقعت عليها. والتفتت يمينا ويسارا لتتأكد من خلوّ المكان من البشر والوحوش، فلم ترَ شخصا ولم تسمع صوتا.

كان الرجل في هذه الأثناء يعد قوسه لإطلاق أحد السهام على واحدة من تلك الحمامات. وبينما كان في الإعداد والاستعداد، إذا بالحمامات الثلاث تنقلب بقدرة قادر إلى ثلاث فتيات جميلات، بل ساحرات بجمالهن، وساحرات بحركاتهن. فاندهش الصياد وأخذته رعدة من هذه المفاجأة ومن هذا الجمال الأخاذ. وأعاد قوسه إلى جانبه وبقي في مكانه مشدوها بما يرى، عاقدا الأمل في نيل واحدة منهن.

وبعد أخذٍ وردّ بين الحمامات أو الفتيات الثلاث خلعت كل واحدة منهن ملابسها، ووضعتها على حدة في وسط غار قريب منهن. ثم خلعت كل واحدة قبعة الريش التي فوق رأسها ووضعتها فوق ملابسها، ورأى أن كل واحدة منهن تهتم اهتماما زائدا بقبعتها وتضعها في مكان قريب التناول حتى يسهل أخذها بسرعة فائقة عند الحاجة.

نظر الرجل إلى الفتيات الثلاث وهن عاريات كما خلقهن الله. فوقع نظره على إحداهن وعرف أين تضع قبعتها وملابسها. وبعد ذلك سارت الفتيات الثلاث على ظهر الصخرة حتى صرن على حافة الغدير. فرمت إحداهن نفسها في الماء فانغمست فيه ثم طفت على ظهرها وصارت تسبح وتتقلب في الماء ظهرا لبطن وبطنا لظهر وتبعتها زميلتاها، فرمين بأنفسهن في الماء.

وصرن يلعبن مختلف الألعاب على سطح الماء ولم يدركهن الكلال ولا الملال من العوم. والرجل في هذه الأثناء يكاد يذوب في مكانه من تأثير هذا المنظر العجيب الذي يراه. ثم خشي أن تفوته الفرصة فيندم على فواتها، فتسلل في حذر شديد إلى مكان ملابسهن وقلبه يخفق خفقات الخوف من الإخفاق. وجعل يسحب نفسه سحبًا خوفًا من أن يرينه أو يشعرن بحركته فيسبقنه إلى موضع الملابس ويطرن فتفشل خطته.

وبعد مجهود جبار بذله في الزحف وخفة الحركة وصل إلى مكان ملابسهن فأخذ قبعة الفتاة التي أعجبته أكثر من زميلتيها. ثم عاد أدراجه إلى حيث كان، فأخفى تلك القبعة في مكان حصين، وسد عليها بصخور ثقيلة وذلك لئلا تكون فيها مادة سحرية أو جاذبية تجذبها إلى صاحبتها. وبعد اتخاذ جميع الاحتياطات اللازمة وقف بطول قامته ومشى نحوهن والحب يدفعه والخوف يراود نفسه؛ فهن لا شك ساحرات ولولا ذلك لما استطعن الطيران، وهو يخاف السحر ويرهبه لأنه طالما سمع عن أعاجيبه ومعجزاته ما يبهر النفوس ويذهل العقول.

لكن الحب والرغبة في المغامرة دفعتاه إلى ركوب الخطر. وإلى المغامرة ولا شك أن هذا الشيء الثمين وهو نيل هذه الفتاة يستحق هذه المغامرة.

ويستحق هذه المخاطرة، فليتقدم إذاً إليهن بقلب صامد وعزم شديد.

وعندما أبصر الفتيات الثلاث هذا الرجل مقبلا عليهن، سبحن على وجه الماء مسرعات، وخرجن منه راكضات واتجهت كل واحدة منهن نحو ملابسها فأخذت كل واحدة قبعتها فلبستها بسرعة ثم ارتدت ملابسها في أسرع من لمح البصر وطارت.

حلَّقت في الجو حمامتان وبقيت الثالثة تبحث عن قبعتها فلا تجدها. وتملَّكها الرعب، فقد وصل إليها الرجل وهي لم تجد قبعتها. وأيقنت الفتاة أنها واقعة في قبضة هذا الرجل، فلا مجال للهرب على الأقدام فهو أسرع منها وأصبر على مشاق الصحراء، ولا سبيل إلى الطيران لأن قبعتها مفقودة. فلا سبيل إذاً إلا الاستسلام.

وصل إليها الرجل وألقى عليها شيئا من ملابسه ليسترٍ جسمها. ثم أخذها بيدها متوجها بها إلى وسط الغار القريب منها. وحلَّقتْ زميلتاها فوقهما فترة من الزمن رجاء أن تلحق بها، ولكنهما رأياها أخيرا في قبضة الرجل، فحزنتا على ما جرى لها وفكرتا.. هل في استطاعتهما أن تعملا من أجلها شيئا، فرأتا أنه ليس في استطاعتهما أن يعملا من أجلها شيئا، فلا سبيل إذاً إلا الهرب بنفسهما حتى لا يصيبهما هذا الرجل بأذى.

وهكذا حصل، فقد عادت الحمامتان إلى موطنهما بعد أن خلفتا صديقة عزيزة على قلبيهما. وتركاها ومصيرها للأقدار، فلا يعرفان هل تحيا أم تموت، وهل تسعد أم تشقى.

وتكلم الرجل مع المرأة وسألها:

- هل أنتن من الجن أم من الإنس؟

فقالت نحن من الإنس ووصفت له بلادها وأهلها؛ كيف يعيشون وكيف يتعاملون. وسألها عن اسمها فأخبرته أن اسمها سلمى، وأنها قد تعلمت السِّحر هي وشقيقتاها. وبفضل ما وصلت إليه من علوم السّحر، استطاعت أن تسحر نفسها على شكل حمامة وتطير لأميال كثيرة.

فبقي هو وإياها إلى أن قرب الليل، ثم ألبسها نعليه وصار يمشي حافيًا. ومشيا متوجهين إلى المدينة فوصلاها في منتصف الليل ولم يكن في بيت الرجل إلا والدته، وقد انشغل بالها لأنه تأخر عن موعد مجيئه فخافت عليه أن يكون صادفه وحش من الوحوش المفترسة فآذاه، أو أن أمرًا من الأمور حدث له وهو يطارد صيدا.

والمهم أن هذه الهواجس والأفكار السوداء لم تنقطع إلا بوصول الرجل إلى البيت. وعندما دق الباب كانت والدته بقربه ففتحته مسرعة، ورأت ابنها فاطمأن قلبها، ولكنها رأت معه شخصا لم تتبينه بعد. ودخل الاثنان وهي لا تدري من يكون هذا الذي مع ولدها.

فما راعها إلا وجه الفتاة الجميلة الشابة الذي شعشع نوره في أرجاء المنزل فدهشت الوالدة، وفغرت فاها عجبا وإعجابا وقالت لابنها: مَن هذه؟!

فقصَّ عليها قصّتها وقال لها: إنها أمانة عندك حتى أذهب إلى قاضي المسلمين فأستفتيه في أمرها.

نام الرجل في غرفته الخاصة كعادته، ونامت الفتاة مع والدته في غرفة أخرى. فلما جاء الصباح بكر الرجل إلى القاضي يسأله عن شرعية هذا الزواج إذا رضيت، فطمأنه القاضي بشرعية الزواج وصحته، فرجع

الرجل مسرعا إلى البيت وسأل الفتاة في شوق ولهفة قائلا:

- إنني أرغب في الزواج بك فهل توافقين؟

قال هذا الكلام وقلبه يخفق خوفا من رفضها هذا العرض. ولكن الرجل كان شابا وسيما رياضي الجسم، رياضي النفس، كريم الخلق. وقد عاملها منذ الساعات الأولى من وقوعها في يده بلطف، ورافقها في الطريق بنزاهة وشمم. وهو الآن يريدها زوجة له وإذا رفضت هذا العرض، فما هو مصيرها؟

وذهب الشاب إلى البيت وسألها عن رغبته في الزواج منها، فأومأت برأسها علامة الرضا. فطلب من والدته أن تساعدها في ارتداء ملابسها وزينتها ليذهب وإياها إلى القاضي. وانتهت الوالدة من تهيئة الفتاة وذهب الشاب بها إلى القاضي وأخذا معهما شاهدين. وذهب الجميع إلى القاضي، فطلب منها القاضي رأيها في الزواج فأظهرت الموافقة.

عقد الزواج، ودخل الشاب على زوجته في احتفال بهيج اقتصر على الأهل والأقارب من طرف واحد. أما أهل الطرف الآخر، أي الفتاة، فهم لا يعرفون عن هذه الأمور شيئا. وعاش الشاب مع زوجته حياة سعيدة، وإن كانت تتخللها بعض الأزمات الطفيفة الناتجة عن الاختلاف في الآراء والاتجاهات، وذلك بسبب اختلاف بيئتها عن بيئته وأخلاقها عن أخلاقه، ومجتمعها الذي عاشت فيه عن المجتمع الذي عاش فيه زوجها.

إلا أن حكمة كل واحد من الزوجين تجعل لذلك الاختلاف حدًّا معيَّنا لا يعدوه فينتهي عند حده. وكانت لدى كل واحد من الزوجين أيضا قدرة على التكيف والتقارب مع شريك حياته. وكان الشاب

بصفة خاصة يعامل الفتاة بكثير من التسامح، ويوفر لها جميع وسائل الراحة، ويحاول بقدر جهده أن يرفه عنها وأن يعوضها عن غربتها بالرعاية والعناية والحب الذي تبادله إياه الفتاة. فقد كان الحب متبادلا بين الزوجين، ولذلك فإنهما دائما إذا وقع خلاف بينهما، فإنهما يلتقيان في منتصف الطريق حيث يحاول كل واحد أن يكون الوفاق، وألا تساق في التفكير وفي العمل. ولهذا فقد عاش الشاب مع الفتاة حياة سعيدة مليئة بالوفاق والحب ومشاعر الغبطة والسرور.

رزقت المرأة بعد عام ولدا أسموه سالما؛ فكان هذا الولد فاتحة طيبة لحياة زوجية مديدة. واطمأن الرجل بعد مجيء هذا الولد، فقد شعر بأن هذا الولد سوف يوثق الروابط بينه وبينها وسيزيدها قوة ومتانة وتحملا للتقلبات النفسية والعاطفية التي لا يخلو منها بشر.

وانصرفت المرأة إلى ولدها سالم بكل عواطفها ورعايتها. وليس معنى هذا أنها أهملت زوجها أو أخلّت بشيء من واجباتها نحوه، كلا. وإنما كان الشاب هذا يعطيها سعادة ونشوة، ما كانت تشعر بها سابق عهدها. كما أنه يعطيها قوة واندفاعا في العمل تعوض به ما يفوتها بسبب وجودها بجانبه في بعض الأوقات.

وبعد عام آخر رزقت بمولودة أخرى، طفلة جميلة. واحتلت هذه المولودة من قلب المرأة مكانا واسعا؛ لقد كانت المرأة تظن أنه ليس في قلبها متّسعٌ لحبٍّ غير حبّ زوجها. ولكن طفلها حينما أهل على الوجود وجد له في قلب أمه مكانا رحبا. ثم ظنت الأم أن قلبها قد امتلأ ولم يبق فيه فراغ لأحد، فقد امتلأ بحب شريك حياتها وأولادها.

فلما جاءت ابنتها وجدت لها مكانا رحبا في قلب الأم أيضا، وتيقن الأب أن هذه الروابط الثلاثة كفيلة بأن تجعل زوجته لا تفكر في أهلها

ولا في وطنها الأول. وسوف تعيش بجانبه ويعيش بجانبها إلى النهاية، نهاية حياتهما. وسارت الأمور مسيرًا هادئا، والحب والوفاق يسود البيت، والأطفال يملأونه ضجة وحركة وحياة، والأب يسعى في هوايته كعادته يضرب في كبد الصحراء فيصطاد من حيواناتها ما يصلح أكله ويأتي بما يصطاده حيا فيبيعه وينتفع بثمنه في شؤونه العائلية.

كانت الزوجة في بعض الأحيان تمزح مع زوجها عندما يريد الذهاب إلى الصيد فتقول:

- أكثرْ لنا من صيد الصحراء، إلا صيدا واحدا فلا تقربه وهو الحمام.

فيضحك الزوج، ويزداد سروره ويستشف من هذه الكلمات حبا وغيرة، ويجيبها قائلا:

- إنه لا أرب لي في الحمام بعد حمامتي الأولى التي اصطدتها. وإنني حرمت على نفسي صيد الحمام إكراما لحمامتي الأولى التي هي ملكي.

فيزداد سرور الزوجة ثم تعيد على زوجها القول، بأنها تخشى أن يرى حمامة أجمل من حمامته الأولى، فيتعلق بها قلبه وينتقض بها عهده وتذهب الوعود والعواطف القديمة أدراج الرياح.

فيجيبها الزوج بأنه قانع بما رزقه الله وممتلئ القلب بالحب، بحيث لم يبق مكان لمحبوب آخر. فقد كانت الحمامة الأولى هي حقا الأولى من نوعها وهي الأخيرة أيضا. فثقي بكلامي. اعتبريه عهدا ووعدا وتعبيرا صادقا عن مشاعري وإحساسي.

فتضحك المرأة وتقول إذاً اذهب بسلامة الله ولترجع لنا بسلامة الله.

فيذهب الزوج إلى هوايته وهو يكاد يطير فرحا وسرورا بهذه المداعبة اللطيفة التي تكشف له عن أغوار قلب زوجته، وتكشف له عن هواجسها ووساوسها التي تراود قلبها عندما يجيء ويروح. ورأت هذه الوساوس والمخاوف من وثوق الزوج بزوجته وحبها له وغيرتها عليه.

ويعود الزوج ذات يوم فاشلا لم يجد صيدا؛ فقد قل المطر وجفت الأرض، وهاجر الصيد القوي إلى المواطن الغنية بالماء، المليئة بالأعشاب. أما الحيوانات الضعيفة فقد أكل بعضها بعضا وما بقي منها أفناه الدهر والجدب الذي سيطر على تلك الصحراء.

فلم يبق إذاً أمام الرجل معيشة من الصيد، فليفكر في مجال آخر للعيش غير الصيد. وعزم على الرحلة في طلب المعيشة، فأعدَّ عدة السفر وأخبر زوجته ووالدته، فتمنيا له سفرًا سعيدًا وعودًا حميدا.

كان أكثر شيء يهمه بعد سفره قبعة الريش التي كان يحتفظ بها في صندوق خاص أقفله، وكان يحمل مفتاحه دائما في جيبه. فلما عزم على السفر خلا بوالدته وأخبرها بخبر القبعة. وقال إنها إن علمت بها حاولت أخذها وإن أخذتها طارت إلى أهلها. وأنتِ تعلمين أن زوجتي هي حياتي فلا حياة لي بدونها. لذلك سوف أضع عندك الصندوق الذي فيه القبعة وأعطيك مفتاحه، وعليك أن تخفي الصندوق وتحتفظي بالمفتاح، وأن لا تدري زوجتي عن الصندوق ولا عن المفتاح.

وعدته والدته خيرًا وتعهدت له بأن تكون موضع ثقته وأمانته، وأن تحتفظ بهذا المفتاح وأن تخفي الصندوق، فلا تعلم المرأة أين مكانه. وأكد على والدته بمختلف التأكيدات، ووعدته بما أراد، وقالت له في جملة ما قالت كأنك يا ولدي تشكّ في حبي لك أو تشكّ في قدرتي على حفظ

الأسرار. إنني يا ولدي أحبك. وسوف أحفظ سرك، فسِرْ على بركة الله وليكن قلبك مطمئنا من هذه الناحية.

ودَّع الابن والدته وزوجته وأولاده ثم خرج من المدينة مسافرا طالبا فضل الله في أرض الله الواسعة.

وطال سفر الزوج وطالت غيبته عن أهله وعن وطنه. وكانت والدة الصياد تحاول في كل مناسبة أن تجلب السرور إلى قلب الزوجة وأن ترفه عنها، وأن تعوضها عما فاتها بغياب زوجها بأنواع من المسليات، لذلك لم تتركا حفلة أو مجالا للتسلية إلا وذهبتا إليه. وكانت الزوجة مثال المرأة المهذبة الرفيعة الأخلاق التي يحبها كل من رآها، ويحترمها كل من خالطها، ويأنس بحديثها كل من جاذبها أطراف الحديث، الأمر الذي جعلها نجما من نجوم المجتمع المثالي الراقي.

واستمرت الأم على هذا المنهاج إلى أن جاءت إحدى المناسبات، فتلطفت الزوجة وسألت والدة زوجها عن قبعة الريش سؤالا عابرا، فكانت والدة زوجها لا تعطيها جوابا واضحا. إلا أن الزوجة علمت من بعض الإشارات أن القبعة عندها محفوظة في صندوق وأن الوالدة تحتفظ بمفتاحه، وتحافظ على عدم البوح بشيء من أسرار الصندوق أو المفتاح.

سكتت الزوجة ولم تلحّ على الوالدة، ولم تطلب منها زيادة معلومات أكثر مما وصلت إليه، ولم تكرر عليها الحديث عن القبعة خوفا من أن تستريب الوالدة فلا يكون هناك مجال للأمل في الحصول على هذه القبعة، وتركت الزوجة الأمور للظروف والمناسبات المواتية. واستمرت على طريقتها في الحياة، وكرست جهودها لبيتها وأولادها؛ فكانت

الوالدة راضية عنها كل الرضا مطمئنة إلى سلوكها كل الاطمئنان.

وجاءت مناسبة حفلة كبيرة لدى زوجة السلطان، سلطان البلاد. وكانت الداعية إلى الحفلة هي زوجة السلطان والدعوة عامة، إلا أنها للطبقات الراقية.

وكانت الأم وزوجة ولدها معروفتين في المجتمع الراقي، بحيث لو غابتا عن مثل هذه الحفلة لفُسِّر هذا الغياب تفسيرا خاطئا قد يسيء إلى الأسرة.

لذلك استعدت الأم والزوجة لحضور هذا الحفل وأعدوا للأمر عدته. ففصلوا الملابس وجهزوا أدوات الزينة اللازمة لمثل هذه المناسبة.

وجاءت ليلة الحفلة، فتوافدت المواطنات إلى مكانها كل واحدة ترفل في أبهى حللها، وتبدو في أحسن زينتها. وجاءت والدة الصياد ومعها زوجة ولدها ضمن من جاء.

وبدأت الحفلة؛ وكانت حقًّا حفلة رائعة تجلى فيها الكرم وحسن الضيافة والذوق الرفيع. وصارت كل واحدة من المدعوات تساهم في هذا الحفل بتقديم ما تعرفه أو تجيده من رقصات أو أغاني. وجاء دور المرأة فقامت وأدت رقصة غريبة جميلة أخاذة سُحر بها جميع المشاهدين، وطلبوا المزيد من هذا النوع من الرقص وصفقوا وهتفوا لها وأطالوا الهتاف والتصفيق. وكانت زوجة السلطان تتابع هذه الرقصة من أولها إلى آخرها، فكانت من أولى المعجبات بها.

دعت السلطانة الزوجة وصافحتها مظهرة لها سرورها وإعجابها وشكرها أيضا على هذه المساهمة، وقالت لها: إن الحاضرين يطلبون المزيد من هذه الرقصات ونحن نعلم أنها تكلفك مجهودا جبارا تُشكرين

عليه؛ فإذا كان لديك استطاعة في تقديم رقصة أو رقصتين، فإنني أكون مسرورة وشاكرة لك مساهمتك الفعالة في إنجاح هذا الحفل الذي نريده أن يكون حديث الأجيال من بعدنا.

فقالت المرأة حبا وكرامة: إن مساهمتي في هذا الحفل شرف عظيم لي. لكم الفضل فيه والشكر عليه، وأنا على أتم الاستعداد لما تطلبه عظمتك. ولكي أستطيع المساهمة على أكمل وجه، فإن لي قبعةَ ريش موجودة عند أم زوجي. وهي قد أخفتها عني حسب وصية ولدها؛ فإذا أمكن أن تطلبي منها إعطائي القبعة لأرقص بها ثم أعيدها، فإنني أعد عظمتك أن آتي برقصة جديدة كل الجدة مؤثرة كل التأثير. واسمحي لي إذا وافقت عظمتك على ذلك أن أمهد للموضوع لدى أم زوجي.

قالت السلطانة: إنني موافقة، فاذهبي ومهدي للموضوع وسوف أدعوكم بعد بضع دقائق لتكون كلمتي نهائية في هذا الشأن. فذهبت الزوجة إلى أم زوجها وأخبرتها بما طلبته منها السلطانة، وهي رقصة لا يمكن أن تؤديها متقنة إلا بقبعة الريش. وأوضحت أنها اعتذرت للسلطانة ولكنها ألحّت، فإذا استطعت أن تقنعي السلطانة بإعفائي من هذه الرقصة فإنني أكون سعيدة، فليس لي رغبة في أن أرقص أكثر مما رقصت.

وفي هذه الأثناء جاء رسول السلطانة يدعو الزوجة وأم زوجها، فذهبتا، وتكلمت السلطانة، قائلةً لأم الزوج: لقد طلبت من زوجة ابنك أن ترقص لنا رقصة قبعة الريش، ولكنها اعتذرت بأعذار منها أن قبعة الريش ليست عندها. ولذلك فإنني أطلب منك أيتها الوالدة العزيزة أن تعطيها قبعة الريش، حتى تؤدِّي هذه الرقصة ثم تعيدها

إليك. فاعتذرت الأم بأن هذه القبعة أمانة وأن ولدها أكد عليها أن لا تسلمها للزوجة مهما كانت الظروف.

قالت السلطانة لأم الزوج سلمي لي قبعة الريش، وأنا المسؤولة عنها في استلامها منك وتسليمها إليك. وأرجو أن لا نضيع الوقت في جدل لا جدوى منه، فأنا المسؤولة عن كل ما يحدث وأنا الكفيلة بالتعويض عن كل ضرر يطرأ من جراء هذا التصرف. عندئذ رأت الأم أنه لا مناص من إجابة طلب السلطانة ولا مجال للاعتذار.

ذهبت الأم وجاءت بقبعة الريش وسلمتها للسلطانة، وسلمتها السلطانة بدورها إلى الزوجة. وقد نسينا أن نذكر أن ولدَي المرأة كانا ممن حضر هذا الحفل مع والدتها وجدتها.

لبست المرأة قبعة الريش وتقدمت إلى المسرح وهي تكاد تطير من الفرح. رقصت رقصة بديعة دهش لها جميع الحاضرين وصفقوا لها طويلا. وعندما انتهت طلبوا إعادتها، ولكنها ذهبت إلى السلطانة. فقالت لها: إن لدي رقصة أخرى أحسن من الأولى وهي تحتاج إلى إحضار ولدَي معي في حلبة الرقص. فدعت السلطانة الجدة والأولاد وطلبت أن يكون أولادها معها في حلبة الرقص.

جاء الأولاد إلى جانب أمها فرقصت رقصة بديعة، ثم جعلت أحد ولديها تحت يدها اليمنى والآخر تحت يدها اليسرى. ثم واصلت الرقص وشِدهَ كلُّ مَن في الحفل. ولم يشعر المشاهدون وهي ترقص إلا وهي ترتفع عن الأرض قليلا قليلا، فظنوا أن هذا جزءاً من الرقصة. ولكنها استمرت في الارتفاع إلى أن بلغت أعلى الحائط فوقعت عليه، والمشاهدون لا يكادون يصدقون ما تراه عيونهم.

قالت المرأة لأم زوجها: إنني مسافرة إلى أهلي فإذا كان زوجي يريدني فليلحق بي في جزيرة الريحان.

وواصلت وصاياها قائلة: أبلغي زوجي تحياتي وشكري، فقد كان إنسانًا شهما كريما، عشت بجانبه فترة من الزمن سعيدة. كان خلالها يمثل بالنسبة إليّ دور الأب والأم والزوج الوفي الحكيم في تصرفاته، النابض قلبه بكل خلق سام.

عندما أنهت كلامها هذا حلقت بأولادها في الجو، وكل من في الحفل ينظر إليها ويعجب منها وبها. وصارت حادثة طيرانها بأولادها حديث المدينة والأسطورة الغريبة التي يتحدث عنها المواطنون.

ورجعت الأم إلى دارها وهي كسيرة الفؤاد متكدرة الخاطر. كيف ستواجه ابنها بالنبأ إذا قدم سالما من سفره؟ كيف ستعتذر له؟ كيف ستبرر فعلتها الشاذة التي خالفت بها جميع وصاياه وتأكيداته؟

إنها لا تدري ماذا تصنع ولاسيما بعد الحادثة؛ فإنها قد فقدت السيطرة على أفكارها والتبست عليها الأمور وتداخلت الحلول، فلا تدري ماذا تقول وكيف تعتذر. إذاً فإن عليها أن تترك هذا الأمر إلى وقته المناسب، فلعل أعصابها تهدأ، ولعل فكرها يمدها بعذر يبرر فعلتها.

ومضت أيام قدم بعدها الابن، وكان قلبه يخفق بالأماني الحلوة لأنه قادم إلى زوجته الوفية وأبنائه المحبوبين ووالدته الحنون. ولكنه ما كاد يلج البيت حتى وجده خلاءا بلقعا ليس فيه من دواعي الأنسٍ أي أثر. ولم يجد إلا والدته العجوز التي زادت الحادثة من كبرها وقدّمتها إلى الشيخوخة عشرات السنوات.

وسألها ولدها في لهفة وجزع: أين زوجتي وأولادها يا والدتي العزيزة؟ فقالت له الوالدة: حطّ رحالك وتعال إلي يا ولدي لأخبرك بالواقع. فازداد قلق الابن واستبدت به شتى الظنون؛ ما هو الذي حدث بالضبط؟ وهل يمكن تلافيه؟ وما هي أسبابه ودوافعه؟ إنه لا يدري. فحطّ رحاله وجاء إلى جانب والدته.

أخبرته بقصة هروب زوجته بأولادها من أولها إلى آخرها، فكاد يصعق من هول الصدمة، ولكنه تماسك وتجلد وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون. لقد وقع ما كنت أخشاه. وجل الأمر عن العتاب فلا مجال للوم ولا التقريع.

رجع إلى نفسه وقال إنه الملوم الأول، فقد استودع السر عند من لا يستطيع حفظه، وحمّل الأمانة من لا يقوى على حملها. ثم جعل يتأمل في وصايا زوجته، وما قالته لوالدته عند وداعها الأخير، فهدأت ثائرته قليلا واطمأن إلى أن هربها ليس عن بغض ولا كراهية، ولكنها طبيعة المرأة تريد أن يتبعها فارسها وأن تكبده بعض المشاق ليعرف أنها ليست شيئا تافها يناله المرء بمنتهى السهولة، إنما هي شيء ثمين لا يستطيع أن يحصل عليه إلا من يبذل الغالي والرخيص في سبيله.

لقد جاءته في المرة الأولى إلى بلده وهو مجيء غير مقصود بل فرضه عليها الاستيلاء بالقوة، وعليه الآن أن يرحل إليها رحلة مقصودة يتكبد مشاق الأسفار في سبيل الوصول إليها. إن هذا يعيد إليها شيئا من كرامتها ويشعرها بأنها مرغوبة ومطلوبة.

إذاً، لابد من الرحلة مهما كلفت من وقت ومال وجهد. إن بيته أصبح بالنسبة إليه الآن كالقبر الموحش، ووطنه أصبح فيه كالغريب. وما دام

الأمر كذلك، فليعدَّ العدة للرحيل إلى جزيرة الريحان. إنه قد سمع بها في أسفاره إلا أنه لا يعرف مكانها بالتحديد، ولا يعرف المسافات التي تفصل بينه وبينها. وهذا كله لن يثني من عزمه ولن يفت في عضده.

الرحيل.. الرحيل، تجاوبت أصداء الرحيل في نفسه وملأت جوانحه وصار الرحيل همّه الوحيد؛ ينام وهو يفكر فيه ويصبح وهو يفكر فيه.

وبدأ يستعد للرحلة وما يلزم للسفر من أدوات واستعدادات خفيفة، وتم له ما أراد. واجتمعت لديه جميع لوازم السفر، وهيأ لوالدته ما يضمن لها عيشًا مريحا. وجاء لها بخادمة تقوم بها تحتاج إليه من تحضير طعام وتهيئة شراب. وأودع عند أحد التجار مالا للنفقة على والدته وخادمتها، فهو لا يدري هل يطول به السفر أم يقصر. كما أنه لا يدري هل يعود سالما من سفره أم تكون نهايته في هذا السفر.

شد الرحال وواصل السير ليلا ونهارا، لا يأخذ من النوم والراحة إلا ما تدعوه إليه الضرورة. وبعد أيام طوال من السير الحثيث وصل إلى مدينة في آخر اليابسة، حيث لم يبق أمامه إلا بحار ومحيطات واسعة عميقة، فباع راحلته، وباع كل ما لا تدعو إليه حاجته وسكن في أحد الفنادق.

جعل الرجل يجيء ويروح في سوق التجار ويتفحص وجوههم. فلما رأى أحد التجار توسم فيه الخير، وأمل فيه الخبرة والدراية. فجلس إلى جانبه وقال معرِّفا بنفسه: أنا رجل غريب أريد السفر إلى جزيرة الريحان لأن لي ابن عم هناك أحب زيارته. أنا لا أعرف شيئا عن الطريق إلى هذه الجزيرة، ولا كيف الوصول إليها.

التفت إليه التاجر بكل جسمه وقال: يا بني، إن جزيرة الريحان بعيدة عنا ويفصلنا عنها كثير من البحار المتلاطمة، والسفر إليها خطر جدا، والمراكب لا تذهب إليها خوفا من أخطار البحر، وليس هناك من أمل إلا أن يأتي بعض المراكب التي تجازف طمعا في الربح فتسافر إلى تلك الجزيرة، وسفر هذه المراكب ليس له وقت معروف؛ إنما أنا أعدك بأن تسافر في أول مركب من هذه المراكب، مع العلم أنه يبقى في مياه البحر قبل وصوله إلى الجزيرة ما يقرب من شهرين أو ثلاثة أشهر حسب اتجاهات الرياح وحركاتها.

فأجاب الزوج بأنه سوف ينتظر إلى أن يأتي أحد هذه المراكب. وقال للتاجر: إنني أسكن في الفندق الفلاني، وسوف أمرّ عليك كل يوم لتخبرني إذا وجد مركب يقصد جزيرة الريحان.

واستمر الرجل بالتردد على هذا التاجر وطال تردده. إلى أن جاء ذات يوم فبشره التاجر بوجود مركب مسافر إلى تلك الجزيرة. وقال له التاجر: هذه تذكرة الركوب وهو سوف يقلع في هذا اليوم مساء، فعليك أن ترتب أمورك وأن تأخذ ما يلزمك للسفر وتذهب إلى المركب قبل غروب الشمس.

فأسرع إلى الفندق وجمع حاجاته وحاسب صاحب الفندق، ثم أسرع إلى المركب ووضع أمتعته في ركن منزو منه وسأل عن الربان فدل عليه، فسأله عما يحتاج إليه في سفره، فأخبره. وذهب الزوج إلى السوق فاشترى كل ما يلزمه وعاد إلى المركب وهو قرير العين، هادئ البال. يمني نفسه بقرب الوصول إلى الحبيب، بل الأحباب؛ زوجته وأولاده. إنه لا يفصل بينه وبين زوجته الحبيبة وأولاده الأعزاء إلا هذه المياه التي

سوف يتغلبون على أخطارها بإذن الله، وسيصلون إلى هدفهم سالمين.

واصل المركب سيره ليله ونهاره، وكانت تمر بهم ساعات حرجة، حيث تهب عليهم عواصف هوجاء تعرقل سيرهم تارة وتوقفه تماما تارة أخرى. إلا أن العزم والتصميم لا تقف في وجهه عواصف ولا معوقات. واستمروا في البحر بين جزر من العواصف ومد، وهم في كفاح مع البحر لأنها مسألة حياة أو موت بالنسبة إليهم؛ فإن على كل راكب أن يبذل من العون والمساعدة كل ما يقدر عليه.

وقرب المركب من الجزيرة فتحرك قلب الرجل وعواطفه وآماله وجعل يتخيل زوجته وأولاده في ذهنه وكيف سيلقاهم. ما هي الوسيلة التي سيتذرع بها إليهم؟ إنها قد تكون ابنة ملك أو أمير أو تاجر من تجار البلاد ووجهائها، فكيف يصل إليها؟ وصار يُعمِل فكرَه في استعراض الطرق التي يمكن التوصل بها، مع اختيار أحسنها وأليقها به وأليقها بالحبيبة.

ووصل المركب بسلامة الله إلى الجزيرة بعد كفاح مرير وجهود جبارة ولياليَ حالكة، كانوا في كل واحدة منها يرون خطر الهلاك قاب قوسين أو أدنى.

وسكن الرجل في أحد الفنادق وجعل يتجول في المدينة لعله يرى ما يدله على مقصوده. وبقي عدة أيام في البحث والتحرّي إلى أن مر ذات يوم بقصر عظيم، قيل له إنه بيت أحد تجار المدينة الكبار، وأحس إحساسا خاصًّا، إحساس الوالد وإحساس المحب المحبوب بأن حبيبته في هذا البيت.

وقفت به قدماه عند باب هذا القصر، وصار يتطلع إلى داخله لعله

يري ما يصدق ظنونه، فلمح طفلا في حديقة القصر؛ إنه يشبه ولده سالمًا. فلعله هو. إنه بعيد عنه. إنه لا يستطيع أن يتحقق. إنه هو ولكن قلب الوالد خفق لهذا الطفل ومال إليه. إنه يشبهه لعله يقترب، لعله يتكلم ليرتفع اللبس وتنجلي الحقيقة.

قرب الطفل من باب القصر وملأ الرجل عينيه منه. إنه ابنه برسمه وجسمه. فليهرب من هذا القصر لئلا تفضحه عواطفه، فيسلك طريقا في التعريف بنفسه لا يليق به، ولا بحبيبته. فعاد إلى الفندق وقد هدأت نفسه وشعر بسرور عظيم لا حد له؛ لقد وجدهم. ولكن كيف يعرِّفهم بنفسه؟ فكر وأطال التفكير وقلب الأمر على مختلف وجوهه واستعرض الحلول الممكنة حلًا حلًا، لكنه لم يجد حلا يرضى عنه ويطمئن إلى وجاهته.

استمر على ذلك أيامًا، والشوق يلهب قلبه والآمال الحلوة تراود خاطره. أخيرا، اهتدى إلى الحلّ؛ لقد تعرف بشخص في هذه المدينة، إنه صاحب الفندق الذي كان معجبًا به فاتحًا له قلبه، فأخبره الرجل بقصده، وأن كل ما يريده أن تعرف الحبيبة مكانه في الفندق. فإذا عرفت ذلك فإنها سوف ترشده إلى الحل الصحيح.

قال صاحب الفندق: إنني سوف أرسل والدتي إلى أهل هذا القصر، فإذا رأت زوجتك فإنها سوف تسر إليها بخبرك ومكان إقامتك، وتعطيها خاتمك الذي تعرفه زوجتك تمام المعرفة. فوافق الرجل على هذه الطريقة.

وذهبت والدة صاحب الفندق وأدت الرسالة على أكمل وجه، وعلمت الزوجة بوجود زوجها ووالد أولادها وخفق قلبها وازداد شوقها إلى لقائه. لكن اللقاء يجب أن يكون شريفا يليق بمكانتها ومكانة والدها في البلد فأخبرت الزوجة والدتها وأخبرت الوالدة زوجها. فسر

الجميع بهذا النبأ، وأرسل والد الزوجة إلى الزوج وطلب منه أن يقابله في مكان سري لا يعرفه أحد ولا يُطلع على اجتماعه به أحداً. وحصل اللقاء، وتمَّ الاتفاق على أن يعد هذا التاجر مركبا محملا بالبضائع والأرزاق، فيذهب به الزوج إلى جزيرة أخرى، فيبيع تلك البضائع كلها، ثم يأخذ ثمنها ويشترى به مركبا خاصا فيحمِّله بالبضائع والهدايا والتحف المطلوبة في جزيرة الريحان.

وبعد أن يتهيأ للسفر، يرسل رسولا إلى والد زوجته يخبره بأنه تاجر من التجار قادم إلى جزيرة الريحان ومعه بضاعة لهذه الجزيرة، وأنه سوف يحل ضيفا على والد زوجته.

وهكذا حصل؛ جاء الرسول وبلَّغ والد الزوجة واهتم الوالد بقدوم زوج ابنته وأخبر جميع التجار بهذه البضاعة، وقال لكبار التجار: إن هذا تاجر عظيم وإن عليهم أن يستقبلوه استقبالا حافلا لتوثيق الروابط والعلاقات بينه وبين أهل هذه الجزيرة، وأردف قائلا:

لا شك أن جزيرتنا وسكانها سوف يجنون من هذه العلاقة الطيبة بهذا التاجر الكبير أطيب الثمرات. فاستجاب التجار ورحبوا بالفكرة، وبدأت الاستعدادات لاستقبال الزوج وبضاعته. ووصل الزوج فوجد وجهاء جزيرة الريحان كلهم في استقباله، فرحبوا به وحيَّوه، فرد التحية بأحسن منها. وقال والد زوجته له: إنك ضيفي وسوف أقيم لك في هذه الليلة حفلة تليق بمقامك.

وافق الرجل، فدعى والدُ زوجته جميعَ التجار ووجهاء البلاد إلى هذه الحفلة.

وجاء موعد الحفلة فتوافد المدعوون إليها فكانت حفلة بهيجة تجلى فيها الكرم والتكريم. ثم صار التجار وكبار البلاد يقيمون الحفلة تلو

الحفلة للتاجر الغريب، فكان نجم المجتمع وضيف الشرف في تلك الحفلات التي استمرت فترة طويلة من الزمن وكانت حديث أهل البلاد.

بعد ذلك تقدم الرجل حسب الخطة المرسومة إلى خطبة زوجته، فرحبوا به. وجيء بقاضي البلاد وأحضرت الشهود وتم عقد صوري أمام أعين سكان الجزيرة. أما العقد الحقيقي فهو موجود سابقا ومعترف به من جميع الأطراف المعنية. وتم العقد وتم الزواج في احتفالات بهيجة. وعاش الزوج مع زوجته الساحرة صاحبة قبعة الريش، وبين أولاده المحبوبين بقية أيام حياته، إلى أن جاءهم هادم اللذات ومفرق الجماعات وذهب كل منهم للقاء ربه.

أسطورة الشيطان والعجوز

قالت الجدة للأطفال عندما اجتمعوا عندها إنني سوف أقص عليكم قصة العجوز التي تخاصمت هي والشيطان وتنافسا لأن أعمالهما تتشابه، فهي مبنية على المكر والحيلة والإيقاع بين الناس.

وتعلمون أن أهل الصنعة الواحدة دائما يقع بينهم التنافس والتناحر فيتساقط الضعفاء ويبقى الأقوياء. وأريد كذلك أن تعرفوا أن العجائز لا يستهان بهن، ولا يستخف بمكرهن إلا جاهل مغرور. فهن وإن كن فقدن كثيرا من قواهن البدنية، إلا أنهن قد عوضن عما فاتهن من هذه الناحية بقوى معنوية هائلة قد تكون في بعض الحالات خارقة للعادة.

فاشتاق الأطفال إلى هذه القصة بعد هذه المقدمة الجذابة والعبارات الخلابة، وقالوا بصوت واحد: قصِّي علينا هذه القصة وأسرعي.

فقالت الجدة: نعم.

هذه المرأة العجوز في هاك البلد وكانت ذات حيل مدهشة وطرائق في المكر لا تجارى، وقد نافست الشيطان في عمله وعطلت عليه كثيرا من حيله وألاعيبه.

فجاء إليها الشيطان ذات يوم وقال لها: إما أن تتركي لي البلد وإما أن أتركها لك. فقالت العجوز: أما أنا فلست تاركة بلدي، وأما أنت فلا أقول لك أترك البلد هذه أو لا تتركها. إنما إذا كان الأفضل لك مغادرة بلدي فالأمر إليك.

قال الشيطان إن عندي رأيا. فقالت العجوز: وما هو؟

فقال الشيطان: أن توجدي أنت أو أوجد أنا بعض المشاكل والفتن. ثم يسعى الثاني منا في حل هذه المشاكل وإعادة المياه إلى مجاريها. فالذي يعيدها هو المنتصر وهو الذي يبقى في هذه البلد.

فوافقت العجوز على هذا الحل وقالت له: هل تعمل المشاكل فأحلها أم أعملها أنا وتحلها أنت؟

فقال الشيطان: أنت اعملي المشاكل وأنا أحلها.

وافترقا على أن تُعَقد العجوز أمورا يحلها الشيطان. وذهبت العجوز إلى تاجر من تجار الملابس وقالت له: اختر لي نوعا طيبا فريدا من الملابس، فإن لابني حبيبة وقد طلب مني شراء ملابس نادرة لها مهما كان ثمنها.

فأخرج التاجر لفافة من القماش الفاخر، وقال لها: إن هذه البضاعة طيبة ونادرة وهي حديثة الصنع حديثة الطراز.

فاشترت العجوز تلك اللفافة ونقدته ثمنها ثم ذهبت في سبيلها.

وجاءت إلى بيت هذا الرجل التاجر وقرعت الباب ففتحت لها زوجته، فسلمت العجوز عليها، وقالت لها: يا بنيتي إن لي عادة أن أصلي صلاة الضحى في هذا الوقت وبيتي بعيد وأريد أن تأذني لي في الدخول عندك لتأدية هذه السنة قبل فوات وقتها.

فرحبت بها المرأة وأوسعت لها الباب وقادتها إلى غرفة نومها مع زوجها وأجلستها على فراش منامهم، وذهبت لتعد ماء الوضوء لصلاتها والقهوة لإكرامها.

وفي هذه الأثناء رفعت العجوز الوسادة وأخفت لفافة القماش تحتها ثم قامت فتوضأت وصلّت وشربت القهوة، ثم انصرفت وتركت القماش تحت الوسادة.

وجاء زوج المرأة على عادته وحان ميعاد النوم، فاضطجع على فراشه وأحس أن وسادته عالية أكثر مما عهد، وكشفها وكشف ما تحتها وإذا به يجد لفافة القماش التي اشترتها العجوز هدية لامرأة تهوي ولدها ويهواها ولدها.

وبهت الرجل وأثارته تلك المفاجأة واعتقد جازما أن زوجته قد خانته مع ابن هذه العجوز، فسكت على مضض. ولما جاء الصباح قال لزوجته:

- إجمعي أغراضك الخاصة فإنني سوف أذهب بك إلى أهلك.

فسألته عن السبب أو الداعي إلى هذا الأمر فلم يجبها، وحاولت أن تكتشف حقيقة الأمر، لكن الرجل لاذ بالصمت المطبق.

ولم يكن أمام المرأة إلا أن تقابل الصمت مثله، وأن تسعى في الطريق الذي يريده زوجها حتى ينجلي الموقف وتظهر الأسباب والمسببات.

وأخذ الرجل زوجته وأبقاها عند أهلها دون كلام، وصمم على طلاقها، إلا أنه أحب أن لا يتسرع، فليس في التسرع مصلحة عاجلة ولا آجلة.

هذه عقدة من عقد العجوز أو مشكلة من المشاكل التي أوجدتها.

أما المشكلة الثانية فهي أن العجوز ذات يوم علمت أن أمير البلد مدعو إلى حفلة في الشارع الذي تسكن فيه العجوز، وكان طريق الأمير

يمر من عند بابها. وعلمت بموعد مروره فأعدت خليطا من الأطياب الفاخرة والأصباغ الجذابة. وعندما مر الأمير ببابها صبت تلك الأصباغ والأطياب مع المرزاب، فأصيب الأمير ببعض الرذاذ. وسأل أهل البيت عن هذا الذي انصب هل هو طاهر أم نجس. فكلمته العجوز من عند الباب وقالت: إنها ابنتي العفريتة؛ لقد نهيتها عدة مرات عن تنظيف شعرها في مثل هذه الأوقات ولكنها تتجاهل نصائحي وتعمل كما تهوى.

وشم الأمير روائح ذكية من ذلك الماء المنصب في الشارع وسرى خياله إلى الشابة التي هذا وسخ رأسها كيف تكون هي. والمهم أن الأمير ذهب إلى الحفلة وهو مشغول الفكر بهذه الفتاة التي أصابه من وسخ شعرها ما أصابه.

وجاء الغد وأرسل الأمير رسولا إلى هذه العجوز يخطب ابنتها للأمير. فهللت العجوز ورحبت وقالت: إنني لم أربِّ ابنتي إلا له ولأمثاله، وأنا موافقة كل الموافقة على هذه الخطبة المباركة.

وعاد الخاطب إلى الأمير مبشرا بنجاح مسعاه، وأخبره أن العجوز هللت ورحبت ووافقت على هذا الزواج.

فسرَّ الأمير وفرح وأرسل إلى العجوز أنواعا من التحف والهدايا والأرزاق، وملأ بيتها العجوز من كل خير. وعُقد عقد الزواج للأمير على هذه الفتاة التي لا وجود لها وعينت ليلة الزفاف، وطبعت البطاقات ووزعت الدعوات لحضور حفلة الزفاف.

وذهبت العجوز إلى الشيطان، وقالت له: أمامك الآن مشكلتان، مشكلة زوج فارق زوجته الموجودة، وزوج عقد زواجه بامرأة لا وجود لها.

فكر الشيطان تفكيرا طويلا ثم قال: والله إنني لا أجد حلا لواحدة منهما فكيف بهما جميعا.

قالت العجوز: إذا استطعتُ أن أحل هاتين المشكلتين فهل تترك لي البلد؟

فأجابها الشيطان: نعم.

وتعاهدا على ذلك.

وذهبت العجوز في اليوم الثاني ومعها سبحتها وسجادة صلاتها، ودقت الباب الذي تركت فيه لفافة القماش، ففتح لها الزوج، فسلمت عليه وقالت: لقد جئت إلى هذا البيت منذ أيام ونسيت فيه لفافة ثياب كنت اشتريتها لابني ليهديها إلى خطيبته فأرجو أن تبحثوا عنها وتسلموها إليّ.

عندما سمع الزوج هذا الكلام انزاح عن صدره همٌّ ثقيل كان يجثم عليه.

وذهب مسرعًا وجاء باللفافة وسلمها للعجوز وهو يحمد الله على سماع هذا النبأ السار الذي علم منه أن زوجته بريئة مما ظن فيه.

ثم ذهب مسرعًا إلى منزل أصهاره ودقّ عليهم الباب ففتحوا له ودخل وطلب زوجته، وكان من حسن حظه أنه لم يتسرع بطلاق، ولم يتسرع بكشف ظنونه واتهاماته لا لزوجته ولا لأهل زوجته.

وعندما قابل زوجته وجها لوجه، عاتبته عتابًا قاسيًا وقالت له: لقد تصرفتَ معي في ذلك اليوم تصرفا شاذا لا أعرف له سببا.

فاعتذرَ إليها زوجها وقال: صحيح أنني تسرعت وأنني تصرفت معك تصرفا غير لائق، والسبب في ذلك أنني كنت في حالة من توتر

الأعصاب التي لا ذنب لك فيها. فتصرفت ذلك التصرف الخاطئ وأنا أعتذر لك. كما أنني مستعد لمنحك ما تطلبين كرد اعتبار لك مما عملته في حقك.

فطاب خاطر الزوجة وقالت: إنني لا أطلب منك شيئا معينا، لكنني أترك الأمر لذوقك ولحسن اختيارك.

وأخذ الزوج زوجته إلى داره وأعطاها ما أرضاها، وعادت الأمور إلى مجاريها في هذه المشكلة.

وبقيت المشكلة العويصة التي هي مشكلة الأمير وزوجته التي لا وجود لها. وقد قرب موعد ليلة الزفاف، وانتهت جميع الاستعدادات لهذه الحفلة. وأدارت العجوز فكرها، ونثرت جعبة مكرها واحتيالاتها واختارت منها واحدة؛ وهي أنها أخذت جذع نخلة وحملته على رأسها وذهبت به إلى بئر في وسط البلد وقريبة من المسجد، وكان القوم في الصلاة، فرمت بالجذع في وسط البئر فصار لارتطامه بالماء صوت ودوي في آذان البعيدين والقريبين على حد سواء. وصاحت العجوز صيحة منكرة وقالت: ابنتي، أدركوا ابنتي.. لقد وقعت ابنتي في البئر.

وخفف الإمام من صلاته واجتمع القوم حول العجوز يسألونها عن جلية الخبر، وعلى رأسهم أمير البلد وزوج الشابة التي سقطت، كما تزعم العجوز.

فأخبرتهم العجوز كيف سقطت ابنتها، وجعلت تصيح وتندب حظها. وانتدب الأمير أحد ثقاته للنزول في البئر وإخراج الفتاة.

فقالت العجوز: لا والله لا ينزل إلى ابنتي إلا أنا، فإنني لا يمكن أن أترك أحدا يراها وهي بهذه الحالة.

وقال الأمير لخالته العجوز: إنك ضعيفة الجهد وأخشى أن لا تستطيعي عمل أي شيء بالنسبة لها.

فقالت العجوز: مهما كان، فإنه لا يمكن أن ينزل إليها وهي في هذه الحالة إلا أنا.

فوافق الأمير أمام إصرار خالته على أن تنزل هي لاستخراج ابنتها.

وأُعدّ للعجوز ألواح من الخشب ربطت في أطرافها الحبال وجلست عليها وأنزلت إلى قاع البئر. وكان في غار من غيران البئر ولد من أولاد الجن قد أصيب بورم خبيث في حلقه فسد مجرى الطعام والشراب، حتى أنه لا يستطيع أن يأكل ولا أن يشرب وقد عولج بكل علاج فلم يفد، وجيء إليه بكل طبيب فلم يشف. أخيرًا يئس منه أهله وتركوه في ذلك الغار حتى تأتيه منيته.

وعندما رأى هذا الطفل المريض تلك العجوز، وقد انكشفت عورتها وظهرت له من خلال تلك الألواح شيئاً يُضحك الثكلى، لم يتمالك نفسه فضحك ضحكة كبيرة من أعماق قلبه على ذلك المشهد الغريب الذي رآه يمر من أمامه.

وقد ارتج كل بدنه من تلك الضحكة، وارتج بارتجاج بدنه ذلك الورم الخبيث الذي يسد حلقه فانفجر وخرجت منه جميع المواد التي كانت تملأه، وانفتح حلق الطفل وطلب الطعام والشراب فأكل وشرب ودبت الحياة فى جسمه.

وفرح أهله فرحا شديدا بنجاته من الموت بعد أن كان ميؤوساً منه. وسأله أهله عن سبب ضحكه وشفائه؟

فقال لهم: إنها هذه العجوز، وأشار إليها في قاع البئر. فجاء الجن إلى العجوز وقالوا لها: لقد شفي ولدنا بسببك وقد كان ميؤوساً من حياته، والآن اطلبي منا ما تشائين.

فقالت العجوز: إن طلبي هو حل مشكلتي مع أمير البلد؛ وهي إيجاد عروس يدخل عليها في الوقت المحدد.

فقال لها أهل الجنيِّ المريض الذي شفي: إن طلبك مجاب حالاً. وأخرجوا لها فتاة كأنها القمر.

وصاح الناس بالعجوز من أعلى البئر:

- بشرى!.. بشرى!... لعل ابنتك سالمة.

فقالت لهم: أبشروا!.. إنها سالمة.

ودُلِّيت الحبال وأُخرجت الفتاة أولا ثم أخرجت العجوز على أثرها، وتزاحم الناس على تهنئة العجوز بسلامة ابنتها. فتقبلت تلك التهاني بوجه هاش باش ورباطة جأش.

وقالت للأمير في أذنه عندما جاء يهنئها: إن ابنتي والحمد لله لم يصبها شيء من الأضرار فهي معافاة سليمة، ونحن على موعدنا في تحديد ليلة الزفاف.

ففرح الأمير بهذا الخبر الذي كان مفاجأة له؛ فقد ظن أن ليلة الزفاف سوف تتأخر بأسباب هذا الحادث المؤسف.

وذهبت العجوز إلى الشيطان وقالت له: كيف رأيت؟ وهل عادت الأمور إلى مجاريها؟

فاعترف الشيطان بدهاء العجوز وسعة حيلتها، وأنها بلغت من المكر حدا لم يبلغه هو. وتنفيذا للاتفاقيات والشروط المتعاقد عليها، رحل الشيطان من تلك البلد وتركها للعجوز تصول فيها وتجول بلا شريك ولا منافس.

أسطورة
رد الجميل

أسدل الليل ستائره على الكون وعاد الأطفال إلى بيوت أهلهم، واجتمع كل فريق منهم حول عجوز كبيرة في السن، عطل الكبر نشاطها الجسمي ولكنه أطلق لها خيالها، تسبح به في أرجاء الكون؛ تارة تطير به مع الساحرات، وتارة تقطع به الأميال على ظهور الجمال.

وقال الأطفال لجدتهم: إحكي لنا أيتها الجدة الطيبة حكاية حلوة من حكاياتك الشيقة.

فقالت الجدة: بكل سرور يا أعزائي وأحبابي، ويا بناتي الساحرات الجميلات

هذه قصة طفل صغير كان هو أمل والديه في الحياة ومصدر سعادتهم فيها. وكان رباطا قويا يربط بين الزوج وزوجته، على الرغم مما يعترض حياتهما الزوجية من خصومات واختلافات لا يخلو منها زوج وزوجته.

ثم قدر الله على هذا الأب فمرض وتوفي. وبقيت زوجته بعده أرملة؛ فكانت هي الأم وهي الأب وهي العائل لهذا الطفل اليتيم. وشب الطفل وكبر ولكنه لا يزال في دور الطفولة. وتعاهدته أمه بالتعليم وتقويم الخلق بالقدر الذي تستطيعه. وكان يجيئها الخطّاب فيها مضى فتردهم، ولا تريد أن تنغص على ولدها أيام طفولته بزوج قد يعامله بجفوة. وقد يسيء إليه بأي نوع من أنواع الإساءات، فيكون في ذلك شقاؤه وشقاؤها.

وكبر الولد ولكنه لم يبلغ السن التي يستطيع بها أن يستقل بأموره، إلا أن الأم ضاقت ذرعا بحياة الوحدة والانفراد. وجاءها رجل يخطبها وتوسمت فيه أمارات الزوج الوفي العاقل، واشترطت عليه أنها لكي توافق على الزواج منه لابد أن تشترط عليه كفالة ولدها، وأن يبقى معها في البيت. فوافق الخاطب الجديد على هذا الشرط.

زُفَّت المرأة إلى زوجها وانتقلت إلى بيت الزوجية بولدها. وصارت المرأة ترعى أمور زوجها الجديد وتصرف كذلك الكثير من عنايتها ورعايتها لابنها اليتيم. وكان الزوج يعامل طفلها في أولى أيامه معاملة لطيفة كلها ذوق وعطف وحنان، وكانت الزوجة تلاحظ هذا الأمر من زوجها فتزداد له حبا وتزداد له إخلاصا.

ومرت الأيام وبدأ ذلك العطف والحنان يتحلل من نفس الزوج تجاه الطفل، وبدأ يقسو عليه في بعض المناسبات. فبدأت النفوس تتغير والجو يتعكر. وصارت هذه التصرفات المزعجة من قبل الزوج تجاه الطفل تتكرر في اليوم عدة مرات. وكانت آثارها تظهر على نفسية المرأة وسلوكها تجاه زوجها.

وخيم على البيت توتر ووجوم، وامتلأت النفوس سخطا وكرها.

وبدأ كل واحد من الثلاثة يشعر بالقلق في هذا الوجود الذي لا تناسق فيه ولا توافق.

دخل الزوج ذات يوم على زوجته فوجد ابنها اليتيم وأمامه صحن من التمر وإناء مملوء باللبن، ونظر الزوج إلى اليتيم وإلى أمه وقال لهما: إن كل همك أيتها الزوجة هو ولدك؛ هو شغلك الشاغل، وهو الذي يقدِّم له أطايب الطعام في كل وقت من أوقات الليل والنهار الله يريحنا منه.

ويزيله من هذا الوجود.

وكان في فم الطفل تمرة وفي يده أخرى فجف ريق الطفل ولم يستطع ابتلاع التمرة التي في فمه، فرماها أرضا وقذف بالأخرى التي في فمه، ووضع على إناء التمر غطاءه وقام من مكانه مغضبا.

ودخل إلى حجرته الخاصة فأخذ ملابسه وخرج من البيت وترك والدته وحيدة مع زوجها القاسي، لعله يصلح حالها بعد مغادرته البيت، ولعلها تعيش مع زوجها في سلام إذا غاب عن أعينهما.

وذهب الطفل إلى أحد البيوت فاشتغل فيه خادمًا. وأوصى بعض التجار بأنه يريد السفر إلى إحدى المدن البعيدة مع إحدى القوافل. وكان هناك قافلة تزمع المسير فسار معها.

وصل إلى المدينة المقصودة، وذهب إلى سوق البيع والشراء. ومرَّ بحانوت، فرآه صاحب الحانوت فدعاه وقال له هل تعمل لدينا؟ فأجاب بالموافقة. ولم يتفقا على أجر شهري أو سنوي معيَّن، إنما عمل على أساس أن يقدِّر التاجر جهده فيكافئه بحسب هذا التقدير. وكان الطفل ذكيًّا قارئًا كاتبا.

واشتغل في أول الأمر في أمور ثانوية فبرز فيها. وكان الرجل كلما كلفه بأمر من الأمور عمله على أحسن وجه وأكمله. وبدأت الثقة تزداد بهذا الشاب يوما بعد يوم. وبدأ الشاب يبرز في كل عمل يناط به إلى حد أنه كان يتصرف بعض التصرفات الحكيمة التي تدر على التاجر أرباحا طائلة ما كانت تخطر للتاجر على بال.

وكان الشاب مثالا للجد والإخلاص والنزاهة والأمانة، فوثق التاجر به كل الثقة وطمع في إبقائه لديه وتوليته زمام أمور تجارته. لكنه أحب

قبل هذا أن تزداد ثقافته وتعليمه، فصار يبعثه في الصباح إلى المدرسة مع ولده الوحيد ليكون مؤنسًا له، وعونا له في دروسه، وليكون قدوة وحافزًا لابن التاجر ليجدَّ ويجتهد كما يجدُّ ويجتهد هذا الخادم النشيط.

فكان دأب هذا الشاب الدراسة في أول النهار، وتولي الشؤون التجارية في أخره.

وتخرَّج الشاب من المدرسة وانصرف بكل جهوده إلى تجارة الرجل، فبرز في أعماله ونمت التجارة على يديه نموا ظاهرا، وصار التاجر لا ينظم خيطا في إبرة إلا بعد أخذ رأيه. وكان دائما يجد عنده الرأي السليم والتدبير الحكيم.

وعاش هذا الشاب بجوار هذا التاجر حياة سعيدة كلها ثقة وأمل وعمل ونشاط، نسي بين تياراتها همومه وآلامه الماضية.

لكن والدته كانت مشغولة البال بولدها تسأل عنه الغادي والرائح، حتى عرفت مكانه في هذه المدينة وعمله عند هذا التاجر. ولم يشعر الشاب بعد عدة سنوات إلا بخطاب يأتيه من والدته تقول فيه إنها رزقت من زوجها الأخير ثلاث بنات ثم قدر الله عليه فتوفي وتركها أرملة، وترك عندها هؤلاء البنات الثلاث ولم يخلف لهن ما يكفل لهن معيشتهن. وأن عليه أن يأتي لتراه ويراها وليدبر شؤونها هي وبناتها، ثم بعد ذلك يكون الأمر إليه إن شاء أن يقيم عندهنَّ أو شاء أن يعود إلى حيث كان.

وقرأ الخطاب وتاثر كثيرا بعباراته، وتذكر والدته وما بذلت في سبيل تربيته من جهود وما سبب لها من متاعب. وعزم على السفر إليها لقضاء بعض حقوقها، ثم بعد ذلك يقرر أين يستقر وأين يعمل.

وجاء إلى التاجر وأخبره بقصة الكتاب وفحواه وقال: إنني يا سيدي عازم على السفر إلى والدتي فإنها في حالة لا يليق أن أتركها عليها وحيدة.

فرحب الرجل بسفره ولكن على مضض، وقال: إنني أسمح لك بالسفر لأن هذا أمر لابد منه، إلا أنني أرجو أن تعود إلينا سريعا لتتولى أعمال تجارتي، لأن أموري كما ترى، فأنا أصبحت شيخا كبيرا لا جهد عندي لأبذله في العمل، ولا صبر لي على معاناة المشاكل، وولدي منصرف كل الانصراف عن هذه الأمور ولا هم له إلا مجارات أتراب له يقضون أوقاتهم في ما لا نفع فيه ولا جدوى.

فوعد الشاب الرجل بأنه سوف يحاول العودة إذا قضى شؤون عائلته واطمأن على سير الأحوال لديهم.

وقدر التاجر خدمات هذا الشاب في تلك السنوات التي تبلغ عشرا، فجمع مبلغا من المال يقارب الأربعين ألف ريال، ثم أضاف إليه التاجر مبلغا يعادله، فبلغ ثمانين ألف ريال. وأعطاه هدايا وتحفا لأقاربه ووالدته وأعطاه مبلغا كذلك لزوم السفر.

دفع هذه المبالغ الطائلة لخدمة الشاب، فسرّ بوفاء التاجر بحقوقه وإعطائه أكثر مما يستحق، إلا أن التاجر مع هذا يرى نفسه هو الرابح، فقد استفاد مكاسب طائلة نتيجة لجهود هذا الشاب واتجاهاته المثمرة الحكيمة.

سافر الشاب إلى والدته وبلده بهذه الثروة الطائلة. ووصل إلى بلده واستُقبل فيها استقبالا كريما يتناسب مع ما يملكه من ثروة وفرحت به والدته وأخواته الثلاث وهبط عليهن كهبوط المطر على الزهر، فقد كن كاسفات منزويات مجهولات، أما بعد مجيء هذا الولد الغني فقد تغير

الموقف تماما وبدأ الأقارب يذكرون قرابتهم، وبدأ الأصدقاء القدامى يتراجعون إلى تلك الذكريات القديمة ويحاولون أن يحيوها وأن ينفخوا فيها الروح. وبدأ المنافسون يقفون موقفا هو إلى الصفاء والوفاق أقرب منه إلى العداء والتناحر.

وبسمت الدنيا لهذه الأسرة بعد أن كانت عابسة في وجهها، واتسعت الآمال بعد أن كانت محدودة، وكثر المساعدون والأعوان بعد أن كانوا في معزل عن المساعدين والأعوان، وكثر المتقربون والمتوددون بعد أن كانوا لا يُنظر إليهم إلا نظرات هي أقل من عادية.

وبقي الشاب في بلده معززا مكرما، إلا أن لديه طاقة لا مجال لتصريفها في بلده، ولديه أموال لا مجال لاستثمارها بين مواطنيه.

وخطبت إحدى أخواته من قبل رجل من كبار أهل بلدته، فزوجه إياها. ثم خطبت الثانية فزوجها كذلك. وبقيت الصغرى التي لم تبلغ سن الزواج بعد. وقرر الشاب الانتقال من بلده إلى بلد آخر يكون المجال فيها أوسع لاستغلال وقته واستثمار ثروته.

وعرض على والدته الأمر فوافقت على رأيه، وقرر الشاب الانتقال بأسرته المؤلفة منه ومن والدته وصغرى أخواته.

وهكذا كان. وسكن إحدى المدن العامرة بالبيع والشراء والأخذ والعطاء. وافتتح حانوتا للتعامل في أنواع النقود. وكبر هذا الحانوت شيئا فشيئا حتى صار بنكا، ثم تطور البنك إلى أن صارت له فروع في معظم مدن البلاد وصار يضم نخبة مختارة من الموظفين البارزين في شؤون الاقتصاد.

اشتهر هذا الشاب بالدقة والأمانة والقناعة كما اشتهر بقوة مركزه المالي الذي لا يخشى عليه أن يتزعزع في يوم من الأيام، لأن بنكه وفروعه تسير على خطة مدروسة وبخطوات ثابتة لا طيش فيها ولا مغامرات.

ودارت الأيام دورتها فتوفي التاجر الذي كان يعمل لديه، وانتقلت الثروة والأموال إلى يد ولده الشاب الغر المستهتر الذي جمع ثروة والده وصار ينفق منها على شهواته وملذاته هو وبعض الانتهازيين من شباب بلدته. وصارت تلك الأموال تتناقص يوما بعد يوم والشاب سادر في لهوه وعبثه.

وتقلصت تلك الأموال حتى احتاج الشاب إلى أن يبيع بعض العقارات الباقية. هذا وقُرَناء السوء يزينون له طريقته في الحياة ويقولون له في جملة ما يقولون، إن الحكمة في جمع المال هي أن يتمتع به المرء وأن يجني ثمرته في دنياه، إما أن يجمعه ثم يتركه للوارث، فإن تلك طريقة عقيمة حيث يكون عليه الحساب والعقاب وتكون لغيره الثروة والمتعة.

وبقي على هذه الحالة إلى أن نفد المال من ثابت ومنقول. ولما بقي الشاب على الصفر تفرق عنه أصحابه وصاروا كأنهم لا يعرفونه. والوفي منهم هو من يتألم لحاله ويرثي لفقره، إلا أنه لا يقدم له شيئا يعينه على تخطي تلك الوهدة التي سقط فيها.

وطال بالشاب الصبر وطال به الحرمان فنصحه ذات يوم أحد أصدقائه بأن يذهب إلى زميله الشاب الذي كان يدرس معه، والذي كان والده سبب ثروته ومصدر أمواله.

أُعجب الشاب بهذه الفكرة، ورأى أنها قد تفيده في وضعه الحاضر؛ فقد يعطيه زميله بعضًا من المال ليبيع فيه ويشتري، أو على الأقل قد يسند

إليه عملا في إحدى فروع بنكه الذي ينتشر في طول البلاد وعرضها.

وسافر الشاب حتى وصل إلى المدينة التي يسكنها زميله سابقا، وكان صاحب تلك البنوك يسمع أخبار زميله وتبديده لثروة والده بعد وفاته.

وجاء الشاب الفقير حتى دخل على زميله في أحد البنوك، فسلم عليه وكان ينتظر أن يحتفي به زميله وابن نعمة والده، إلا أن الرجل سلم عليه سلاما فاترًا. وجلس الشاب في جانب قصي من المجلس وجيء بالقهوة ثم جيء بالشاي، ثم انصرف صاحب البنك إلى عمله وكأنه لا يحس بهذا الشاب الذي أمامه ولا يعلم عن وجوده.

فاسودت الدنيا في وجه الشاب وأصيب بصدمة عنيفة. وقال في نفسه، أهكذا الدنيا تقلب لي ظهر المجن، وتجعل أولى الناس بحفظ ماء وجهي وإعادة كرامتي إليّ ينصرف عني هذا الانصراف المشين ويتجاهلني هذا التجاهل المزري.

وخرج الشاب وهو لا يكاد يرى طريقه من جراء خيبة الأمل وتنكر الزملاء.

وقال صاحب البنك لأحد موظفيه: إتبع هذا الشاب وسلِّم عليه وكأنك لا تعرفه ثم أعطه هذه العشرة جنيهات لتكون مصرف جيب له. وأسكنه في بيتك وقم بجميع ما يلزمه حتى أخبرك بما تعمله فيما بعد. فذهب هذا الموظف في أثره ونفذ جميع ما قال صاحب البنك.

وبعدٍ أن بقي الشاب في ضيافة الموظف حوالي عشرة أيام قال له سيده: أُعرض على ضيفك أن يعمل عندك في فرع البنك الذي تشرف عليه، وادفع له راتبا شهريا مقداره خمسمائة ريال.

وعرضت الوظيفة على الشاب الفقير فقبلها وفرح بها، وصار يعمل ويكسب، وطابت له هذه المعيشة التي فيها كفاح وفيها عمل وفيها كسب. وحرص الشاب على أن يكون مثال الموظف الجاد المخلص المنتج. واستمر على هذه الحالة عدة أشهر فزيد راتبه، ثم زيد إلى أن بلغ ألف ريال. وتجمع عند الشاب بعض الثروة لأنه كان يوفر كل ما يزيد عن حاجته.

وذات يوم جاءته عجوز كبيرة في السن وقالت له: إنك موظف جاد مخلص وقد سمعت عن جدك وإخلاصك، وقد اكتسبتَ في هذه الفترة خبرة وتمرينا كافيين، وإن لدي مائة ألف ريال أريد أن تبيع فيها وتشتري، فلعل الله يفتح لك بابا من أبواب الرزق الكثير.

فأُعجب الشاب بهذا العرض ووافق عليه. وأخذ المبلغ ففتح به حانوتا للبيع والشراء. ووفق الشاب فصار لا يشتري حاجة إلا أعطته ربحا ظاهرا. ونمت الأموال شيئا فشيئا إلى أن استغنى عن المائة ألف ريال الذي أعطته إياها المرأة فأعاد المبلغ إليها مع ما يستحقه من الربح.

وعرضت العجوز على الشاب أن تزوجه ابنتها الشابة المتعلمة العاقلة، التي كانت ترشحه لها منذ أن رأته موظفا جادا مستقيما في البنك. وقالت المرأة للشاب: إنني لن أزوجك على امرأة مجهولة. بل أريدك أن تزورني في بيتي وترى ابنتي بعينَي رأسك، فإن أعجبتك فتزوجها، وإلا فاذهب في حال سبيلك ورزقك على الله ورزق ابنتنا على الله.

وفرح الشاب بهذا العرض ووافق عليه واتفق الطرفان على موعد الزيارة والرؤية.

وذهب الشاب إلى بيت المرأة في الموعد المحدد، وعُرضت عليه الفتاة

فأعجب بها أيّما إعجاب وأحس بأن الأيام بدأت تبسم له، وأن أنياب الفقر والشدة بدأت تنجلي عنه شيئا فشيئا.

وافق على الزواج من تلك الشابة وجاء موعد العقد. وجاء الشاب الذي كان غنيا ثم صار فقيرا فوجد مجلسا حافلا بكبار أهل البلد وأعيانها، ووجد القاضي الذي سوف يقوم بعقد الزواج. ووجد من جملة الحاضرين زميله الشاب الذي هو ابن نعمتهم، والذي لا يزال يتجاهل زميله وينظر إليه وكأنه لا يعرفه.

وأحس هذا الشاب الفقير الخاطب بأن هذه فرصته الوحيدة لتوجيه اللوم والتقريع لزميله وابن نعمة والده. وأحس بأن قوة معنوية قد عادت إليه، وهذه فرصة قد لا يأتي بمثلها ليعاتب هذا العاق عتابا خشنا يشفي فيه نفسه، ويخرج منها تلك الانفعالات المكبوتة التي طال الزمان على كتمانها.

وقال الشاب الفقير موجها الحديث إلى الجالسين:

- أيها الأخوان الكرام إن لدي كلمة أحب أن أوجهها إليكم، واستفتاءا أحب أن آخذ رأيكم فيه. وقد تكون هذه المناسبة ليست مكانا لهذا الحديث. وأنا أرى كذلك أن هذه المناسبة ليست مناسبة لهذا الحديث، إلا أنه حديث إذا فاتت هذه المناسبة فإن وقته يفوت. ولهذا فإنني أرجو أن تسمحوا لي بعرض هذا الاستفتاء.

فقال الجالسون: تفضل وتحدث وسوف نخبرك برأينا فيما تعرض من استفتاء.

فقال الشاب: ما رأيكم في طفل يتيم احتضنه أحد التجار وهو فقير عاجز، جاهل. فعلمه ورباه وبعد أن كبر أعطاه مبلغا من المال كبيرا هو

سبب غناه. ثم بعد أن دار الزمن وتقلبت أحداثه بأهله، مات ذلك الغني وأثرى ذلك الشاب اليتيم الذي كان في كنفه، وتلاشت ثروة ذلك الغني الأول وافتقر أولاده.

وجاء أحد الأولاد إلى خادمهم بالأمس وابن نعمتهم، وهو يرجو أن يلقى منه ترحيبًا، وأن يجد في رحابه مالا أو عملا أو أملا. إلا أن شيئا من هذا لم يقع، وإنما الذي وقع هو أن غني اليوم تنكر لأولاد غني الأمس وقابل زائره منهم وكأنه لا يعرفه؛ فلم يهش ولم يبش. ولم يقدم له من بوادر الأكرام إلا فنجان قهوة وفنجان شاي. ثم انتهى كل شيء.

فما رأيكم أيها الحاضرون؟ ماذا تحكمون على شخص يتصرف مثل هذا التصرف؟

وتسرع أحد الحاضرين بعد أن فهم ما يعنيه الشاب وقال: إننا لا يمكن أن نحكم على طرف دون أن نسمع وجهة نظره، فإن كل طرف في مشكلة يحاول أن يجعل نفسه هو المحق والطرف الثاني هو المبطل.

إننا نطلب منك أن تشير إلى من تريد إذا كان حاضرا، أو تسميه باسمه إذا كان غائبا.

فأشار الشاب حالا وبلا تردد إلى زميله بالأمس وصاحب الأموال والعقارات والبنوك اليوم، وقال: إنه هو هذا.

فدهش الكثير من الحاضرين؛ فما علموا من هذا الغني إلا الوفاء والكرم وحسن الجوار وسماحة النفس والقيام بالواجبات. لهذا فقد سكتوا وانتظروا كلمة الرجل في هذا الموضوع، فقد تكون شافية وافية حاسمة.

وقال الشاب الغني لزميله: إن بعض كلامك حق وبعضه الآخر مجانب للحقيقة تماما. فإما أنكم ربيتموني وعلمتموني وأعطيتموني مالا كثيرا هو نواة ثروتي هذه، فهذا حق أعترف به على رؤوس الأشهاد. وأما أنني تجاهلتك فهذا حقّ أيضا.

ولكنني مع تجاهلي لك لم أقصر في حقّك، إنما رأيت أن أفضل طريقة لتقويم أخلاقك بعد تبديد ثروة والدك هي هذه الطريقة.

فإن الشخص الذي لحق بك عندما خرجت من مجلسي وأعطاك العشر جنيهات أنا الذي أرسلته. والشخص الذي أسكنك في بيته وصار يصرف عليك أنا الذي أمرته بذلك، وأنا الذي أصرف ما ينفقه عليك. والشخص الذي دفعك إلى الوظيفة أنا الذي أرسلته وراتبك الكبير أنا الذي كنت أزيد فيه ما بين وقت وآخر مع أن راتبك أكبر من عملك.

والمرأة التي جاءتك وأعطتك المال لكي تبيع وتشتري فيه هي والدتي. والمال مالي وأنا الذي اقترحت عليها هذا الاقتراح. ثم أخيرا، فإن المرأة التي نريد أن نعقد لك عليها الآن هي أختي، وأنا الذي أرسلت أمي إليك، وهي التي سيَّرَتِ الأمور حتى وصلتَ إلى ما وصلت إليه وذلك كله بإشارة مني.

فهل أكون بعد ذلك مقصِّرًا في حق زميلي وابن وليّ نعمتي؟

فهتف الحاضرون كلهم بصوت واحد: معاذ الله.

وخجل الشاب الخاطب أمام هذه الحقائق المذهلة. ولم يسعه إلا أن يعتذر وأن يبدي أسفه الشديد لما وجهه من اتهامات لا تمت إلى الواقع بصلة

وعقد للرجل على زوجته وعاش معها بقية أيام حياته في سعادة ورخاء، وكانت هي أم أولاده وهو أبا أولادها.

أسطورة الساحرتان

لم يساعده الحظ أن يعيش حياة كريمة؛ فهو شاب في العشرين من عمره، كله رجولة وحيوية ونشاط. طرق أبواب العمل الشريف فوجدها مغلقة في وجهه. لذا انتقل إلى بلدة أخرى وكله أملٌ أن يجد عملا يعيش منه حياة كريمة.

أخيرًا جاءه رجل واتفق معه على أن يخدم في أحد البيوت؛ يشتري حاجات أهل البيت ويهتم بأمورهم صغيرها وكبيرها، ويحوط أهل البيت بكل عناية.

فوافق على ذلك مسرورا لأنه فُرض له مقابل عمله هذا مبلغ طيب. ودخل البيت وحُدِّدت له أعماله فشرع في أدائها بروح متوثبة وحب للعمل مستمر وأمانة تامة. وعرف كل من في البيت. إنه لا يوجد فيه إلا فتاتان شابتان يظهران بمظهر الثروة والغنى، وينفقان على نفسيهما نفقة من لا يخشى الفقر، ويسكنان في بيت جميل نظيف مؤثث بأفخر الأثاث ومنسق أجمل تنسيق.

كانت مهمة الشاب أن يحافظ على هذا التنسيق، وأن ينظف كل ما يحتاج إلى تنظيف، وأن يعد للفتاتين كل ما يضمن لهما راحتهما من ملذات العيش.

استمر على ذلك سنة كاملة، وهو راض ومسرور بعمله. وهاتان الفتاتان مرتاحتان لنشاط الشاب وتوفيره لهما كل ما يريدانه من متطلبات

حياتهما من لوازم المعيشة ومتطلبات المنزل على اختلاف أنواعها. والفتاتان من ناحيتهما لا تبخلان في النفقة بل تبذلان بلا حساب.

جعل الشاب يفكر في هاتين الفتاتين، أن حياتهما كلها أسرار وألغاز. فهو لا يدري من أين تأتيهما هذه الثروة العظيمة التي ينفقان منها. وهو لا يدري أين يروحان وكيف يرجعان، ولا يرى أحدا يغشاهما من أهل المدينة. وحتى الرجل الذي اتفق معه لم ير له بعد ذلك أي أثر، فكأن الأرض قد ابتلعته أو كأنه فصّ ملح وذاب. وجعل الشاب يديم التفكير في هذه الألغاز والمعميات التي تكتنفه من كل جانب، ويدفعه حب الاستطلاع إلى أن يعرف مصادر تلك الأمور ومواردها.

أخذ يرقب الوضع من طرف خفيّ، فوجد أن الفتاتين لا تبرحان المنزل طيلة ساعات النهار. إذاً فإن الأسرار والألغاز كلها في الليل. فلابد بالتالي من التفكير في الليل فقط. لقد انحصرت الأسرار في جانب معين فليرقب هذا الجانب برفق وحذر.

وكان الشاب ينام في غرفة خصصت له في الطابق الأرضي، بينما تستقر الفتاتان في الطابق العلوي والأخير، لأن العمارة طابقان فقط. واستمر على اليقظة والمراقبة مدة طويلة لم يظفر فيهما بشيء.

لم ييأس، بل أخذ يضيِّق حلقة المراقبة شيئا فشيئا إلى أن حصرها في ساعات محدودات من الليل. فصار يأوي إلى فراشه ويتمدد فيه ولكنه لا ينام. يتأخر عن النوم كل ليلة ساعة ليرقب ما يحدث في هذه الساعة. وبقي أسبوعا على هذه الحالة.

وفي الليلة الثامنة، شعر بحركة غير عادية وأحس أن الفتاتين نزلتا إلى الطابق الأرضي، ثم أخرجتا جذعًا من جذوع النخل قد نحت باطنه

حتى صار يتسع لشخصين أو ثلاثة. ثم رأى الفتاتين تركبان داخل هذا الجذع، ثم تقولان كلمات لم يتبينها، ثم يطير بهما الجذع على أثرها.

فرح الشاب، فقد استطاع أن يحل لغزًا من الألغاز التي تحيط بهذا البيت. ولعل هذا السر هو سر الأسرار، الذي منه تتفرع جميع الألغاز والمعميات التي كان يعيش فيها قبل اكتشاف هذا الأمر في هذا البيت الهادئ الوديع. الذي لم يكن الشاب يظن أن ساكنتيه تتمتعان بهذه القدرة الفائقة. فسكت وكتم الأمر في نفسه، كأنه لم يرَ شيئا. واستمرت الفتاتان على هذا النهج، واستمر الشاب فى المراقبة الواعية الحذرة.

وذات ليلة بعد أن أدى كل ما يطلب منه وقدم للفتاتين كل ما تحتاجان إليه، تظاهر بأنه ذاهب إلى غرفته الخاصة لينام. وذهب إلى غرفته فعلا. ووضع فوق السرير وسائد وغطاها بلحاف، بحيث أن من يرى هذا السرير لا يشك أن عليه شخصا نائما.

تسلل إلى الجذع، وكان قد عرف مكانه ودرس وضعه وعرف مداخله ومخارجه. فدخل فيه وانزوى في آخره في مكان لا أهمية له في الجذع ولا طريق للفتاتين عليه، وكتم أنفاسه وضبط أعصابه. ولم يطل به الانتظار؛ فبعد وقت قصير من دخوله في الجذع نزلت الفتاتان من الطابق العلوي إلى الطابق الأرضي، وجرتا الجذع على عجلاته حتى أخرجتاه في ردهة واسعة في مؤخرة المنزل، ثم استقرتا في مكان القيادة.

صارتا تتلوان كلمات وطلاسم لم يفهم منها الشاب شيئا، ثم قالتا للجذع بصوت واحد: طر بانثاوين. فلم يتحرك الجزع. وانتظرتا قليلا لكن الجذع بقي حيث هو ولم يتحرك. فنزلت الفتاتان منه وتفقدتاه من جميع جوانبه فلم تريا فيه أي نقص ولا أي خلل، فعادتا إلى مكان القيادة.

أعادتا طلاسمهما وعزائمهما المقطعة ثم قالتا بصوت واحد: طر بانثاوين. فلم يتحرك الجذع. فقالت إحداهما للأخرى لعلك حامل يا فلانة، فضحكت ولم تستطع أن تنفي ولم تستطع أن تثبت.

وعندئذ قالت المتكلمة الأولى إنكِ حامل ولا شك، ولنفترض أن ما في بطنك ذكرا. فتلتا طلاسمهما وحروفهما المتقطعة، ثم قالتا بصوت واحد: طر بانثاوين وذكر، فتحرك الجذع.

إرتفع عن الأرض قليلا قليلا، حتى صار فوق البيوت، ثم انطلق الجذع يحلق بهم في أجواء السماء. وجعلت الفتاتان تمزحان وتتكلمان فيما بينهما بنكت، وتقصان أقاصيص يقضيان بها الوقت ويملآن بها الفراغ الذي لا طريقة لملئها إلا بسلوك هذا النهج. هذا والشاب كاتم أنفاسه، ضابط أعصابه لا يتحرك ولا يصدر منه أي صوت خوفا من أن ينكشف أمره فلا يدري ماذا يكون مصيره.

إنه أمام ساحرتين تستطيعان أن تقلباه حجرا، أو تحولاه إلى خروف أو تجعلاه في شكل قطعة أليفة تأكل الحشرات وتطارد الفئران. لقد أحس الشاب بأنه رمى نفسه في مخاطرةٍ عظيمة، نجاته من أخطارها تتوقف على مدى ضبطه لأعصابه. وتحكمه في حركاته. وبعد فترة وجيزة من هذه الأفكار والهواجس، أحس بأن الجذع بدأ في الهبوط إلى الأرض.

لم يكن هناك نوافذ يستطيع أن ينظر منها إلى الأرض. كما أن الليل مرخ سدوله فلا يكاد المرء يبصر شيئا من معالم الأرض وأنهارها وجبالها.

وبينما كان الشاب على هذه الحالة، إذا بالجذع يهبط على الأرض هبوطا هادئا رزينا، لا اهتزازات فيه ولا ارتطام. وبعد أن استقر الجذع على الأرض خرجت الفتاتان منه وتركتاه في موضعه، وصارتا تسرحان

وتمرحان. والشاب يعيش في ظلمتين، ظلمة الليل وطلعة الجذع، ولكنه يسمع ما تقولانه، ويتابع تحركاتهما من سماع صوتيهما فيعرف مقدار بعدهما من الجذع من صوتيهما.

عندما ابتعدت عنه الأصوات خرج من الجذع متسللا، ورأى ما بهر عقله وأطار لبه، وفكر هل هو يعيش في حقيقة أم خيال. لقد رأى جزيرة جميلة منسقة الأشجار، جارية الأنهار فواحة الأزهار. أما أطيارها فهي نائمة ليلا ولو كان الوقت نهارا لقلنا ومغردة الأطيار. أرضها بطحاء نظيفة، وأشجارها باسقة كثيفة، ومياهها عذبة، ونسماتها منعشة، وتنسيقها باهر.

حدق النظر في نباتاتها، فإذا هي الورد والزعفران؛ وإلى بطحائها، فإذا هي اللؤلؤ والمرجان. ولم يذهب الشاب بعيدا عن الجذع خوفا من أن يعودا سريعا فيتركانه حيث هو أو يعلمان بوجوده معهما فينكشف أمره ثم يكون مصيره في يديهما. لهذا فقد بقي قريبا من الجذع وجعل يملأ جيوبه من اللؤلؤ والمرجان، ويأخذ كلّ ما يستطيع أخذه من هذه الحجارة الكريمة. وبعد أن لم يجد مكانا فراغا يضع فيه شيئا من هذه الأشياء الثمينة، ذهب إلى الجذع ودخله بهدوء خوفا من أن يحدث حركة فيه فيسمعان الحركة بحاستهما السحرية لا بشيء من الحواس الخمس.

استقر الشاب في مكانه فرحا مسرورا؛ لقد طار وعلم الأسرار، وسوف يكسب ثروة طائلة من هذه الأحجار الكريمة التي جمعها في جيوبه.

وبعد لحظات جاءت الفتاتان وهما تضحكان وتلعبان وتتبادلان أنواع النوادر والمضحكات، ثم استقرتا في مكانهما من الجذع. وخفق قلب الشاب خوفا من أن يطلعا عليه فيقلباه صخرة ويلقيانه في هذه الجزيرة، أو ينفخان في بدنه فينقلب إلى فأر أو أرنب أو جرذان.

لكن الفتاتين لم يظهر عليهما أنهما شعرتا بشيء. فقرأتا طلاسمهما وكلماتهما المقطعة، ثم قالتا بصوت واحد «طر بانثاوين وذكر» فتحرك الجذع قليلا قليلا إلى أن ارتفع عن الأرض، ثم حلق في أجواء الفضاء. وبعد فترة غير طويلة انحط الجذع في الردهة التي طارا منها، وذلك قبيل طلوع الفجر بوقت وجيز، وذهبتا إلى غرفة الشاب فرأتاه في الفراش، فانطلقتا إلى طابقهما العلوي تقفزان الدرج قفزا سريعا. وعندما تيقن الشاب أنهما نامتا تسلل من مؤخرة الجذع. وراح يمشي الهوينا إلى غرفته الخاصة. وجمع ما معه من الجواهر والأحجار الكريمة فأخفاها في مكان منزو، وخلع ملابسه ونام على فراشه. ثم استيقظ في وقت يقظته المعتاد، فأدى جميع أعماله وكأنه لم ير شيئا.

ولم يحاول الشاب أن يذهب معهما مرة ثانية خوفا من أن ينكشف أمره، لأنه ليس في كل مرة تسلم الجرة كما يقولون في الأمثال: بل اكتفى بما قسمه الله له في المرة الأولى؛ وهي ثروة عظيمة إذا بارك الله فيها فسوف تقوم بحاجاته مدى الحياة.

وأقبل عيد رمضان وأهلت ليلة العيد ونزلت الفتاتان من طابقهما إلى الطابق الأرضي. وصارا يسليان الشاب ويمازحانه. فالليلة عيد، والعيد لابد أن يكون فيه شيء من التسامح والتنازلات عن المراتب والرتب. وقالت له إحداهما مازحة:

- ماذا تتمنى يا عزيزي في هذه الليلة؟

فقال: أتمنى أن أقضي أيام العيد في بلدي وبين أهلي وولدي وعشيرتي، وأن آكل في ضحى العيد من الجريش الذي تعمله والدتي.

فقلن له: كن على استعداد، فبعد ساعات قليلة سوف تكون عند أمك

إنما على شرط واحد وهو أن تبقى لدى عائلتك شهرا واحدا فقط. تعود بعده إلينا لتقوم بعملك لدينا كالمعتاد. فقال الشاب: أعدكما بذلك.

أعد الشاب نفسه وجمع متاعه، ووضع جواهره وأشياءه الثمينة في خرقة بالية، وربط عليها ووضعها بين أسمال ثيابه. وفي الموعد المحدد كان الشاب على أتم الاستعداد، فقادته إحداهما إلى الجذع وأركبته فيه. وكانت زميلتها قد سبقتها فاحتلت مكانها المعتاد. ثم تلت إحداهما بعض الطلاسم والحروف المقطعة. وأكدت الفتاتان على الشاب قبل ذلك أن لا يذكر اسم الله، بل يبقى صامتا وألا يسأل عما يجري أمامه.

وعدهما الشاب بذلك. ثم قالتا بصوت واحد «طر بانثاوين وذكر» فحلق بهم في أجواء السماء.

وسألت إحداهما الشاب عن بلدته وما اسمها وأين اتجاهها، وعن بيت أمه أين يقع من المدينة. فوصف لهن الاتجاه. وأخبرهما باسم البلدة. ووصف لهما منزل أمه.

فلم يشعر بعد لحظات إلا وهما يُنزلانه على سطح دار أمه، فودعانه وودعهما. ثم واصلا طيرانهما إلى حيث لا يدري.

هبط الشاب من السطح إلى أمه فكانت مفاجأة سارة، ما كانت تخطر على بالها في الخيال.

فقبّل الشاب رأس والدته وقبلت الوالدة ولدها في خديه، وتعانقا عناقا طويلا جرت فيه دموع الفرح مدرارا. وسألت الوالدة ولدها:

– كيف جئت؟ هل هبطت من السماء، أم بعثت من الأرض؟ إنني لا أدري يا ولدي كيف جئت إليّ في ليلة هذا العيد الذي صار بالنسبة إليّ أعيادا.

فقال لها الولد: لقد أتيت بواسطة معجزة لا يمكن أن تخطر على البال.

قالت الوالدة: وكيف؟

وأراد الشاب أن لا يخبر والدته بالحقيقة لأنها تشير إلى أنه خادم للسحرة، ومرتبط مع السحرة، ويتعامل معهم. وهذه كلها أشياء قد تسبب له مواقف محرجة وسمعة غير لائقة، فتهرب من هذا كله بأن قال لوالدته:

- لقد قدمت معروفا إلى أحد الجان من حيث لا أشعر. وكنت أتحدث وأتمنى أن أكون في ليلة هذا العيد عندك لآكل من طعامك الذي تصنعينه في العيد. ولعل هذا العفريت علم برغبتي وأراد أن يكافئني على معروفي، فطار بي حتى رماني فوق سطح منزلنا.

فازداد عجب الأم، وتناثرت دموعها على خديها من الفرح للمرة العاشرة، وذلك لنجاة ابنها من هذه المغامرة الخطيرة التي خاض غمارها؛ حيث طار إلى الجو أو طير به إلى الجو، وتعلق بين السماء والأرض، ثم هبط سالما في بيت أمه.

جعلت الأم تفكر كيف نزل وكيف نجا. وكيف استطاع أن يتنفس فى طبقات الجو، وأن يضبط توازنه في الجو. والمهم أن الولد قال لأمه:

- اكتمي الخبر فلا يدري به أحد لا قريب ولا بعيد. ومن سأل عن مجيئي وعمن جئت معه فقولي: جاء مع قافلة من البادية مرت بالمدينة ووضعته خارجها، ثم واصلت سيرها إلى مضارب حيها.

وعاش الشاب بجوار أمه وفي بلده وبين أهله وذويه عيشة غنى

وثراء. وجعل يبيع من هذه الجواهر واحدة بعد أخرى، وينفق من ثمنها على نفسه وعلى ذويه. ثم تزوج ابنة عمه ورُزق منها بعدة أولاد، وعاش الجميع في تبات ونبات، ورزقوا الكثير من البنين والبنات.

أسطورة السلطان المخطوف

اعتدلت الجدة العجوز فى جلستها، وابتسمت لأحفادها قائلة: الليلة يا أعزائي أحكي لكم حكاية لطيفة عن سلطان واسع الثراء، كثير الجنود والأعوان، عزيز الجانب، موطد الأركان.

وكان لهذا السلطان ثور مدلل، تركه يهيم في المدينة وفي المزروعات، يأكل ما يشاء، ويعبث بما يشاء، ويعيث في الأرض فسادا، ولا أحد يجرأ على صده أو طرده، أو حتى عن الإخبار عنه، لأن الناس قد علموا أن السلطان يدري بما يصنع ثوره، كما أنه لا يرضى أن يشتكي أحد هذا الثور أو يذكر مساوئه وأضراره.

وصبر الناس صبرا طويلا، لكن القلق والتذمر أصبح يزداد يوما بعد يوم، والأضرار بدأت تزعج الكثير من الناس، وازدادت الأضرار وازداد اللغط والشكوى من الناس بعضهم لبعض.

وكان هذا الثور قد سمن حتى صار يغري بلحمه وشحمه كل من رآه، لكنَّ أحدا لا يجرأ عليه، لا خوفا منه ولكن خوفا من السلطان.

وكان في المدينة رجل دميم الخلقة قميء القامة، إلا أنه كان حاد الفؤاد، بعيد النظر، خرَّاج ولاَّج، يحسن الدخول في المآزق ويحسن الخروج منها.

وفي غفلة من غفلات العيون والأرصاد، قبض هذا الرجل على ثور

السلطان وذهب إلى مكان مجهول، وأخذ لحمه إلى زوجته ودفن جلده وبقية فضلاته في تلك الخرابة.

وسألته زوجته عن هذا اللحم من أين أتى به، فقال: إن لهذا اللحم قصة، وأخشى أن أبوح بها إليك فتفشينها. فيكون في ذلك هلاكي.

فقالت الزوجة لزوجها: إنني لا يمكن أن أفشي سرا يسيء إليك أو يقضي على حياتك، فأخبرني وكن واثقا ومطمئنا بأن السر سوف يبقى محفوظا إلى الأبد.

فأخبرها الرجل بأن اللحم من ثور السلطان وأنه ذبحه لغرضين مزدوجين، أولهما كف شره عن الناس، وثانيهما، وهو الأهم، الاستفادة من لحمه.

وذعرت المرأة عندما سمعت بأن ذلك اللحم من لحم ثور السلطان، وتوقعت حدوث عواقب وخيمة ولكنها ضبطت أعصابها وقالت لزوجها: ثق يا زوجي العزيز بأنني لن أدلي بأي خبر عما جرى.

وبقي الرجل على عادته في دخوله إلى بيته وخروجه منه هادئ النفس موزون الحركات، يستمع لما يدور بين الناس حول الثور. وقد سمع بأن الناس فرحوا فرحا شديدا بهلاكه، ولو كانوا يعرفون من ذبحه لشكروه وأثنوا عليه. وكافأوه مكافأة سخية، على شرط أن لا يعرف السلطان شيئا عن مشاعرهم وتقديرهم للفاعل.

أما السلطان فإنه عندما علم بفقدان ثوره المدلل غضب غضبا شديدا وجمع أعوانه ومساعديه، وألقى فيهم خطبة تشتعل غضبا وثورة، وقال لهم من جملة ما قال: إن الذي تجرأ على الثور سوف يتجرأ على غيره إذا ترك بلا جزاء وسوف يفتح الباب لقوم آخرين ليعملوا مثل

عمله. وإن عليكم أن تبحثوا عن المجرم، فإن كان في السماء فأنزلوه، وإن كان في الأرض فأخرجوه. ولن يهدأ لي بال حتى ينال المجرم جزاءه.

وتأثر الخدم والأعوان بهذه الخطبة وتحمسوا للبحث والتحري، وتأكدوا بأنهم سوف يجدون الفاعل مهما بالغ في الاختفاء والتنكر. وقبل أن يتفرق القوم للبدء في مهمتهم قال لهم السلطان: إنني سوف أعطيكم مدة معينة هي أسبوع واحد للحصول على المجرم، وبعد الأسبوع سوف أرى فيكم رأيي. ثم وعد السلطان من يجد المجرم بمكافأة كبيرة سال لعاب القوم عندما سمعوها.

وتفرق الخدم والأعوان وانبثوا في أنحاء المدينة يبحثون وينقبون، ووجد أحدهم بقايا الثور، ولكنه بحث عن شيء يدل على الجاني فلم يجد. واتجهت التهمة لعدة أشخاص، فقبض عليهم لكنهم لم يصلوا معهم إلى نتيجة.

وجدَّ الرجال في البحث، وباءت مساعيهم كلها بالفشل. وكان السلطان ينتظر النتيجة ويترقب البشرى بوجود الفاعل. لكن الأسبوع انتهى دون الوصول إلى نتيجة، فغضب السلطان على أعوانه وأقصى عدة أشخاص منهم. وفكر في أسلوب آخر يبحث به عن المجرم. وكان يعرف عجوزا لا تترك بيتا في المدينة إلا دخلته، ولا سرًّا من أسرار أهلها إلا عرفته.

وأرسل إليها فجاءته، وقال لها: إنني سوف أعهد إليك بمهمة تحتاج إلى تلطف وإلى ذكاء وحسن تصرف. فأبدت العجوز استعدادها. فأخبرها السلطان بالمهمة، وهي العثور على قاتل الثور. وأغراها السلطان بمكافأة كبيرة أعطاها بعضها حالا، ووعدها بالبقية عند النجاح في المهمة.

وأخذت العجوز مكافأة السلطان، وخرجت وهي تدير في رأسها مختلف الطرق والأساليب التي يجب عليها أن تتبعها. وذهبت إلى بيتها حالا وأخذت صرتها وفيها أغراض متعددة من حاجات النساء ولوازمهن.

صارت العجوز تدور في البيوت تبيع وتشتري وتتحسس الأخبار وتتصل بالأشرار والأخيار. وفي يوم من الأيام دخلت في أحد البيوت فشمت رائحة لحم يطبخ، فباعت على صاحبة البيت ما أرادت، ثم قالت:

إن عندي فتاة مريضة تشتهي لحم ثور، وقد بحثت في السوق عن هذا اللحم فلم أجده، فأرجو أن تعطيني قطعة لحم إذا كان هذا اللحم الذي تطبخينه لحم ثور، أما إذا كان لحم بقرة فإنني لا أريده لأن ابنتي لا تحبه.

فقالت لها المرأة: إن الذي عندنا لحم ثور، وسوف أعطيك منه قطعة كبيرة تكفيك أنت وابنتك.

وقالت العجوز: إنني طيلة الأيام الماضية أبحث في السوق عن لحمة ثور فلم أجد، فمن أين اشتريتم هذا اللحم حتى أشتري منه في المرة الآتية؟

فغمغمت المرأة ولم تبح للعجوز بالطريقة التي حصلوا بها على لحم ذلك الثور. فألحت العجوز على المرأة وقالت لها: إنني كوالدتك ولست أقصد من السؤال إلا معرفة مصدر اللحم لأشتري منه.

فقالت المرأة: إن زوجي جاء بهذا اللحم دون أن يدفع فيه ثمنا، ولا أدري من أين جاء به.

وتيقنت العجوز بأنها وصلت إلى نتيجة باهرة، وأخذت صرتها وفيها أغراضها، وفيها قطعة اللحم التي أعطتها إياه المرأة.

وعندما أقبلت على الباب للخروج قابلها زوج المرأة ورأى اللحم في أعلى صرتها، فسلم عليها وقال لها: عودي معي يا أماه لأعطيك لحمة أكبر من هذه اللحمة، وأخبرك بأخبار وافية عنها.

وأخذ العجوز من يدها، ودخل بها إلى أقصى المنزل وكان فيه موقدٌ، قذف بالعجوز في وسطه ثم أوقد عليها النار حتى صارت رمادا.

ثم عاد إلى زوجته وقال لها: يا زوجتي العزيزة لقد كدت أن تفضحينا وأن تدرِّي علينا البلاء. فاعتذرت زوجته وقالت:

- إنني لا أتصور أن هذه العجوز على صلة بالسلطان.

فقال لها زوجها: إن عليك أن تشكي في كل أحد وأن تحتاطي تمام الاحتياط، فمن الحزم سوء الظن بالناس.

وفقدت العجوز وبلغ السلطان فقدانها فازداد غضبه وازدادت ثورته، وقال في نفسه: إن هذه أحداث لم يسبق أن حدثت في بلادي، وإن عليّ أن أجتث هذه الشرور حتى تعود الأمور إلى سابق عهدها.

وكان للسلطان ابنة ذكية عاقلة، ورأت ما يعاني والدها من ثورة وغضب فقالت له: ما الذي أغضبك يا والدي العزيز؟ فأخبرها السلطان بالقصة، وقال: إنني قلق من جراء هذين الحدثين، فقدان الثور وفقدان العجوز التي تبحث عنه.

فقالت له ابنته: إذا وثقت بي يا والدي العزيز، فإنني سوف آتيك بالخبر اليقين.

فمنحها السلطان ثقته وأذن لها بالبحث عن الجاني، وقال لها: إن الذي قتل الثور هو نفسه الذي قتل العجوز، وإذا تركنا الأمور هكذا فقد تمتد يده أكثر فأكثر وعلينا أن نحسم الشر في بدايته قبل أن يستفحل ضرره وتتطاير شرره.

فقالت ابنة السلطان: أنا أتعهد بأن أدلكم عليه وأكشف الستار الصفيق الذي يحيط به. فرحب والدها بفكرتها وشجعها عليها. لكنها قالت لأبيها: على شرط أن تزيل من نفسك عوامل الغيرة وأن تسمح لي بالأطماع في نفسي، وثقْ أنه لن يجرأ على ابنة السلطان إلا الذي تجرأ على ثور السلطان.

فسمح لها والدها بأن تفعل ما تريد في سبيل الوصول إلى نتيجة. وخرجت ابنة السلطان في أبهى زينتها تمشي في الأسواق، وكل من يراها يشتهيها، ولكن لا أحد يجرأ على أن يكلم ابنة السلطان أو يحاول أن ينال منها مطمعا. وسارت الفتاة في شوارع المدينة دون أن يعترض طريقها إنسان.

وبينما كانت سائرة في أحد الشوارع، إذا برجل يكلمها ويغازلها وهي لا تظهر أي تأفف أو سخط على هذه المغازلة. وتبعها الرجل، حتى أتيحت له الفرصة لمحادثتها وعرض الجنس عليها؛ فوافقت الفتاة. فقال لها: اتبعيني؛ فتبعته.

ودخل بها في منزل أحد أصدقائه الذي كان مسافرا، وتحدثت معه وتحدث معها. وكان معها طِيبٌ لونه غريب ومزيل للشعر، فمسحت على لحيته وشاربه من هذا الطيب الذكي الرائحة. وعندما شمه الرجل فرح به وقال للفتاة: زيديني من هذا الطيب، فزادته.

ثم خرجت الفتاة من عنده وهي واثقة بأنها قد وسمته بعلامة مميزة، سوف تجعله أشهر من نار على علم. وعادت الفتاة إلى والدها، فأخبرته بأنها قد وضعت على لحية الرجل وشاربه علامة، وأن عليهم غدا أن يستعرضوا رجال المدينة؛ فأيهم يجدونه بلا لحية ولا شارب فهو قاتل الثور وقاتل العجوز، ومنتهك حرمة السلطان.

فرح السلطان بهذه النتيجة السريعة التي حصلت عليها ابنته، ونشر أعوانه في البلدة في المساجد وفي مجتمعات الناس، وقال لهم: إذا وجدتم رجلا بلا لحية ولا شارب فاقبضوا عليه وائتوني به مسرعين.

لبى الرجال أمر السلطان وتفرقوا في المدينة باحثين عن الرجل الذي بلا لحية ولا شارب. وما كان من قاتل الثور إلاّ أن شعر في الليل بتساقط شعر لحيته وشاربه، وأدرك أن ذلك من الطيب الذي كان ممزوجا بمادة من طبيعتها إسقاط الشعر.

علم الرجل بالمكيدة التي ينطوي عليها هذا الأمر؛ فلم يكن منه إلا أن يستيقظ مبكرا. وعندما أذّن آذان الفجر ذهب مسرعا إلى البئر التي بقرب المسجد، والتي يتوضأ من مائها الناس عند كل صلاة. فملأ الحوض ومزجه بمادة النورة «مادة إسقاط الشعر».

وجاء الناس فتوضأوا وكل من توضأ من تلك البئر تساقط شعر لحيته وشاربه.

ولما جاء الصباح، رأى أعوان السلطان رجلا قد تساقط شعره فقبضوا عليه، لكنهم بعد فترة وجيزة وجدوا شخصا ثانيا وثالثا ورابعا. ثم وجدوا أن الناس كلهم على هذه الشاكلة فأطلقوا من قبضوا عليه.

وذهبوا إلى السلطان فأخبروه، فغضب غضبا شديدا. وعلم أن تدابيره

وإجراءاته للقبض على هذا القاتل قد فشلت. وأنه لا سبيل إلى القبض على هذا المجرم، فقد أعياهم وكلفهم إرهاقا وتعبا.

ولهذا فإن السلطان فكر مليا فوجد طريقة لاكتشاف هذا المحتال العريق. فإذا لم يستطيعوا أن يقبضوا عليه بهذه الحيلة، فإنه لا سبيل للقبض عليه.

وأمر السلطان بأن ترمى في الشارع نقود ذهبية عليها علامة السلطان وتحمل شعاره. وقال لأعوانه: راقبوا هذه النقود، فأي شخص يجرأ على أخذها فاقبضوا عليه وائتوني به.

ورميت النقود الذهبية في الشارع، وأعوان السلطان يراقبون الغادين والرائحين فلا أحد يجرأ على الانحناء على تلك النقود وأخذها.

وعلم قاتل الثور بتلك النقود، فجعل في أسفل نعليه دبسا أو مادة لزجة أخرى. وجاء إلى ذلك الشارع يمشي على تلك النقود ولا ينحني لأخذها. فكان كلما وطىء على شيء من تلك النقود لصق بنعليه وسار بتلك النقود في أسفل نعليه دون أن يشعر المراقبون بما صنع.

وجاء المراقبون إلى تلك النقود بعد أن يئسوا من أخذها فلم يجدوها، وذهبوا إلى السلطان فأخبروه بما جرى. فازداد السلطان ثورة وغضبا. لكن المغضوب عليه ليس بين يديه لينتقم منه وينفس من بركان ذلك الغضب.

ورأى السلطان أخيرا أنه لا فائدة من الغضب ما دام المغضوب عليه ليس حاضرا لديه.

وفكر في طريقة أخرى لاكتشاف هذا المجرم العريق لكنه لم يجد.

وأخيرا أمر السلطان بأن ينادى في البلد بالأمان لقاتل ثور السلطان. وأن مكافأة كبيرة إذا سلم نفسه إلى السلطات المسؤولة أو سلم نفسه إلى السلطان.

ومضى بعد إعلان هذا العفو يومان أو ثلاثة والسلطان ينتظر، وقاتل الثور يترقب الفرصة المناسبة لتسليم نفسه للسلطان، لأنه يعلم أن السلطان لن يخلف وعده ولن يغدر بعهده.

وفي ذات صباح ذهب قاتل الثور إلى قصر السلطان وأخبر الحاجب بأنه يريد مقابلة السلطان شخصيا لأن لديه أخبارا عن قاتل الثور. وأخبر السلطان بهذا الوافد، وأعلم بما حمل من أخبار فأمر بإدخاله حالا.

وقف الرجل أمام السلطان، فقال له السلطان: ما لديك من أخبار؟ فقال الرجل: لقد جئت لأسلم نفسي إلى السلطان شخصيا، ولأعتذر منه عما بدر مني؛ فقد قمت بعمل لا يصح أن يصدر من شخص يحب مليكه وبلاده. لكنني سوف أشرح لمولاي السلطان الأسباب والدوافع ليكون لي بعض العذر.

وأنصت السلطان إلى الرجل فواصل حديثه قائلا:

لقد رأيت هذا الثور يعيث في الأرض فسادًا؛ فيأكل ويخرب ولا أحد يجرأ على صده، ولا أحد يجرأ على إخبار السلطان بما يصنع. فدفعتني الغيرة أولا، وشهوة اللحم ثانيا، إلى أن أفعل ما فعلت. هذا هو السبب فيما عملت أولا. أما ما عملته بعده فهو من باب الدفاع عن النفس.

هذه هي مبررات عملي. أرجو أن تكون عاملا قويا لتخفيف آثار تهوري وارتكابي ما لا يليق.

فقال السلطان: إنني لا أصدق أنك أنت الذي قتلت الثور وقمت بما قمت به من أعمال فيما بعد.

وكان الرجل قصيرا دميما منتفخ العينين، لا يوحي شخصه الضئيل بتلك الجرأة والإقدام وصواب النقض والإبرام.

فقال له السلطان: إنني لا أصدق أنك الذي قمت بقتل الثور وما تلاه من أحداث. فقال الرجل: إنه أنا ولم يشاركني في هذا العمل أي إنسان. فأنا الذي عملت تلك الأعمال، وأنا المسؤول عن نتائجها.

وقال السلطان: إنني لن أصدق ما قلت إلا بدليل وبعد اختبار، فإن نجحت في ذلك الاختبار صدقت أنك قاتل الثور والقائم بما تلاه من أحداث، وإن سقطت في التجربة كنت كاذبا مفتريا وسينالك عقاب الكاذبين المفترين.

وقال الرجل: إنني مستعد لخوض هذه التجربة ومحاولة اجتياز هذا الامتحان بنجاح.

وقال السلطان للرجل: أجلس، فجلس. ثم قال له: إن لي منافسا قويا شرسا هو سلطان البلاد الفلانية. فإذا استطعت أن تذهب إليه وتأتي به إلي حيا أو ميتا، فإنني سوف أصدقك، وسوف أمنحك رتبة يحسدك عليها أي شخص في بلادي.

وقال الرجل للسلطان: إنني على أتم الاستعداد.

وأعطاه السلطان كل ما يريده من أدوات السفر ولوازمه. وعندما هيأ الرجل نفسه ورتب أمور عائلته، توجه إلى بلد ذلك السلطان، وجدَّ في السير حتى وصل عاصمة تلك البلاد، فاستأجر بيتا وسكنه. ثم فكر

في الطريقة التي يستطيع بها أن يصل إلى هذا السلطان. وبعد السؤال والتحري علم أن السلطان أكول شروب.

وقال الرجل في نفسه، إنني لن أستطيع أن أصل إلى هذا السلطان وأن أبلغ مرادي منه إلا عن طريق معدته.

وبحث الرجل عن شريك من أهل البلد لافتتاح مطعم في المدينة. ووجد الشريك وفتح المطعم، وصار الرجل هو الذي يتولى الطبخ ويصنع أنواعا من الأطعمة اللذيذة التي لم تعهدها المدينة.

فأقبل عليه الناس وانتشرت له فيما بينهم سمعة فريدة. وترامت سمعة هذا المطعم إلى السلطان فطلب إحضار هذا الطباخ. وذهب الرجل الغريب إلى السلطان، وعندما مثل بين يديه قال له: إنني أريد أن تكون طباخي الخاص. فرحب الغريب بهذا الشرف العظيم الذي يضفيه عليه السلطان وباشر عمله في مطبخ القصر، وباع نصيبه من مطعمه السابق إلى شريكه.

صار الرجل يطبخ للسلطان أنواعا من الأطعمة اللذيذة التي لا عهد له بها. فازدادت مكانة هذا الطباخ الجديد عند السلطان ووثق به، حتى صار لا يقدم طعام السلطان ولا شرابه إلا هذا الرجل الغريب.

ودرس الرجل أوضاع السلطان وأوقات خلواته وأوقات اجتماعاته. وعلم بشؤون القصر كلها وشؤون أهلها. عندئذ ذهب إلى نجار ماهر في المدينة، وطلب منه أن يصنع له صندوقا خشبيا طوله كذا وعرضه كذا. وصنع له النجار صندوقا جميلا حسب التعليمات والمواصفات المطلوبة.

ثم ذهب إلى رسام ماهر، فقال له: إنني أريد أن تتخيل ملك الموت، فترسمه لي بأجنحته وشكله الملائكي. وصنع الرسام رسما لملك الموت؛ فكان رسما مخيفا مرعبا.

ثم ذهب الرجل بذلك الرسم إلى مصمم ألعاب للأطفال، وقال له: إنني أريد منك أن تصنع لي ألبسة تنكرية إذا لبستها صرت مثل صورة هذا الرسم.

وعمل له الصانع ما أراد، وعمل تجربة لهذه الملابس فكانت طبق ما يريد. وأخذ الجميع وأخفاه في حجرته الخاصة التي بداخل قصر السلطان.

وحانت الفرصة ذات يوم. وقال السلطان لطباخه الخاص: إنني في هذه الليلة سوف أخلو بنفسي، وأريد أن تهيئ لي من الطعام كذا ومن الشراب كذا.

لبَّى الرجل الغريب ما قال له السلطان. ثم ذهب إلى غرفته الخاصة فلبس ثيابه التنكرية ودخل على السلطان، وكان على انفراد. وعندما رآه السلطان رفع صوته الغاضب قائلا:

- من أنت وكيف تدخل عليّ بلا إذن مني؟

فقال الرجل بصوت أجش رزين: إنني شخص أدخل على الكبار والصغار بلا مواعيد ولا استئذان.

فقال له السلطان: ومن أنت؟

فقال الرجل الغريب: أنا ملك الموت، جئت لأقبض روحك. وكان الرجل قد لبس ذلك اللباس الغريب المخيف. وعندما سمع السلطان

ذلك الكلام ورأى ذلك المرأى، انشلت حركته وانعقد لسانه فلم يستطع حراكا، ولم يستطع كلاما، وصار الرجل الغريب مسيطرا عليه تمام السيطرة.

وقال الرجل للسلطان: لقد رحمتك وأشفقت عليك ولابد أن لك وصايا ولك حاجات وتدبيرات تريد أن تودع بها الدنيا. فادخل في هذا الصندوق، وسوف أصعد بك إلى رب العزة وأشفع لك في أن تبقى على قيد الحياة فترة من الزمن.

فنشط السلطان قليلا وتحرك لديه بصيص من الأمل، فقال للرجل: ولماذا لا تصعد وتشفع لي وأنا في مكاني هذا؟

فقال ملك الموت: إن الأوامر التي لدي هي أن أقبض روحك، وما دام صدر إلي هذا الأمر فلا مجال لي إلا أن أصعد بروحك وبجسمك، أو أصعد بروحك فقط؛ فاختر أي الأمرين شئت؟

ورأى السلطان أنه لا مجال للاختيار، وأن عليه أن يدخل في ذلك الصندوق، فلعل طاعته وعدم مشاكسته تكون شفيعا له في أن يبقى في حكمه فترة من الزمن، يختم فيها حياته خاتمة طيبة تحفظ له ذكرا جميلا وتهيئ له عاقبة حميدة.

ودخل السلطان في ذلك الصندوق وأقفل الرجل عليه، ثم حمله فوق رأسه. وأخفاه لفترة معينة من الوقت. وعندما نامت العيون وانحسر مد الخدم والحشم، حمل الرجل ذلك الصندوق وخرج به من القصر السلطاني. ثم اشترى راحلة قوية سريعة، فحمل متاعه ومن جملته ذلك الصندوق الذي فيه السلطان.

جدَّ الرجل في السير حتى وصل إلى عاصمة بلاده وقصد إلى بيته وحط

عن راحلته، ووضع الصندوق الذي فيه السلطان في مكان حصين، ثم هب إلى سلطان بلاده مسرعا، وسلم عليه وأخبره بأنه جاء بالسلطان حيا سويا قويا.

فلم يصدق السلطان، كلام الرجل بادئ ذي بدء، إنما قال له: أئتني به حالا. فذهب الرجل إلى منزله وحمل الصندوق وجاء به إلى السلطان فوجده في مجلسه متحفزًا منتظرا وهو بين المصدق والمكذب.

وجاء الرجل بالصندوق حتى وضعه أمام عظمة السلطان. ثم فتحه وأطل السلطان بداخل الصندوق فإذا به يرى غريمه ومنافسه الخطير فيه. ونظر السلطان إلى حاله، فإذا هي حال من الرعب والفزع لا نظير لها.

فرقَّ قلب السلطان المنتصر على ذلك السلطان المخطوف، وأمر بإخراجه من الصندوق وإكرامه غاية الإكرام. حتى إذا عاد إليه هدوءه واسترد بعض صحته، جاء به السلطان واعتذر منه وقال له: لقد قلتها كلمة عابرة، هي إلى الهزل أقرب منها إلى الجد، فحصل ما حصل. والآن أنت في أمان وضمان، وسوف تعود إلى بلادك معززا مكرما.

فاطمأن بال السلطان المخطوف، وأفرخ روعه وبدأت تعود إليه صحته شيئا فشيئا. وانتظر من السلطان أن يسرحه سريعا إلى بلاده التي سوف تكون في حالة من الذعر والفوضى لا مثيل لها.

لكن السلطان المنتصر لم يستعجل في إرساله، بل أبقاه عنده وهو في غاية الإعظام والإكرام.

وجاء السلطان بقاتل الثور وخاطف السلطان، فقال له: ماذا تريد؟ فقال الرجل: إنني لا أطلب شيئا، لكنني أترك الأمر لمولاي السلطان.

فقال السلطان للرجل: لقد اخترتك لتكون وزيرا لي وزوجا لابنتي، وفردا من أفراد أسرتي.

ففرح الرجل بهذا الكلام وشكر السلطان على تلك المنن العظيمة التي أولاه إياها.

أما ما كان بين السلطان المنتصر والسلطان المخطوف، فقد أُكرم المخطوف غاية الإكرام، ثم سُرِّح إلى بلده بعد أن أُخذت منه العهود والمواثيق أن يكون مواليًا للسلطان المنتصر؛ عدوا لعدوه وصديقا لصديقه. وأن لا يضمر مكرا ولا غدرا ولا خيانة مدى الحياة.

على هذا وقع الاتفاق، وبه صار الوفاق. وعاد السلطان المخطوف إلى بلده فوجدها في غاية من الرعب والهرج والمرج والارتباك، فتسلم عرش سلطانه.

هذا وقد وفى السلطان المخطوف بالعهود والوعود التي بذلها للسلطان الذي اختطفه، أولا، لأن السلطان أكرمه، وثانيا، للعهود والوعود التي أبرمت بين السلطانين، وثالثًا، إن الرجل الذي احتال عليه واختطفه هو الذي يتولى شؤون ذلك السلطان المنتصر. لهذا فهو لا يأمن لو غدر بعهده من حيل ذلك الوزير وأحابيله التي تفوق التصور ولا تخطر على البال.

وعاشت المملكتان في أمن وسلام. وجاء الراوي من عندهم وليس معه إلا هذا الكلام.

أسطورة الجمل والحية

تربعت الجدة العجوز في جلستها وراحت تحكي قائلة: إليكم يا أعزائي قصة الأصدقاء الثلاثة الذين جمعهم السفر في طريق واحد.

وأراد واحد منهم أن يستمر في الحديث، فهو التسلية الوحيدة في السفر وهو الذي يخفف عنهم بعض المتاعب.. كما أن المسافر مع الحديث يقطع مسافة طويلة دون يحس بثقل الوقت ورتابة الخطوات التي يقطع بها الطريق..

واقترح هذا الصديق على رفاقه أن يتحدث كل واحد منهم بأغرب حادثة مرت عليه في حياته، فاستهوت الرفاق هذه الفكرة وبدأ أحدهم يقص أغرب ما مر به في حياته فقال:

كنت ذات يوم أجلس أمام صديق عزيز. وكان يتحدث إلي بحديث هو متحمس لسرده علي وأنا متحمس لسماعه منه.. بينما كان الصديق مستمرا في حديثه، شعرت بأن شيئا يدب على ظهري بين ثوبي وبدني، وتجاهلت هذا الشيء الذي يدب وبقيت منصتا لحديث صديقي.. ثم شعرت بشيء يلدغني فلم أتحرك بل بقيت كما أنا..وكأن شيئا لم يحدث.. واستمر اللدغ واستمرت الآلام.. ورفيقي مستمر في حديثه بنفس الحماسة والاندفاع.. وأنا مستمر في السماع بنفس الحماسة والإنصات أيضا.

وازدادت الآم وازداد اللدغ لكنني تجاهلتها، حتى فرغ صاحبي من

حديثه. عندئذ استأذنت وقمت من المجلس بحجة أنني سأقضي حاجة.. وعندما خلوت بنفسي وخلعت ثوبي وجدت فيه عقربا سوداء.. كانت قد أفرغت سمها كله في جسمي، وبقيت متعلقة بثوبي، لا تكاد تستطيع حراكا بعد إفراغ سمها فقتلتها... ثم شويتها ثم ألصقتها بالموضع الذي كانت أفرغت فيه سمها.. وعدت إلى رفيقي وكأن شيئا لم يكن. إلا أنني بقيت بعد ذلك أربعا وعشرين ساعة أعاني من آلام تلك السموم التي أفرغتها في جسمي تلك العقرب.. ومع ذلك فان صديقي لم يعرف شيئا عن ذلك البتة.

وقال الثاني: إن أصعب ما مر علي في حياتي أنني كنت مع رفقة لي نسير في الصحراء، ونبحث عن صيد هو بالنسبة إلينا كان ما هب ودب على الأرض؛ من إنسان أو حيوان أنيس أو حيوان متوحش.. وبصريح العبارة كنا جماعة من اللصوص..وبينما كنا ذات يوم نبحث عن صيد.. أقبل إلينا جماعة من اللصوص.. هم أكثر منا عددا.. وأفتك منا سلاحا... وفكرنا في الهرب، ولكن لا مجال للهرب فلابد أن يدركونا.. وفكرنا في المقاومة.. لكن المقاومة ضرب من الانتحار..

قررنا جميعا أن الاستسلام في مثل هذه الحالة.. هو الطريق الأسلم.. فلعلهم يبقون على ما معنا، أو لعلهم يتركون لنا شيئا مما في أيدينا رحمة بنا وتقديرا لموقفنا المسالم الذي وقفناه تجاههم.

وجاءت هذه العصابة القوية فاستولت علينا وأوثقتنا بالحبال وأخذت جميع ما معنا وسارت بنا في الطريق الذي تريده لا الطريق الذي نريده نحن. ونزلوا بنا في أرض منخفضة في مجاهل الصحراء، وجردونا من ملابسنا وأخذوها. ثم حفروا لكل واحد منا حفرة فوضعوه فيها.

ودفنوه كله ما عدا الرأس والوجه، بحيث يستطيع الإنسان أن يرى ويتنفس، لكنه لا يستطيع حراكًا..

وقال لنا هؤلاء اللصوص: إننا سوف نبقيكم هكذا رأفة بكم.. وإلا فان جزاءَكم القتل.. قالوا هذا الكلام وشدوا رحالهم وتركونا على هذه الحالة!!

وجاء الليل.. وجاءنا قطيع من الذئاب فاستولى كل ذئب على واحد من رفاقي وجعل يفترسه.. وكلما أكل اللحم البارز من جسمه حفر عما تخفيه الأرض.. وجاء الذئب الذي كنت من نصيبه، وقعد بالقرب مني، وصار يداعب رأسي.. ثم يعضه.. ثم تمدد بالقرب مني.. وصار يداعبني مداعبة خفيفة ما بين فترة وأخرى.. وقد ظهر لي أنه شبعان..

وهو يريد أن يبقى بجانبي يتلذذ بمداعبتي حينا بعد حين حتى يجوع فيأكلني، ثم يتبع رفاقه التي أكلت صيدها ثم ذهبت تبحث عن صيد جديد...

وفي لحظة من لحظات مداعبة هذا الذئب واحتكاك جسمه بجسمي، مر برأسه وأذنيه بالقرب من فمي؛ فلم يكن مني إلا أن أهويت برأسي قليلا ثم عضضت هذا الذئب من أذنه.. ومكنت أسناني وأضراسي في تلك العضة.

استجمع قواه وقفز قفزة قوية.. بكل ما يملك من قوة.. وكان الفرج بالنسبة إلي بسبب هذه القفزة!!

فقد خرج معظم جسمي من الأرض.. وحررت يداي فقطعت الحبال التي كانت تشد بعضها إلى بعض وأطلقت أسناني من أذن الذئب.. فما كان منه إلا أن ذهب يعدو هاربا مرعوبا من هول هذه المفاجأة التي ما كان يتوقعها...

ونجوت من بين رفاقي من هلاك محقق بهذه الطريقة الغريبة التي لا تخطر على بال...

وقال الثالث: أما أنا فقد كنت في سنة من السنوات الماضية أرعى إبلا لي. وكان في الإبل جمل هائج يهدر بين تلك النوق..

ويهجم على أي واحدة يريدها منها..

وكنت قد تركت له حريته كاملة حتى أراد في ساعة من ساعات النهار أن ينزو على ناقة صغيرة رأيت أنها لا تتحمله.. لذلك فإن هذا الجمل الهائج لما عض هذه الناقة من رقبتها وأناخها على الأرض وأراد أن يعلو عليها، هجمتُ عليه بعصا عجراء كانت معي فضربته على رقبته ضربة آلمته وجعلته يفك أسنانه من رقبتها، ثم تنحى عنها قليلا... فأقمت الناقة وأبعدتها عنه..

وبعد فترة وجيزة عاد إلى محاولته السابقة، فهجم على الناقة هجوما عنيفا، فعدوت إليه وضربته بالعجراء مرتين حتى قام عنها فسقتها بعيدا عنه والجمل ينظر إلي نظرات مريبة... وبينما أنا في غفلة من غفلاتي، إذا بي اأسمع عدو الجمل، فالتفت فإذا هو يعدو باتجاهي فعلمت أنه قد حقد علي وهم بالانتقام مني... ولم يكن أمامي في هذه الحالة إلا الهرب لأنني لا أستطيع مقاومته ولا الدفاع عن نفسي أمام هجومه الحاقد!!

فأطلقت ساقي للريح فتبعني، وصرت أعدو وهو يعدو خلفي حتى كاد يدركني.. فالتفت يمينا وشمالا فلم أر ما يمكن أن ألجأ إليه... وعلمت أن الجمل سوف يدركني لا محالة...

وخطرت على بالي فكرة قد يكون فيها بعض النفع فألقيت عباءتي فوق شجرة صغيرة... ثم تسللت من ورائها أحبو حبوا؛ فوصل الجمل

إلى العباءة فظن أني تحتها فبرك عليها بكل ثقله، وجعل يضغط عليها بكل قوته، ويحرك جسمه الثقيل فوقها حتى مزقها شر ممزق...

وكنت في هذه الأثناء جادا في الهرب إلى جبل قريب مني... وتلفت الجمل فرآني أعدو فقام مسرعا وتبعني... وصرت أعدو وهو يعدو خلفي، فوصلت إلى هذا الجبل فصعدته.. فصعد خلفي.. وكان فيه غار ضيق المدخل واسع الداخل... فولجت في هذا الغار....

وجاء الجمل إلى أن وقف على باب هذا الغار.. وحاول أن يدخل رأسه في الغار ليتناولني بأسنانه... فحاولت أن ابتعد عنه وتغلغلت في الغار والجمل يهدر ويملأ فم الغار بصوته المخيف، والزبد يتطاير من فمه ذات اليمين وذات اليسار!! هذا وأنا أحاول أن أبتعد عنه..

وبينما كنت أزداد تعمقا في الغار، نظرت فإذا حية متمددة فيه لا تتحرك.. فرأيت إنني فررت من خطر ووقعت في خطر.. إنني الآن بين نارين لا مفر لي من إحداهما. ورأيت أن أسلم طريقة هي أن أقبع في جانب من جوانب الغار ثم ألزم الهدوء التام، فهذه أسلم طريقة..!!

وهكذا كان؛ وبقي الجمل يهدر على باب الغار ويدخل رأسه فيه وهو يهدر ويزمجر ويحاول أن يدخل رأسه أكثر فأكثر. فأيقظ هديره الحية، فحركت رأسها، ثم حركت جسمها..

وعندما أحس الجمل بالحركة ازداد هياجه وازدادت محاولاته في إدخال رأسه أكثر فأكثر..

وظنت الحية أن الجمل يريدها.. ويحاول تناولها للفتك بها فاهتاجت وتحركت في اتجاه فم الغار.. وعندما أدخل الجمل رأسه ذات مرة قفزت الحية وأنشبت أسنانها في مشافره..

وعندما أحس الجمل بالحية تعض مشافرة جذب رأسه بقوة.. وكانت الحية قد تعلقت به فأخرجها الجمل من الغار، وهي لا تنفك متعلقة بمشافره. واشتد الصراع بين الحية والجمل، هو يحملها ويضرب بها الأرض.. وهي متعلقة فيه بكل قوتها..

واستمر الصراع لحظات استطاع الجمل فيها أن يطلق مشافره من أسنان الحية، واستطاع أن يمزق جسمها شر ممزق.. إلا أنه ما كاد ينتهي إلى هذه النتيجة الحاسمة حتى أحس بالسم يسري في جسمه ويصل إلى قلبه فيفقده الحركة.. فيستلقي على الأرض فاقد الحياة..

ويستمر الرجل في حديثه هذا فيقول:

- وخرجت من الغار وشاهدت العدوين اللدودين وكل واحد منهما ملقى على الأرض.. فحمدت الله على هذه النتائج السارة التي لعبت فيها الصدف والأقدار دورا بارزا هو سبب نجاتي من موت محقق..!!

أسطورة شجاعة إعرابي

كان يا ما كان في قديم العصر والزمان يا مستمعيّ الكرام سلطان قد تجمعت له جميع أسباب السعادة من جميع الجهات. ولم يكن يشغل باله إلا أنه لا يولد له، حتى ظن في أنه عقيم. وكان دائم القلق من هذه الناحية، لأنه يريد بنين وبنات يخلدون اسمه، ويفرح بفرحتهم ويتمتع بعاطفة الأبوة التي هي ولا شك عاطفة البشر لابد من إشباعها..

استشار هذا السلطان الأطباء، وتعاطى مختلف الأدوية. أخيرا رزق ابنة، ففرح بها واستبشر؛ لقد كان يريدها ولدا ذكرا لكنها صارت أنثى. لا يهمه ذلك أن ينقشع عن نفسه كابوس العقم ويشبع عاطفة الأبوة لديه، ولو بأنثى. لعل الأيام الآتية تخبئ له أولادا ذكورا!..

إهتم السلطان بتربية ابنته وتعليمها والمحافظة على صحتها وعلى حياتها ومستقبلها. وكانت هذه الابنة تكبر ويكبر معها في نفس السلطان الحب والحنان والخوف عليها من الإنس والجان. وكبرت البنت، وصار والدها من حبه لها وخوفه عليها يجعلها ترافقه في السفر والتنقال. وقد أعد لها صندوقا جميلا وقويا، فلا ينام إلا بعد أن يجعلها في هذه الصندوق، ثم يغلق عليها ويجعل المفتاح في جيبه الخاص..

هذا مع الحراسة الشديدة حوالي المكان الذي يكون فيه هذا الصندوق.

واستمر السلطان على هذه الطريقة، وكبرت الفتاة وبلغت مبلغ

النساء. إلا أن والدها السلطان كان كلما كبرت الفتاة كبر حبه لها، وازدادت مخاوفه عليها. وألفت الفتاة هذه الشفقة الزائدة من أبيها كما ألفت الصندوق الذي يقفل عليها فيه. فصارت هذه الأمور عندها شيئا عاديا لا ضير فيه ولا اعتراض عليه..

وفي سنة من السنوات عزم السلطان على الحج، فأعدت العدة وسارت قافلة السلطان في الصحراء متجهة إلى بيت الله الحرام..

وكان السلطان قد أعد لابنته خيمة خاصة هي بجوار خيمته.. فإذا حلوا مكانا كانت خيمة ابنته هي أقرب الخيام إليه. كما أنه جعل لها حراسا خاصين هم المسؤولون أمامه عن المحافظة على حياتها وهم المسؤولون عن جميع شؤونها..

وحل الموكب السلطاني في يوم من الأيام قرب مورد ماء في الصحراء. وجاء الليل وأراد السلطان أن ينام، فوضع ابنته في صندوقها الخاص واقفل عليها وأخذ المفتاح في جيبه. وتفقد الحرس فرأى أن كل إنسان منهم في مكانه المناسب. ونام السلطان قرير العين ناعم البال.

وكان هناك لصّ يراقب حركات السلطان ويراقب حركات الحرس ليتسلل إلى مضارب السلطان في غفلة من غفلات الحراس، فلعله يجد خزانة السلطان فيأخذها ويهرب بها في مجاهل الصحراء، فيستغني بها بقية أيام حياته، ويترك حياة اللصوصية التي تكلفه الكثير من المشاق، وتعرض حياته لشتى الأخطار!!..

وجاء آخر الليل. تساقط الحراس واحدا فواحداً وراحوا جميعا في نوم عميق؛ وهذا اللص يراقب أوضاعهم. فلما سنحت له الفرصة، انتهزها بسرعة فائقة فتسلل إلى تلك الخيمة التى رأى السلطان مهتما

بها. محتاطا في حراستها كل الحيطة. ودخلها، وبحث فيها فلم يجد إلا هذا الصندوق. وأراد أن يكسره، لكنه خشي أن ينشأ عن الكسر صوت يوقظ النائمين أو ينبه الغافلين!!

لهذا رأى أفضل طريق يسلكه هو حمل هذا الصندوق والهرب به، وأنه سوف يجد فيه شيئا ثمينا، لأن هذه الحراسة المشددة لن تكون إلا على شيء ثمين!!

حمل الصندوق وذهب به إلى مغارة خفية في جبل قريب من مورد الماء.

وأَدخل الصندوق في المغارة، وحاول فتحه محاولة جدية، فانفتح وكشف غطاءه وهو يأمل أن يفاجأ بمال وفير؛ ذهب أو فضة أو أحجار كريمة.

وما أشد دهشته عندما فوجئ بفتاة جميلة تنهض من وسط هذا الصندوق، وهي خائفة ومرعوبة. فهدَّأ هذا اللص من روعها، وقال لها:

- إنه لا خوف عليك فاهدأي وقري عينا.

ولكن كيف تهدأ وهي لا تعلم ما هو مصيرها؟ وفكر اللص قليلا؛ إنه لا مطمع له في هذه الفتاة، فهو يريد مالا: ذهبا أو فضة أو جواهر. ولكن هذا حظه؛ لقد رماه حظه إلى شيء لا مطمع له فيه، وجعل يقلب الأمر على وجوهه بينه وبين نفسه. هل يقتل هذه الفتاة ويرتاح منها؟ أم يتركها تهيم على وجهها في الصحراء حتى تأكلها وحوشها، أو يقتلها الجوع والظمأ؟ أم يعيدها من حيث أخذها؟

فكر في هذه الأمور جميعا. أخيرا راودته نفسه الأمارة بالسوء أن يفعل

الفاحشة في هذه الفتاة. وقالت له نفسه، كيف تشقى وتتعب ثم تخرج من عيد المولد بلا حمص؟

اقتنع بأن يفعل الفاحشة. واقترب من الفتاة فقرأت في نظراته ما ينوي عليه واستعدت للدفاع عن نفسها، مع أنه لا جدوى من هذا الدفاع. إلا أنه شيء لابد منه، فليس من السهل أن يستسلم المرء هكذا وبلا بذل أي جهد.

إقترب هذا اللص من الفتاة وجعل يداعبها ويحاول أن يقبلها، وهي تتباعد عنه وتحاول أن تصد وجهه عن وجهها بمختلف الوسائل. وقبض اللص عليها وشدد قبضته، وهي تدافع دفاع المستميت. وكاد أن ينتصر عليها لولا أن الله لطف بها حيث خرج عليهما أسد من إحدى مغارات الجبل، وجاء متجها إليهما، يمشي مشية الواثق من نفسه، الفاخر بقوته، الواثق بالنصر.

ونهض الرجل مسرعا وامتشق الحسام، ومشى إلى الأسد مشية البطل الصنديد. وأقعى الأسد وكشر عن أنيابه وزأر فتجاوبت أصداء زئيره بين الجبال. وتحفز الأسد للوثوب، وصاحبنا اللص أمامه وجها لوجه، يتقدم إليه تقدما منتظما ليس فيه تسرع الطائشين ولا بطء الخائفين. وقرب اللص من الأسد. فجمع الأسد؛ نفسه ثم وثب إلى اللص، فاستقبله اللص بطرف السيف فطعنه طعنة أوقفته في مكانه. ثم في أسرع من لمح البصر رفع سيفه إلى أعلى ثم أهوى به على الأسد يشبعه طعنا. وتركه ملقى على الأرض بعد أن مسح بقايا الدم العالقة بالسيف في لبدة الأسد.

أعاد السيف إلى غمده وعاد إلى الفتاة وهو هادئ الأعصاب رابط الجأش، كأنه لم ينازل أسدا ولم يصارع وحشا مخيفا.

عاد اللص إلى مداعبة الفتاة وهو بصورة عادية؛ فكل شيء فيه مستعد. دافعت الفتاة عن نفسها وكاد أن ينفد صبر اللص فيأخذها بالقوة. إلا أنه في هذه الأثناء طلع عليهما نمرٌ من بين الصخور، وجاء متجها إليهما. فقام اللص مسرعا وامتشق الحسام، ومشى إلى النمر. وصار النمر يتقدم إلى اللص، واللص يتقدم إلى النمر، إلى أن التقيا في منتصف الطريق. وعندما تقابلا توقف كل واحد منهما ليرى أين نقطة الضعف في خصمه ليهاجمه من طريقها، ولكن كل واحد من الاثنين كان حذرا يقظا مستعدا للنزال.

رأى النمر أنه ليس أمامه إلا الهجوم الخاطف، فلعل فيه ما يحقق له النصر. ودار النمر حول اللص، لكنَّ اللص كان يقظا واعيا مدركا لخطورة الموقف. ورأى النمر أنه لابد من المغامرة وبدءِ المعركة، ولتكن النتائج ما تكون. فقفز إلى اللص قفزة مفاجئة، كاد فيها أن يصيب مقتلا من خصمه لولا أن اللص تقهقر قليلا. ثم طعن النمر طعنة جعلت توازنه يختل. ثم في هذه الأثناء رفع اللص سيفه فأهوى به على النمر فخر صريعا على الأرض. ومسح اللص بقايا دم النمر في جلده ثم أغمد سيفه.

عاد إلى الفتاة التي هالتها شجاعة هذا اللص وقوة ساعده ورباطة جأشه. لقد عاد إليها هادئ الأعصاب طبيعي الأنفاس وصار يداعبها ويحاول أن ينال منها، لكنها كانت تدافع عن نفسها بحسب إمكانياتها. وضاق اللص ذرعا بهذه الممانعة من الفتاة وهم أن ينال منها قسرا.

لكن في هذه الأثناء خرج عليهما ذئب عظيم من بين تلك الجبال توازنه وجاء إليهما يمشي مشيا لا هو بالسريع ولا بالبطيء. وقام اللص

وامتشق حسامه، واستقبل القادم الجديد في منتصف الطريق. وعندما قرب كل واحد منهما من الآخر توقفا. ليعرف كل واحد من الخصمين خصمه، وليرى مدى استعداده للمعركة، وما هو السلاح الذي سيقابله به.

كشَّر الذئب عن أنيابه وتحفز للوثبة، واللص واقف أمامه منتظرا من خصمه أن يبدأ المعركة ليوجهها إلى صالحه. وهجم الذئب هجمة عنيفة، استقبلها اللص بسيفه، فأوقف الذئب. ثم رفع سيفه بسرعة البرق الخاطف فأهوى به على الذئب فأرداه قليلا، فسقط صريعا بجانب الأسد والنمر. ومسح بقايا دمه في جلده ثم أعاد السيف إلى غمده.

ورجع إلى الفتاة، لكنه في هذه المرة لم يذهب إليها للمحاولة في نيلها، بل توقف قبل وصوله إليها مفكرا في أمر هذه الفتاة. إن هناك سرا إلهيا يحول بينه وبين الوصول إليها؛ فلتمت إذاً هذه الشهوة البهيمية وليتعفف، فلعل الله يعوضه عما فاته في هذه المرة ما هو خير منها في أوقات أخرى.

صمم كذلك على أن يعيد الفتاة إلى حيث أخذها؛ فوضعها في صندوقها وأقفل عليها، وأعاد كل شيء إلى ما كان عليه. ثم حمل الصندوق فوق ظهره. وجاء به يمشي مترفقا حذرا، خوفا من أن يستيقظ أحد الحراس. واتجه إلى الخيمة التي أخذ منها الصندوق فوصل إليها بأمان واطمئنان، ووضع الصندوق في مكانه المعهود ثم انصرف دون أن ينال مكسبا من مغامرته هذه.

جاء الصباح واستيقظ السلطان، وجاء إلى خيمة ابنته ففتح الصندوق ولم يظهر للسلطان أي إشارة تدل على ما حدث في الليل، ومرت هذه الحادثة بسلام. وأتم السلطان حجه ثم عاد إلى عاصمة ملكه سالما.

كبرت الفتاة وبلغت سن الزواج. وتقدم إلى السلطان أحد أبناء عمها يخطبها ويطلب القرب من السلطان بهذه الوسيلة، التي سوف تكون نورا على نور. ورحب السلطان بهذه الخطبة ووافق عليها. وأمر حالا بأن يُهيأ لابنته وابن عمها قصرا يتناسب مع مكانتهما في الأسرة المالكة. وهُيِّئ القصر وهُيِّئت الاستعدادات اللازمة للزواج، وزفت العروس إلى ابن عمها في احتفالات بهيجة وفرحة غامرة.

ودخل على ابنة عمه التي لم تره ولم يرها قبل هذه المَّرة. كما أنّ والدها لم يستشرها في هذا الزواج. ولو استشارها للاذت بالصمت وتركت حرية التصرف لوالدها. المهم أنه دخل عليها في ليلة الزفاف شاب يتمايل في مشيته، ناعم العود، مترف الحركة لا يكاد يتصرف إلا بحساب، فكلامه بحساب وقيامه بحساب، والتفاته بحساب.

المهم أن هذا الشاب قد بلغ في الأناقة ذروتها وفي النعومة والرقة منتهاها. وقرب الشاب من زوجته وجعل يداعبها ويقبلها ويتحسس بعض المواضع من جسمها. والخلاصة أنه كان منسجما معها كل الانسجام. وفي لحظة من لحظات السعادة الغامرة التي تخيم على الزوجين، قفزت قطة على أحد الأواني الموضوعة في مكان عال فسقط هذا الإناء، وصار لسقوطه صوت مزعج بدد السكون الذي كان يخيم على الزوجين. فانتصب الزوج واقفا منزعجا، وصار يتطلع إلى مصدر الصوت بانفعال وتأثر ورعب.

أخيرًا علم سبب مصدر هذا الصوت، فجلس وقلبه لا يزال يخفق وأنفاسه لا تزال تتلاحق ولونه لا يزال كاسفا؛ فقد هربت الدماء من وجهه من آثار الرعب الذي سببه له سقوط ذلك الإناء.

وفي هذه اللحظات تذكرت الفتاة ذلك اللص الذي اختطفها في الصحراء وتعرض لأخطار عظيمة، فخرج منها وهو هادئ الأعصاب رابط الجأش. وعملت في ذهنها مقارنة سريعة بين صورة الماضي وصورة الحاضر، فلم تملك نفسها من أن ضحكت ضحكة مكتومة حاولت إخفاءها، لكن ابن عمها كان رقيق المشاعر، حساسا.

لاحظ الزوج هذه الابتسامة وفهم حالا منها أن عروسه تهزأ به وتسخر منه، فتأثر تأثرًا عارما أفقده صوابه، فلم يكن منه إلا أن نهض من مكانه ولبس ثيابه على عجل، ثم خرج من غرفة الزوجة وتركها وحيدة ونام في مكان آخر.

فلما جاء الصباح ذهب هذا الشاب إلى السلطان وسلم عليه، ثم طلب الخلوة به لأن لديه أمرا يرى أن يسر به إلى السلطان.

فقام السلطان وأخذ يد ابن أخيه، ودخل هو وإياه وأقفلا الباب على نفسيهما. فقال الشاب: يا عظمة السلطان إنني أشكو إليك زوجتي العزيزة؛ فقد سخرت مني في ليلة الزواج، وتصرفت تصرفا غير لائق حتى أغضبتني وجعلتني أترك لها غرفتها وأنام منفردا.

غضب السلطان على ابنته، وقال له: إن عليّ أن أؤدبها الأدب الرادع، وأجعلها تعرف قدرك وتعتذر لك، وتعدك أن لا تعود لمثلها. فطابت نفس الأمير وهدأ باله، وعلم أن السلطان سوف يؤدب هذه الأميرة التي تسخر من زوجها في ليلة الزفاف.

ودخل السلطان إلى جناح الحريم، ودخل غرفة منفردة وطلب حضور ابنته حالا.

فأحست الأميرة بأن في الأفق عاصفة وأن هذه العاصفة تهدد شرفها وكرامتها. واستعدت الفتاة للدخول في المعركة، لكنها معركة غير متكافئة؛ فهناك جانب قوي يأمر فيطاع، ويتصرف فيبرر الناس تصرفه مهما كان جائرا أو منحرفا. أما الجانب الآخر في المعركة فهو فتاة ضعيفة تقيدها قيود المجتمع، وتشل حركتها التقاليد الموروثة عن الآباء والأجداد.

دخلت الفتاة على والدها فرأته يكاد يتميز غيظا وغضبا، فسلمت عليه سلام الخائف الضعيف الذي لا يملك إلا سلاح اللطف والوداعة والمسالمة، فرد عليها والدها ردا جافا وأمرها بالجلوس أمامه، وقال لها:

– كيف تسخرين من زوجك في ليلة الزواج؟ هل هذا التصرف من الآداب؟ هل يليق بابنة السلطان أن تسخر من ابن عمها؟ ثم أن الاستهزاء بالناس والسخرية بهم شيء لا يليق ولا يشرف، بل هو يدل على الطيش والنزق ونقصان العقل وسوء التربية، ولقد أوقفتِنا بتصرفك المشين في موقف حرج جدًّا لا ندري كيف سنخرج منه.

فقالت الفتاة: يا والدي العزيز لقد فهمتَ القضية من جانب واحد، ولعلك لو فهمتها من الجانب الآخر لاستطعت أن تحكم فيها حكما عادلا بعيدا عن الاندفاع أو التحيز لجانب دون جانب.

فقال السلطان: تكلمي؛ اشرحي لي الوضع كلَّه لأعرف من أين دخل الشر بينكما، ولأعرف من المتسبب فيه، ومن المعتدي ومن المعتدى عليه.

فقالت: قبل كل شيء أطلبٍ من عظمة السلطان أن يمنحني الأمان وأن لا يتسرع في الحكم حتى يحكِّم عقله لا عاطفته. فقال السلطان: لك الأمان.

فقالت: يا والدي العزيز، لا شك أن عظمتكم تذكرون السنة التي أديتم فيها فريضة الحج وكنت برفقتكم.

فقال: نعم إنني أذكر ذلك.

فقالت الفتاة: إننا كنا في الليلة الفلانية، في المكان الفلاني؛ وعندما أردتَ أن تنام دخلتُ أنا في الصندوق وأغلقته عليّ وأخذت المفتاح.

قال السلطان: نعم أذكر ذلك.

قالت الفتاة: فلم أشعر آخر الليل إلا بالصندوق ينقل من مكان إلى مكان. وظننت أنهم الخدم والحراس ينظفون ويرتبون أثاث الخيمة. لكنني لم أشعر بعد وقت قصير إلا بالصندوق يفتح. وظننت بادئ ذي بدء أن الذي يفتحه هو أنت، لأنني ما كنت أتصور أن أي إنسان يجرأ على فتح صندوق أنت أغلقته. إلا أنني فوجئت بمنظر أعرابي لصّ، هو الذي حمل الصندوق. وإذا بي أجدني في وسط غار لا أرى منه إلا جبالا ووديانا وصحاري لا أول لها ولا آخر.

في هذه الحالة داخلني الرعب، وتخوفت على نفسي وصممت على الكفاح والدفاع حتى لو كلفني ذلك حياتي؛ فما قيمتي إذا نال مني هذا الأعرابي. إن موتي في هذه الحالة خير من حياتي.

اقترب الأعرابي مني فدفعته عن نفسي، لكنه كان أقوى مني وكاد أن يسيطر عليّ لولا أن الله لطف بي، فخرج أسدٌ جاء يمشي متجها إلينا، فقام هذا الأعرابي وسل سيفه ثم قابل الأسد في منتصف الطريق، فهجم الأسد على هذا الأعرابي، ولكن الأعرابي طعنه بالسيف. فوقف الأسد في مكانه ثم في مثل لمح البصر رفع يده بالسيف فأهوى به على الأسد

فقطعه نصفين. وخر الأسد صريعا على الأرض، فمسح الأعرابي بقايا دم الأسد التي علقت بالسيف في لبدته، ثم أعاده إلى غمده وعاد إليّ مكررا محاولاته للنيل مني. وكان بعد رجوعه من قتل الأسد هادئ الأعصاب مطمئن البال كأنه لم ينازل سيد الوحوش.

وقرب الأعرابي مني فدافعت عن نفسي، وعندما شدد قبضته علي خرج علينا نمر شرس جاء يعدو إلينا مسرعا. فقام الأعرابي إلى سيفه وسله من غمده وقابل النمر. فقفز النمر على الأعرابي. ولكن الأعرابي صد قفزته بالسيف، فوقف النمر حيث كان، ثم رفع الأعرابي يده بالسيف كالبرق الخاطف وأهوى به على النمر فأرداه قتيلا، وخرّ صريعا على الأرض. فمسح بقايا الدم العالقة بسيفه في جلد النمر ثم أعاده إلى غمده.

وعاد إليّ مكررا محاولاته وكنت أقاومه وأمانعه، لعل فرجًا يأتي من الله من حيث لا أحتسب فينقذني من هذه الورطة التي رمتني فيها الأقدار. وشدد القبضة عليّ. وكاد أن ينال مني ما يريد لولا أن الله لطف بي فخرج ذئبٌ جاء يعدو مسرعا ومتجها إلينا. فقام الأعرابي أيضا مسرعا، وسل سيفه من غمده وقابل الذئب في ميدان المعركة. وهجم الذئب على هذا الأعرابي فاستقبله بالسيف وأوقفه في مكانه، ثم رفع السيف وأهوى به عليه فأرداه قتيلا، فخر صريعا على الأرض بجانب تلك الوحوش التي سبقته.

عاد الأعرابي وقد رأيت في وجهه آثار التوبة والندم. وما كان منه إلا أن أعادني إلى الصندوق، ثم أغلقه كما كان ثم حمله فوق ظهره وأعاده إلى حيث كان.

فيا سيدي الوالد لقد دخل علي ابن عمي فارتعد من صوت إناء سقط فانكسر، وتتابعت أنفاسه وأسرعت دقات قلبه وامتقع لونه، وصار في حالة يرثى لها. وفي هذه اللحظة جاءت في ذاكرتي صورة ذلك الأعرابي، وقارنت بين حالة ابن عمي وحالة الأعرابي، فلم أتمالك نفسي أن تبسمت، وحاولت إخفاء ابتسامتي، لكن ابن عمي كان حساسًا، فلاحظ هذه الابتسامة وظنها هزءا به وسخرية، بينما أنا لم أقصد بها شيئا من هذا، إنما أرغمني عليها التفاوت الشاسع بين صورة ابن عمي في حالة الخوف، وصورة ذلك الأعرابي اللصّ، الجريء، الشجاع.

هذه خلاصة ما جرى. فإن كنت يا سيدي مخطئة فإنني مستعدة لتحمل العقوبة، وإن كنت معذورة، فمولاي السلطان سوف يعذرني وينصفني من ابن عمي الذي خلق من الحبة قبة وأهانني في ليلة زفافي إليه، وخرج من غرفتي فتركني وحيدة، تتنازعني الهواجس وأحسب ألف حساب لا لرضا ابن عمي ولكن لرضا مولاي السلطان.

وعندما سمع السلطان ما قالته ابنته، تعجب أشد العجب. وزال عنه غضبه، وقال: يا بنيتي أنت معذورة كل العذر. إنه شيء مضحك، بل هو يدعو إلى السخرية والرثاء. والآن ماذا تريدين يا بنيتي؟

- هل تريدين ابن عمك؟ أم تريدين هذا الأعرابيَّ اللصّ.

فقالت ابنة السلطان: إنه ليس لي خيار في هذا الأمر، بل الخيار والأمر والنهي لعظمة السلطان، لكنني أحب أن أقول، إنني أرغب في الرجل رجولته وصموده أمام الأحداث. والذي لا يكون كذلك فإنني أسميه رجلا ولكن بدون رجولة.

والمرأة يا مولاي السلطان تريد في الرجل رجولته قبل كل شيء؛ فهي

شيء أساسي تأتي بعده أمور أخرى قد يُستغنى عن بعضها.

فقال السلطان: إنني أوافقك على كلامك، وقد فهمت مرادك، وإنني سوف أزوجك بهذا الأعرابي، فهل تقبلين؟

فسكتت ابنة السلطان حياء وخفرا، وقالت معلقة على هذا العرض: ولكن يا مولاي السلطان كيف تجده وكيف تعرفه؟

فقال السلطان: إن لي طريقتي الخاصة في معرفة الرجال، وسوف أحضره إليك بعد فترة وجيزة من الزمان.

وبعث السلطان في اليوم الثاني إلى تلك المنطقة التي سرق فيها اللص ابنته، وأمر مناديا ينادي فيها بأن السلطان سوف يقيم حفلة في عاصمة ملكه لسكان هذه المنطقة. وحدد اليوم والشهر الذي ستقام فيه هذه الحفلة، وأن الهدف منها انتخاب أمير للمنطقة. وأن عظمة السلطان سوف يهيئ الرواحل والطعام والشراب لأبناء المنطقة منذ مغادرتهم لمنطقتهم حتى يعودوا إليها.

نادى المنادي بأمر السلطان هذا. وسرى الخبر بين الناس وبدأوا يستعدون لحضور هذا الحفل، كما بدأ كل واحد منهم يؤلف حوله الأنصار لانتخابه. وتوافد أبناء المنطقة على العاصمة. وضربت لهم الخيام وأقيمت لهم المآدب، واستُقبلوا في عاصمة مملكتهم استقبالا لا نظير له.

وجاء موعد حفلة السلطان لسكان المنطقة، وهُيِّئت الموائد وتمت جميع الاستعدادات. وكان السلطان قد أمر بترتيب الأمر لمعرفة الأعرابي اللصّ؛ فقد هُيِّئ طريق واحد إلى مكان المائدة التى دعا إليها كبار رجال الدولة وتجار البلاد.

وجاء موعد الحفل، وكان الطريق إليه واحدا. وجُعل في نهاية الطريق إلى المائدة أسدٌ رابضٌ بجانب هذا الطريق. وجُعل طريق فرعيّ آخر إلى المائدة يبدأ قبل مكان الأسد بعدة خطوات. إلا أن هذا الطريق الفرعي ضيقٌ وملتوٍ وفيه الكثير من العوائق والصعوبات.

فكان المدعوون يأتون إلى مكان الحفل واحدا إثر واحد. فإذا أقبلوا على الأسد، توقفوا والتمسوا طريقا لا يمر بهم على الأسد فيسلكون هذا الطريق الضيق المتعرج المليء بالحفر والمضايقات. واستمر المدعوون هكذا كل واحد منهم يرى الأسد يبحث عن طريق آخر غير ذلك الطريق.

وجاء أحد الأعراب فاستمر في هذا الطريق الواسع المستقيم. ورأى الأسد في نهايته فلم يتوقف، بل استمر في سيره حتى حاذى الأسد، فضرب بيده على لبدة الأسد، فكشر الأسد عن أنيابه تكشيرة هادئة هي بمثابة التحية. وحرك ذنبه دليلا على التودد والمسالمة. وكان هذا كله بمرأى من السلطان وابنته. فقال لها: هل هو هذا؟ فقالت ابنة السلطان: نعم يا مولاي، إنه هو بعينه وشحمه.

وانتهى الاحتفال، وتوصل السلطان إلى مقصوده، فأرسل إلى هذا الرجل رسولا يسأله عن اسمه ولقبه ونسبه وآبائه وأجداده. فأخبره الأعرابي بكل ما سأل عنه.

وجاء الرسول فأخبر السلطان بكل المعلومات التي عرفها عن الرجل. فاستدعاه السلطان فحضر إلى مجلسه.

فأدنى السلطان مكانه وحدَّثه وآنسه بالحديث وقال له: لقد علمت من أحد المقربين أن جدا من أجدادك كان له مواقف حميدة مع آبائي وأجدادي عند تأسيس مملكتهم هذه.

وإنني من باب الوفاء وعرفان الجميل أريد أن أوليك إمارة المنطقة التي أنت فيها. وسوف أوعز لسكان المنطقة أن يختاروك لهذا المركز فأوليك بناء على اختيارهم. كما أنني أعدك لأمور كبار سوف تعلم بها في حينها.

فشكر هذا الأعرابي السلطان على كريم عطفه ووفائه لمن كانت لهم سابقة طيبة في تأسيس هذه المملكة.

وهكذا صار؛ فقد أوعز السلطان إلى سكان المنطقة بأن ينتخبوا هذا الأعرابي فانتخب وتولى الإمارة. وعظم شأنه وارتفعت مكانته، لا في منطقته فحسب بل لدى جميع رجال الدولة وسكان المملكة.

واستدعاه السلطان إلى حضرته، وقال له: لقد سمعنا عن سداد رأيك وحسن تدبيرك وصلابتك في الحق. لهذا فإنني آمر بأن تجعل لك نائبا في المنطقة يدير شؤونها ويرعى مصالح أهلها، وأن تنتقل أنت إلى العاصمة لتكون بالقرب مني، حتى أستشيرك في بعض شؤون المملكة التي لابد فيها من رأي الناصح الأمين، لتسير الأمور سيرا نافعا ومفيدا ومستقيما.

فلبى الأعرابي طلب السلطان وأناب عنه في المنطقة من يقوم بشؤونها من أبناء عمه. وانتقل إلى عاصمة المملكة، فأكرمه السلطان وأنزله قصرا ممتازا بخدمه وحشمه وجميع ما يحتاجه ساكنه. ثم بعد فترة أوعز السلطان إلى أحد خاصته بأن يقول لهذا الأعرابي: أخطب ابنة السلطان فإن له بنتا في سن الزواج. والسلطان يعزك ويعلي مكانك ولا شك أنه سوف يجيب طلبك فتكون بهذا أضفت شرف القرب من السلطان إلى الثقة المتينة التي يوليك إياها.

فقال هذا الأعرابي: وهل تعتقد أن السلطان يزوجني ابنته إذا خطبتها؟ فقال الناصح: إنني لا أشك في ذلك. فقد سمعت أن السلطان يثني عليك في كل مناسبة ويعدُّك لأمور جسام في شؤون مملكته. ولاشك أنه لن يرفض طلبك الزواج من ابنته.

إقتنع هذا الأعرابي بهذه الفكرة وصار يبني على تحقيقها آمالا كبارا. وفي خلوة من خلوات الأعرابي بالسلطان قال له الأعرابي:

- مولاي السلطان إن لي رغبة في كلمة، لكنني لخطورة هذه الكلمة ما زلت أقدم رجلا وأؤخر أخرى.

فقال له السلطان مشجعا ومرحبا.

قل لي أي كلمة تريدها، فإن كان طلبا لك حققته؛ وإن كان رأيا في صالح مملكتنا نفذته. فأنت عندنا في المكان الأرفع.

فقال: يا مولاي، إنني أخشى أن تفسر كلمتي التي سوف أقولها بأنها تعد لحدودي وتجاوز لمستواي.

فقال السلطان لهذا الأعرابي:

- إنني أعتبرك كفرد من الأسرة الحاكمة، فلا فرق عندي بينك وبين أي فرد من أفراد أسرتي الحاكمة. فقل ما لديك ولا تخجل، فأنت عندنا في الموضع الذي لا تردُّ لك فيه كلمة.

وهنا تشجع الأعرابي ووضح له الطريق، فالسلطان يقول إنه يعتبره فردا من أفراد الأسرة الحاكمة، فلا مانع إذاً من أن يزوجه ابنته. وقال الأعرابي لعظمة السلطان: إنني أريد القرب منكم، والتشرف بالزواج

بفتاة من الأسرة الحاكمة. ولم يقل بادئ ذي بدء بابنتكم حتى يرى وقع هذه الجرأة من نفس السلطان.

فقال السلطان: لقد قلت لك أنني أعتبرك فردا من أفراد الأسرة الحاكمة، فأي فتاة في الأسرة تعجبك فاخطبها فإنني سوف أزوجك بها.

بعد هذا الكلام الصريح تجرأ الأعرابي وقال: إنني أريد القرب من عظمة السلطان شخصيًّا وأخطب منه ابنته.

فرحب السلطان بهذه الخطبة وأبدى سرورا ظاهرا، إلا أنه قال: إن الأمر راجع للفتاة، وإنه سوف يخبرها ويرى رأيها.

وانصرف الأعرابي من عند السلطان وهو واثق كل الثقة بأن طلبه مجاب وأن خطبته سوف تتحقق، وأن السلطان إذا رغب أمرا نفذه. وكانت ابنة السلطان قد طُلقت من ابن عمها حيث دام الهجر بين الطرفين فترة طويلة من الزمن، فرغب ابن عم الملك أن يتزوج واستشار السلطان فقال له السلطان: إنني أوافق على زواجك على شرط أن تطلق ابنتي، فطلقها.

وفي اليوم التالي من الخطبة طلب السلطان ذلك الأعرابي الخاطب وأخبره بالموافقة على زواجه. وحدد يوم الخطبة وليلة الزفاف بعروسته. وبدأت الاستعدادات لحفل الزواج على قدم وساق.

وجاءت ليلة الزواج فزفت العروس إلى زوجها، الذي فوجئ بأنها هي تلك الفتاة التي سرقها ثم أعادها إلى مكانها. وتعارف الزوجان واندمجا في حياة كلها حب ووئام ووفاق.

ورفرف كيوبيد بجناحيه الرقيقين على عش الزوجية السعيد ونال الأعرابي ثمن شجاعته.

أسطورة الأميرة الهاربة

تمايلت الشمس نحو المغيب وراء الأفق البعيد، وبدأت تجر أذيالها وينشر الليل رداءَه الأسود على القرية الهادئة النائمة في خشوع بين أحضان الطبيعة الرائعة، والتف الأطفال حول جدتهم التي راحت تقص عليهم حكاياتها.

كان يا ما كان في سالف العصر والأوان ملك مجوسي عظيم. وكان لديه زوجة واحدة، إلا أنه لم يرزق منها بأطفال لعدة سنوات. وقلق الملك وخشي أن يكون العقم منه، كما قلقت الملكة وخافت أن يكون العقم منها.

وصار كل واحد منهما يعالج نفسه على طريقته الخاصة؛ فالملكة تلجأ إلى العجائز وتأخذ بتجاربهن وتستعمل وصفاتهن. والملك يستشير الأطباء ويستعمل ما يشيرون به من دواء.

وفي يوم من الأيام جاءت الملكة إلى الملك وهي فرحة مستبشرة، وقالت له: إنني أزف إليك بشرى سارة.

فقال الملك بشوق ولهفة: وما هي؟

فقالت: إنني حامل؛ إنني أحس بأعراض الحمل.

ففرح الملك بذلك فرحا شديدا؛ وكيف لا يفرح وقد انتفت عنه صفة العقم، كما أنه سوف يرزق مولودا ذكرا أو أنثى لا فرق بينهما، وسوف

يكون هذا المولود، سواء كان ذكرا أو أنثى، مخلّدًا لاسمه ووارثا لعرشه وخليفة له على شؤون أسرته.

وأنجبت الملكة أنثى، ففرح بها الملك كما فرحت بها الملكة. وصارت هذه المولودة موضع رعاية والديها وعنايتهما حتى صارت تمشي على أقدامها. وأراد الله على والدتها الملكة فتوفيت.

وبقيت الفتاة في رعاية والدها الملك. فجاء لها بالمربيات والمرشدات. فنبتت نباتا طيبا، وبدأت بوادر الحسن والجمال والكمال تظهر على محياها. وعندما تكامل شبابها وبلغت العشرين من عمرها، كانت قد أخذت شهرة عظيمة بأنها أجمل فتاة في مملكة والدها.

وكان والدها قد جعل لها جناحا خاصا من القصر تسكن فيه هي وحاضنتها وخادمتها الخاصة. وكان الملك قد خصص وقتا معينا يزور فيه ابنته ويسألها عن أحوالها. ويطمئن فيه على صحتها.

وأحب هذا الملك ابنته حبا شديدا تعدى الحدود المعقولة بين والد وابنته إلى الحب الذي لابد أن ينتهي إلى زواج. وكتم الوالد هذا الحبَّ فترة من الزمن، لكنه كان حبًّا طاغيا عنيفا، لم يستطع الملك أن يكتمه آخر الأمر عن ابنته، فصارحها به وأخبرها أنه يريد أن يتزوجها. وكانت ديانة المجوس تجيز مثل هذا الزواج، ولا ترى فيه أي عيب أو دنس أو مغمز.

لهذا فقد صارح الملك أخيرا ابنته بأنه يحبها، وبأنه يريد الزواج منها.

خجلت الفتاة ودهشت، بل صدمت صدمة عنيفة بهذا الحب وهذه الرغبة من والدها. ولم تستطع أن تجيب على عرض والدها أو طلبه بلا

ولا نعم. إنها لزمت الصمت واحمرت خدودها من الخجل وانكمشت في ثيابها من هول ما سمعت.

وشعر الملك بمدى الخجل الذي أصيبت به ابنته، فاستأذن وخرج من غرفتها تاركا لها المجال لتفكر في الأمر. إلا أنه كان مصمما على الزواج بها، فهي أجمل فتاة في مملكته، وهو أشرف إنسان في تلك المملكة وأرفعهم منزلة، فهو أحق بهذا الجمال النادر وأولى به من غيره. كما أنه من جهة أخرى هو الذي رعى هذا الجمال ورباه ونماه إلى أن بلغ إلى منتهاه. فهو منه وله. وهو كما يقول المثل: "جحا أولى بلحم ثوره".

هذا هو تفكير الملك.

أما ابنته فإن لها تفكيرا آخر يغاير هذا التفكير كل المغايرة، فهي تريد أباها أبا، ولا تريده زوجا. إنها تحب والدها، لكنه حب يغاير الحب الذي يشعر به والدها. إلا أن والدها لم يستشرها ولم يبحث معها عن رغبتها.

لهذا كله فزعت الفتاة والتمست مخرجا من هذه الورطة فلم تجد إلا طريقا واحدا هو الأمل الوحيد الذي تتعلق به، وهو أمير شاب من أبناء عمها يعرفها وتعرفه ويراسلها وتراسله ويبادلها الهدايا وتبادله هي كذلك. إن هذا الأمير هو أملها الوحيد في الخروج من هذه الورطة.

إلا أن هذا الأمير كان كثير الأسفار والروحات والجيئات. وكان عندما حلت الكارثة مسافرا، فانتظرت حتى جاء من سفره، وأرسل لها هدية لطيفة فرحت بها الفتاة وعلمت منها أنه لا يزال على حبه لها وتذكره إياها.

وفكرت الفتاة في الوسيلة التي تنجو بها مما يراد بها. وبعد تفكير طويل وجدت حلا واحدا ولا شيء غيره، وهو أن تهرب إلى ابن عمها الشاب

وتلجأ إليه ليهرب بها ويخلصها مما يراد بها.

ولكن كيف تهرب؟ إنها لا تريد هربا مكشوفا يكون مثار التهم والشكوك. فقد كان حبها لابن عمها نزيها وشريفا وليس فيه ما يخدش الشرف أو يغمز في الأخلاق.

ووجدت الوسيلة، فأرسلت خادمتها الخاصة إلى نجار ماهر. وقالت له: إصنع لي طاولة جميلة واجعل لها سبعة أدراج. ولتكن تلك الأدراج متدرجة في الكبر؛ أي يكون الأول صغيرا والثاني أكبر من الأول والثالث أكبر من الثاني، والرابع أكبر من الثالث. أما الخامس والسادس والسابع فهن يتدرجن في الصغر بشكل متناسق. وأغرت النجار بأن تدفع له أي ثمن يريده، ولكن على شرط أن ينجزها في سرعة بالغة وإتقان وجودة.

وشرع النجار في عمل الطاولة فأنجزها كما تريدها الأميرة وفي أسرع وقت.

وجاء النجار بتلك الطاولة، فكانت كما تريد الأميرة. فدفعت للنجار مبلغا محترما من المال أرضاه كل الرضا.

ثم عمدت إلى تلك الطاولة، فوضعت في الدرج الأول منها رسالة للأمير تعبر فيها عن حبها وأشواقها. وفي الدرج الثاني خاتما من الماس، وفي الدرج الثالث أدواتها وحليها. أما الدرج الرابع الذي هو أكبر الأدراج فقد تركته فارغا. ثم وضعتْ في الخامس مفاتيح الأدراج كلها. ووضعت في السادس كتبها ورسائل الأمير الخاصة التي كانت تحتفظ بها. ووضعت في السابع ملابسها.

وبعد هذا دعت خادمتها الخاصة وقالت له: إنني سوف أسرح شعري وأستحم ثم أقرع لك الجرس. فإذا فعلت ذلك فادخلي في غرفتي الخاصة

واحملي الطاولة، واذهبي بها إلى الأمير فلان وسلميها إليه. قولي له إنها هدية من الأميرة إليك. وإذا سأل عني فقولي له إنها سافرت مع والدها. وإذا أعطاك هدية فلا تقبليها. ثم عودي إلى البيت مسرعة وابقي على عادتك السابقة. وإذا سألك والدي عني، فقولي له إنني لا أعرف شيئا عن هربها. وإذا هددك بالقتل فالزمي الصمت ولا تنطقي بأي كلمة.

فأشارت الخادمة بالسمع والطاعة. وانتظرت حتى دق الجرس، فجاءت إلى تلك الطاولة فحملتها. وكانت الأميرة قد وضعت نفسها في الدرج الرابع وأقفلت على نفسها من الداخل. ودخلت الخادمة بتلك الطاولة في قصر الأمير وقابلته، وقالت له: إن هذه الطاولة هدية من الأميرة لك. وهي تطلب منك أن تهتم بهذه الهدية وأن تضعها في غرفتك الخاصة.

فرحب الأمير بالهدية وشكر المهدي أجزل الشكر، وسألها عن الأميرة، فقالت إنها سافرت مع والدها. وأراد الأمير أن يدفع للخادمة أجرا على مجهودها لكنها رفضت وعادت إلى القصر وبقيت فيه، وكأن شيئا لم يكن.

وكان من عادة الملك أن يأتي إلى ابنته يوميا ليراها وليمتع نظره بجمالها وكمالها ودلالها.

لكنه عندما جاء في ذلك اليوم الذي نقلت فيه الطاولة إلى قصر الأمير لم يجد ابنته. وسأل خادمتها الخاصة عنها، فقالت إنها لا تعرف عن أمرها شيئا. وهددها الملك بالقتل، لكنها أصرت على الإنكار.

وجاء الملك بالسيف ووضعه على رقبتها، لكنها لزمت الصمت وقابلت التحدي بالسيف تحديا بالصمت. وغضب الملك من تلك

الجارية وضرب عنقها فانفصل عن جسدها. وتركها جثة هامدة. ولم يحصل منها على أيِّ خبر أو أيِّ إشارة تدل على ابنته التي خسرها. وكانت خسارته إياها مزدوجة؛ فهو لم يخسر ابنة فقط وإنما خسر ابنة وحبيبة كان يرشحها للزوجية.

وأمام تلك الصدمة العنيفة التي أصيب بها الملك، انهارت أعصابه وفقد اتزانه وقرر الهرب. فأخذ أمواله ورحل هو وخدمه وحشمه إلى حيث لا يدري.

أما ما كان من الأمير والدولاب؛ فقد اهتم الأمير به ووضعه في غرفته الخاصة التي فيها أكله وفيها منامه وفيها مسرحه وفيها يقضي أيام حياته.

وكان طعام الأمير يوضع له في هذه الغرفة في مواعيد معينة. وصارت الأميرة تخرج من دولابها فتأكل نصفه وتترك نصفه للأمير.

ورأى الأمير أن نصف الأكل يؤكل؛ فسأل الخادم الذي يأتي به، فأنكر أنه لا يعرف شيئا. وسأل الطباخ هل غير شيئا من مقادير الطعام، فقال إنه لم يغير شيئا، وإن طعام الأمير يقدم في مواعيده وبالمقادير المقررة.

وأحس الأمير بأن إهانة موجهة إليه من أحد الخدم الأنذال الذي داس مهابة سيده وتجرأ على دخول غرفته الخاصة، وتناولَ شيئا من طعامه.

وبدأ الأمير يراقب الغرفة، وقد صمم على أن ينتقم من هذا الشخص الذي يتجرأ فيأكل من طعامه الخاص.

وجاء موعد الغداء. واختفى الأمير فى مكان يرى منه ما يحدث وهو

لا يُرى، وجعل يراقب الوضع، والدمُ يغلي في عروقه من شدة الغضب ومن التصميم على الانتقام.

وفي هذه الأثناء لم يشعر الأمير إلا بحركة في داخل الطاولة، وبعدها خرجت الأميرة فجلست على الطاولة وأكلت نصف الطعام، ثم عادت إلى طاولتها وأقفلت على نفسها من الداخل.

وذهل الأمير من هذه المفاجأة وتسمر في مكانه ولم يستطع حراكا لفترة طويلة من الزمن. واستحال غضب الأمير إلى رضا وحزنه إلى سرور، وكيف لا يفرح وهو يرى حبيبته تشاركه في طعامه وتشاركه في غرفة منامه؟

وجاء موعد العشاء والأمير يترقب؛ وعندما خرجت الأميرة من دولابها وجلست تأكل، دخل عليها الأمير وسلم ورحب، فردت على سلامه وترحيبه.

ثم سألها عن السبب الذي جعلها تأتي إليه على هذه الصورة، فقصت عليه قصتها من أولها إلى آخرها. عندئذ اقتنع الأمير بأنها على صواب، وبقي يتحدث معها في شتى الأحاديث حتى جاء موعد النوم، فعادت إلى دولابها ونام الأمير على سريره.

وفي الصباح قال الأمير لها: إنني سوف أسافر غدا لشأن من شؤوني المستعجلة. وسوف أعود قريبا وقد أمرت خدمي أن يقدموا الطعام كل يوم على طاولتي، فتناولي منه كالمعتاد، وابقي على حالتك حتى أعود. فوافقت على هذا الترتيب. وسافر الأمير وبقي في سفره مدة أطول مما كان يتوقع.

وكان أحد جيران الأمير لديه زواج، وقد علموا بالطاولة الجديدة

الغريبة اللطيفة التي لدى الأمير، فأرادوا أن يستعيروها في هذه المناسبة لوضع أباريق الشاي وأواني القهوة عليها.

وطلبوا من والدة الأمير إعارتهم هذه الطاولة لمدة ليلة واحدة. لكن والدة الأمير اعتذرت وقالت: إن ولدي أوصاني أن أهتم بهذه الطاولة وأن لا أحركها من مكانها.

لكن الجيران ألحوا على الوالدة وقالوا: إنها كلها ليلة واحدة، قد تنقضي وولدك في غيابه، وتعود الطاولة إلى مكانها وكأن شيئا لم يكن. وأمام هذا الإلحاح المتواصل أعارتهم والدة الأمير تلك الطاولة وبداخلها الأميرة.

ووُضعت أباريق الشاي وأواني القهوة فوق تلك الطاولة. وصارت قطرات القهوة الحارة والشاي الحار تتسرب من الأواني إلى الدولاب الذي فيه الأميرة، فيحرقها ويؤذيها ويقض مضجعها. ورأت أنها إن استمرت على حالتها هذه، فقد ينصب عليها ما يسلخ جلدها.

وفكرت الأميرة في طريقة تتخلص بها من هذا الوضع الخطر الذي أوقعتها الصدف السيئة فيه، فلم تجد طريقة. أخيرا لم تر لها مناصا من دعوة الله بأن يخلق لها جناحين وأن يصورها في صورة طائر لتهرب من ذلك الخطر المحدق بها.

واستجاب الله دعاء الأميرة، فانقلبت إلى حمامة بيضاء. وفتحت باب الدولاب وفرت من بين أيدي الحاضرين. ونظر إليها القوم وهي تحلق في السماء، فتعجبوا مما رأوا وخافوا من هذه الطاولة. وظنوا بها مختلف الظنون فمنهم من اعتقد أن فيها جنا، ومنهم من اعتقد أنها مسحورة، ومنهم من ظن أنها تحتوي على أخطار وأسرار لا يؤمن خطرها.

ولهذا فقد أعيدت الطاولة إلى قصر الأمير حالا للخلاص من أخطارها ومن مسؤوليتها. وطارت الأميرة في شكل حمامة بيضاء وحلقت فوق المدينة. ورأت ضاحية من ضواحيها جميلة، فهبطت في بستان من تلك البساتين. ووقعت فوق نخلة ثم هبطت منها إلى الأرض. ودعت الله أن يعيدها إنسانة كما كانت فاستجاب الله دعوتها وأعادها إلى صورتها الأولى.

كان البستان ملكا لامرأة أرملة، فذهبت الفتاة إليها وأخبرتها بحالها. وطلبت منها إيواءها فرحبت الأرملة بالفتاة وقالت لها: إبقي عندي على الرحب والسعة، وسوف أجعلك ابنة لي. وبقيت الأميرة عند هذه الأرملة منتظرة الفرج.

أما الأمير فإنه عندما عاد من سفره، وجد الطاولة ليست على وضعها السابق. ووجد الطعام الذي يوضع من أجل الفتاة باق على حاله. وانتظر حتى جاء موعد الطعام فلم تخرج. وانتظر عدة وجبات، لكنها لم تخرج. ونظر إلى الدولاب، فإذا هو مفتوح وباطنه خال.

وسأل الأمير والدته عما جرى بالنسبة للدولاب، فأخبرته بما صار واعتذرت منه، لكن عذرها لم يعد إليه حبيبته. وقبل عذر والدته مضطرا، وكان باله مشغولا وبلباله كان موصولا.

وفتح تلك الدواليب لعله يجد فيها ما يدله على حبيبته، لكنه لم يجد إلا تلك الحاجات الخاصة بها، فتركها في مكانها، ماعدا فردة حذاء لطيفة وجدها لها. وهو الأثر الوحيد الذي يمكن أن يستفاد منه ويستعان به للتعرف على محبوبته في المكان الذي تعيش فيه.

وكان الأمير يعرف عجوزا تعرف المدينة وأهلها، وتعرف زواياها وخباياها.

وكانت هذه العجوز الأمل الوحيد الذي يرجو الأمير أن يتوصل بواسطته إلى معرفة مصير حبيبته. وطلب العجوز فجاءت إليه بسرعة، وأخبرها بخبر فتاته وقال لها: إنني مستعد لدفع مكافأة كبيرة لك إذا استطعت أن تدليني عليها. كما أنني مستعد لدفع أي مبلغ يتطلبه البحث عنها.

وأعطاها الأمير ذلك الخفّ وقال: إنه سوف يكون دليلك عليها ومرشدك إلى شخصيتها.

وأخذت العجوز ذلك الخف ووعدت الأمير خيرًا وقالت له: إنني سوف أجدها ولو كانت في شق نملة إذا كانت في هذه المدينة. وانطلقت العجوز إلى مهمتها مدفوعة بأنواع الإغراء الذي وعدها به الأمير.

وجعلت العجوز تطوف البيوت بيتا بيتا، ومعها بعض ما يحتاجه النساء تعرضه عليهن وتبيع إليهن ما يحتجن إليه. وهي في هذا كله تتحسس أخبار الفتاة وتعرض ذلك الخف وتقيسه على الفتيات من لدات الفتاة. وطال بحث العجوز في المدينة ولم تصل إلى نتيجة.

وطلبها الأمير وسألها، فقالت له: لقد طفت في جميع أحياء المدينة فلم أجد لها أثرا، وقد بقيَتِ الضواحي وأنا آمل أن أجدها فيها.

وبدأت العجوز جولتها في ضواحي المدينة، واستمرت تنتقل من ضاحية إلى أخرى حتى وصلت إلى حديقة تلك المرأة الأرملة، فدخلت عليها وعرضت عليها ما معها من حاجات النساء، فاشترت منها ما راق لها.

ثم أخرجت العجوز ذلك الخف وقالت لها: إن عندي هذا الخُفّ،

وهو خُفّ نادر جدًّا لا يوجد له مثيلٌ في الأسواق، وقد اضطرت صاحبته لبيعه لظروف قاسية تعانيها. ونظرت المرأة إلى ذلك الخُف فأعجبها، ورأت أن جميع ما قالته العجوز صحيح، فقالت: إن لدي فتاة سوف آتي بها لتقيسه على قدمها.

وذهبت الأرملة مسرعة فدعت الفتاة وجاءت بها إلى العجوز ولبست الحذاء، فإذا هو حذاؤها. ومشت فيه فازداد التصاقا بقدمها أكثر فأكثر. وقالت العجوز: إن الخف صالح لك تماما وسوف آتي بالفردة الأخرى في اليوم التالي، وآتي بصاحبه ليتفق معكم على الثمن.

وعادت العجوز فرحة مستبشرة، وذهبت إلى الأمير حالا. وعندما رآها مقبلة علم أن لديها خبرا سارا ففرح واستبشر.

وقالت العجوز للأمير: لقد وجدتها في المكان الفلاني عند عجوز أرملة.

ووصفت الفتاة للأمير حتى علم يقينا بأنها فتاته، فذهب معها ومعه الخفان. وجاءت الفتاة لتلبس الخفين وتتفق مع صاحبهما على الثمن، فعرفها وعرفته. وقاست الخف وأخذته وذهب الثمن، واتفق الحبيبان على الزواج.

وذهب الأمير إلى أهله فأخبرهم، فجاءوا بالقاضي وبالفتاة وعقدوا عقد الزواج برضا الطرفين وولاية القاضي على الأميرة.

أخيرا..

التقى الحبيبان بعد أن ظنا.. كل الظن.. أن لا تلاقيا.

أسطورة
اعتراف شاب طائش

كان أحدُ الرجال البسطاء يعيش في إحدى القرى مع أولاده الثلاثة وابنته.

تزوج الأولاد. أما الفتاة فلم تتزوج بعد لأنها لم تكن على قدر وافٍ من الجمال.

كانت الفتاة تقوم بكل أعمال المنزل وخدمة والدها العجوز وأخوتها. كانت تذهب إلى الحقل تزرع وتحصد وتبيع وترعى المواشي وتطعمهم، وتذهب إلى الآبار فتملأ جرتها وتعود بها إلى المنزل عدة مرات في اليوم الواحد.

وذات يوم..

ذهبت إلى أحد الآبار، وكان بعيدا عن بيتها مسافة كبيرة، وكان وسط غابة من الأشجار. وتشاء الأقدار السيئة أن يقابلها أثناء سيرها أحد الذئاب البشرية، فاعترض طريقها واغتصبها عنوة بعد محاولات فاشلة من الفتاة في الدفاع عن شرفها. وقد تم له ما أراد.. ثم تركها وهرب.

وقد استطاعت الفتاة في لحظة من غفلاته أن تنزع خاتمه الذي فيه أسمه واسم قبيلته من إصبعه وأن تحتفظ به لنفسها.. ومضى شهر وشهران وثلاثة وبدأت الفتاة تحس بأعراض الحمل وبدأ بطنها يكبر!!!

وعلمت الفتاة أنها حبلى، واحتارت في أمرها، إنها تعيش في وسط

محافظ إلى أقصى الحدود، ولو علم والدها وأخواتها بما حدث لكان مصيرها الموت، فماذا تصنع إذاً؟؟

تظاهرت بالمرض ولزمت فراشها وهي تفكر في وضعها ليل نهار وتبحث عن مخرج من هذه المعضلة التي وقعت فيها. وطال تفكير الفتاة دون أن تصل إلى حل ترضى به، وأخيرا وجدت الحل.. هو أن تتظاهر أيضا بأن في أصبعها ورم مقلق لا يتركها تهدأ ولا تستريح!

وجاء الليل وهي تتظاهر بأن الورم لا يترك لها فرصة للنوم أو للراحة. وعندما انتصف الليل دقت الباب على أخيها الأكبر الذي ينام مع زوجته، فلم يكلمها أحد بل كانوا في نوم عميق لا يحسون بأيِّ صوت أو أيِّ حركة!!

ومضت الليلة الأولى وجاءت الليلة الثانية، فذهبت إلى أخيها المتوسط في منتصف الليل أيضا ودقت الباب عليه فوجدته مثل أخيها الأكبر فتركته وذهبت لتنام.. وجاءت الليلة الثالثة فدقت الباب على أخيها الصغير. فقام مذعورا وخرج إليها وسألها عن حالها وما هو الأمر الذي أزعجها..!

فأخذته بيده وانتحت به جانبا من البيت وقالت له: يا أخي العزيز إنني أعيش في مشكلة عويصة لا أستطيع الخروج منها إلا بمساعدتك وغيرتك وكتمانك..

فقال لها أخوها: ما هي مشكلتك؟ أخبريني بها فليس هناك شيء يستعصى على الحل..

فقالت الفتاة: إنني أريد منك قبل أن أخبرك بها أن تعاهدني على

صيانة سري وعلى مساعدتي في التغلب على مصيبتي. فعاهدها أخوها على حفظ سرها وعلى مساعدتها على الخروج من مشكلتها، فأخبرته أخته بما حدث، كما حدث!!

وطيَّب أخوها خاطرها وقال: كوني مطمئنة إليّ، فإن سرك محفوظ ومشكلتك سوف تحل بإذن الله!!

فرحت الفتاة بهذه الروح المتسامحة الكريمة التي قابلها بها أخوها! كما انزاح عن كاهلها عبء كبير بالبشرى بأن أخاها سوف يجد حلا لمشكلتها، ونامت الفتاة تلك الليلة قريرة العين هادئة الأعصاب، فقد كانت تحمل الهم كله فوق رأسها وتكتم سرًّا كاد أن يحرق أحشاءها. أما الآن وبعد أن أخبرت أخاها ووجدت منه التفهم والعون، فقد انزاح الهم عن صدرها وأحست إحساسا غريبا بأن مشكلتها كأنها لم تكن!!

وجاء الصباح، وقال الأخ لأخته: إجمعي ما خف من ملابسك وأغراضك فإننا سوف نسافر أنا وأنت إلى مكان بعيد!!

وجمعت الفتاة أغراضها وأعدت نفسها كل الإعداد، وداخلها بعض الشك في أخيها، لكنه كان شكًّا ضعيفاً.. فقد يكون سفره بها ليقضي عليها في مكان قصي لا تتسرب منه الأخبار! وقد يكون سفره بها ليلقي بها في مجهل من مجاهل الصحراء فيتركها للجوع والعطش والسباع تمزقها شر ممزق..!!

لقد دارت هذه الأفكار في ذهنها، لكنها كانت احتمالات ضعيفة جدا بالنسبة إلى ما أحست به إحساسا داخليًّا من أن أخاها سوف يستر عليها هفوتها وسوف يخرجها من مشكلتها، وستعود الأمور إلى مجاريها في هدوء وسكون!!

وجاء الليل وأوى كل فرد من أفراد الأسرة إلى فراشه، وقام الأخ الصغير وكان قد أعد كل شيء، فأخذ أخته وأغراضها وأركبها معه على الراحلة وسار بها في ظلام الليل، ولم يشعر بسفرهما أي إنسان. وواصل السير من بلد إلى بلد، حتى جاء إلى بلد، ظن أن أخباره وأخبار أخته فيها سوف تنقطع عن أهله وعن أهل بلده!

وبحث عن بيت فاستأجره، وبقي هو وأخته في هذه البلدة، وقال لها: من سألك من تكونين بالنسبة إلي فقولي أنني زوجته.. وبقي هو وأخته إلى أن جاء موعد الوضع، فأتى إليها بعجوز ساعدتها في هذه الحالة. وولدت الفتاة ولداً ذكرا، وفرح كل من الأخوين بهذه النتائج الطيبة..!

وبعد سبعة أيام من وضع الغلام غسلته أمه وألبسته ثياباً نظيفة وأرسلته إلى خاله ليراه، ووضعت في أصبع يده خاتم والده. فقبل الخال الطفل وضمه إلى حضنه ونظر إلى الخاتم فأخذه وقرأ ما كتب عليه، فعرف أبا الغلام وعرف قبيلته وأخذ الخاتم فاحتفظ به!!

ثم اشترى لأخته جميع ما تحتاج إليه وأوصى بها جيرانها، وأوصى بها العجوز التي كانت عندها وقت الولادة، وسافر يسأل عن مضارب القبيلة التي يكون صاحب الخاتم أحد أفرادها.

وقرب من مضارب القبيلة ومر ببيت عجوز فطلب منها أن تسقيه ماءً فجاءت له بما طلب. وعندما شرب ألقى في قعر الإناء جنيها ذهبيا وأعاده إلى العجوز. نظرت العجوز إلى الجنيه، فقالت للشاب: إن في الإناء جنيهاً، وإنه لابد أن يكون لك مشكلة، فأخبرني بها فإنني لن أدخر وسعاً في مساعدتك على حلها!!

فأخبرها بمشكلته وأخبرها بما صمم عليه، وهو أن يخلو بأخت هذا

الرجل كما خلى هذا الرجل بأخته.. فقالت العجوز: إن والد هذا الرجل له سبعة أولاد وله ابنة واحدة من أجمل أهل زمانها.. ووالدها يحوطها بحراسة مشددة جدًّا؛ فهو يسكنها في خيمة وحدها ثم يجعل دونها سبع خيام كل خيمة فيها حراس وكلب، ولذلك فإنني أرى أن من الصعوبة بمكان أن تصل إلى هذه الفتاة!!

فقال الرجل إنني مصمم على الوصول إليها بأي ثمن حتى لو كان في ذلك نهاية حياتي!

فقالت العجوز: إذا كنت مصمماً فإن الطريق أمامك شاقٌّ ووعر، ولكن علي أن أساعدك بالقدر المستطاع، وذلك بأن أذبح سبعة خراف وأعطيك رؤوسها، فاذهب إلى الحيّ، فإذا جئت عند الحارس الأول فإن الكلب سوف ينطلق إليك ليعضك، فإذا قرب منك فاقذف إليه واحدا من الرؤوس، فإنه سوف ينشغل به ويتركك تذهب في طريقك. ثم سوف يعارضك الكلب الثاني، فاصنع معه مثل ما صنعت مع الكلب الأول، وهكذا مع الثالث والرابع والخامس والسادس والسابع، فإذا وصلت إلى خيمة الفتاة فتصرف كما تشاء!!

وفعل الرجل مثل ما قالت العجوز، وأخذ السبعة الرؤوس وقرب من الخيمة الأولى فانطلق إليه كلب ضار، فلما أقبل عليه رمى إليه بالرأس الأول فعدا على الرأس وجعل ينهش من لحمه ويلحس من بقايا دمه.. وانشغل به!!

وسار الرجل في طريقه وجاء إلى الخيمة الثانية والثالثة إلى آخرها.. فلما وصل إلى الخيمة السابعة وجدها مختومة وأن بابها مقفول. وكان معه سكين حاد فخرق الخيمة من أعلاها خرقاً على قدر حاجته، ثم قفز منه، فإذ به داخل الخيمة أمام الفتاة التي كانت نائمة!!

فلم يكن منه إلا أن رفع اللحاف وتمدد بجانب الفتاة فوق فراش واحد وتحت لحاف واحد، وشعرت الفتاة بالجسم الغريب الذي بجوارها، وسمعت تردد الأنفاس تحت لحافها فأرادت أن تنهض وتصيح..!

ولكنه قبض على يدها، وقال لها نامي وعليك الأمان، فأنا لا أريد بك شراً، وإذا صحتِ فضحتِ نفسكِ وفضحتِني!!

فسكتت الفتاة ونامت ونام بجوارها لا يحرك ساكناً!!

وجاء الصباح.. وكان من عادة الفتاة، أو من عادة أهل الفتاة، أن يرسلوا إليها في الصباح جارية توقظها من نومها، ويكون معها أناء مملوء بحليب ناقة بكر.. وجاءت الجارية على عادتها في ذلك اليوم وفتحت الخيمة على عمتها، ونظرت فرأت شيئاً لم تألفه من قبل، أنها ترى تحت اللحاف أربع أرجل!!

وضعت الإناء وفركت عينيها فلعل عينيها قد كذبتها! وأعادت النظر، إذ بها ترى أربع أرجل. فلم يكن من الجارية إلا أن وضعت الحليب في طرف من أطراف الخيمة وذهبت مسرعة إلى عمتها والدة الفتاة، ولم تتجاسر أن تقول أني رأيت رجلا ينام معها في فراشها!!!! بل قالت: يا سيدتي لقد رأيت تحت لحاف عمتي الصغيرة أربع أرجل!!

وعرفت والدة الفتاة ما تعنيه الأربع أرجل.. فذهبت مسرعة إلى زوجها والد الفتاة، فأخبرته وهي خائفة مذعورة. وسمع الأب هذا الخبر السيئ، وفكر ملياً. إن الرجل الذي بقي عند ابنته حتى الصباح ليس سارقاً ولا زانياً. فلو كان كذلك لما بقي في الخيمة إلى هذه الساعة من النهار. إذاً فإن له سراً لابد من اكتشافه!!

وجمع الوالد أولاده السبعة وقال لهم: لقد خطرت على بالي ليلة

البارحة بعض مغامراتي في أيام شبابي، وما كنت أعمله وأقوم به من المغامرات والمغازلات وملاحقات النساء، وهذه ذنوب وهفوات، إلا أن الشاب له عذره في ارتكابها..!!!!!!

وقد كبرت وتزوجت وتبت وندمت على تلك المغامرات، إلا أن بعض تلك المغامرات لا يزال عالقاً في ذهني ولا تزال ذكراها تحتل مكاناً بارزاً من قلبي!!

هذا هو شبابنا نحن الجيل السابق، أما أنتم أيها الجيل الجديد فإنني لا أرى إلا خمولاً وكسلاً وهدوءاً، هو إلى التبلد أقرب منه إلى الرزانة والتعقل... وإلا فأخبروني ما هي مغامراتكم وما هي القصص التي صنعتموها في شبابكم لتكون لكم ذكريات في أيام شيخوختكم؟؟؟!!!

ووجه السؤال للابن الأكبر، فقال معاذ الله أن نطارد بنات الناس أو أن نعتدي على عفاف واحدة منهن!!

وقال الثاني مثل ما قال الأول. وهكذا كلهم نفوا أن يكون لديهم شيء من أمثال هذه المغامرات التي يسألهم والدهم عنها؛ حتى جاء الدور إلى الصغير..!!

ونظر إليه والده كأنه يريد منه الكلام وأراد الصغير أن يخبر والده أنه ليس أقل إقداما ومغامرة، وأراد أن يكون له الفضل على أخوانه.. فقال له أنا يا والدي لي بعض المغامرات في هذا المجال!!

فقال له والده قص علينا بعض مغامراتك لعلها توقظ بعض هؤلاء الأموات، وأشار إلى أولاده الباقين إخوان الشاب!!

فقال الشاب: لقد كنت ذات يوم في القرية الفلانية ورأيت شابة على

رأسها قدرها، ذاهبة إلى بئر لتملأ قدرها منه ورأيتها منفردة! وبقرب أَثْلٍ كثيف فأخذتها بالقوة وتوغلت بها داخل الأَثْل وقضيت أربي منها.

وعندما وصل الابن إلى هذا الحد من حديثه، تغيرت ملامح وجه الأب، وظهرت بوادر الغضب على أساريره، وقال لابنه الصغير في نبرات كلها ثورة وغضب:

أنظر إلى نتيجة عملك هذا، واذهب إلى أختك في خيمتها لترى ما هنالك، إنه رجل ينام مع أختك وهو لا شك أخو الفتاة التي اغتصبت عفافها!!

إن عليكم أن لا تمسوه بسوء!! بل أكرموه واحتفوا به. ثم اذهب معه أيها المغامر الصغير إلى أهله، وتزوج بأخته، ثم عودوا إلينا أنت وهو وأخته؛ وإذا كان له رغبة في أختك زوجناه إياها!!

وذهب الابن الأصغر مع أخي الفتاة فعقد له عليها عقد النكاح، فكانت أم أولاده وهو أبا أولادها!!.

أسطورة الساحر

إنه شاب في الثلاثين من عمره، طيب، رزين، عاقل، مؤمن، عمل في التجارة ونجح فيها وأصبح من أغنياء قريته. أحب فتاة طيبة وجميلة جدا وتزوجها، وعاشا معا في سعادة وهناء كأكرم زوج لأكرم زوجة. ثم عرضت له حاجة تتطلب السفر إلى بلاد أخرى، فأخبر زوجته بعزمه على السفر، وذكر لها ما دعاه إلى هذا السفر. فتمنت له زوجته الوفية سفرًا موفقًا وعودًا حميدا...

أعدّ الشاب عدة السفر.. وحان وقت الرحيل.. فجاء يودع زوجته الوفية، وقال لها: ما هي الهدية التي تريدين أن آتي بها لك من تلك المدينة التي أقصدها؟ فقالت: إنني لا أريد إلا رجوعك بالسلامة، ولا ينقصني أي شيء. فكل ما أريده عندي. فألح عليها زوجها، فقالت:

- إذا كان لابد من هدية فلتكن خلخالا صفته كذا وكذا ويعمله الصائغ الفلاني، وذكرت له اسم صائغ مشهور بصنع أمثال هذه الحلية.. فقال لها زوجها وهو كذلك.. وبدأ رحلته إلى تلك المدينة.. وترك قلبه وعواطفه لدى زوجته المحبوبة ووصل إلى المدينة المقصودة..

كان أول شيء بدأ به أن ذهب إلى هذا الصائغ وطلب منه أن يعمل هذا الخلخال، وأعطاه المقاسات والمواصفات اللازمة.. واتفقا على القيمة وعلى موعد التسليم. وزاد سالم في الثمن قليلا ليرضي الصائغ فيجيد في الصناعة بالقدر الذي يستطيعه.. وتعجب الصائغ من حرص

سالم على هذا الخلخال ومن كرمه في البذل في سبيل هذا الخلخال.. وقال في نفسه، لولا أن صاحبة هذا الخلخال جميلة جدا.. لما وجهت إليها كل هذه العناية والحرص الشديد..

لهذا فقد وضع الصائغ في الخلخال مادة سحرية لها مفعول مدهش، وليس لها لون ولا وزن ولا يلاحظها أبصر الناس بالصناعة. وانتهى الوقت وانتهى عمل الخلخال بحيث صار غاية في إتقان الصنعة وفي الجمال والرشاقة.. وأخذه سالم ودفع بقية ثمنه بنفس سخيَّة وكرم.

وانتهت أعماله في هذه المدينة فشد الرحال عودا على بدء.. قافلا إلى بلاده. فوصل سالم وقدم هذا الخلخال إلى زوجته الحبيبة، فكشفت غلافه فسرت به أيما سرور وكادت تطير من الفرح.. وحط الرجل رحاله.. وهو سعيد مسرور بسعادة زوجته وسرورها.. فلما استقر في البيت، كان أول ما طلبه من زوجته العزيزة أن تلبس هذا الخلخال ليرى هل هو المطلوب.. هل القياس مضبوط. فلبست أول واحدة فكادت أن تطير..

ظن الزوج بادئ ذي بدء أن هذا من الفرح.. ولبست الثانية.. ومشت ثم ارتفعت عن الأرض قليلا قليلا.. إلى أن حلقت في الجو وبهت سالم.. لقد طارت زوجته.. ولم يكن هناك فرصة لتقول كلمة واحدة.. لقد طار قلبه وارتعدت أوصاله ولم يدر ماذا يصنع.. إن في الأمر شيئا.. إنها لم تطر إلا عندما تم لها لبس الخلخال، إذا فالخلخال هو سبب طيرانها..

قد يكون الصائغ عمله على سحر.. لاشك في هذا.. وكيف يصنع في هذا الظرف الدقيق؟ إنه يريد طريقا مختصرا يسلكه لإنقاذ زوجته من هذا الصائغ.. فكيف يصنع؟ فكر في الأمر مليا.. وتذكر شخصا كان يسمع عنه بأنه يتعاطى مثل هذه الأمور.. وقال سالم:

في نفسه إنه لا يَفُلُّ الحديدَ إلا الحديد... والطير بالطير يصاد.. والساحر سحره بقوة ساحر مثله..

أسرع سالم إلى هذا الرجل وقص عليه القصة.. وبذل له مكافأة سخية إذا هو أسرع لإنقاذ زوجته من هذا الصائغ المحتال. فهدَّأ من روعه وقال له: صحيح أنه لدي معرفة بهذا الشيء إلا أنني لا أستعمله، وأبرأ إلى الله أن أستعمله. فقال سالم: إنها ضرورة ملحة؛ فإنك إذا استعملته في مثل هذه الظروف فتأكد أن الله سوف يكافئك، لأنك استعملته لجلب خير وصدِّ شرّ.. أما استعماله في الإضرار بالناس والتفريق بين المرء وزوجته.. فهذا لاشك أنه إثم عظيم..!!

سأل الرجلُ «سالمًا» عن القصة، فقصها عليه من أولها إلى آخرها. وسأله عن اسم الصائغ وبلده، فأخبره بذلك فعرفه.. فوعده خيرا وقال له: هل أنت مستعد الآن؟ فأجابه سالم بأنه مستعد. فمشى الساحر إلى غرفة مجاورة فأخرج منها جذع نخل منحوت..

ركب الاثنان في باطنه.. وقرأ عليه الساحر بعض الطلاسم.. فما كاد الساحر يتم قراءتها حتى تحرك الجذع بقدرة قادر قليلا قليلا إلى أن حلق في أجواء الفضاء.. وبعد فترة ليست طويلة وصل بهم الجذع إلى المدينة وانحط بهم في مكان منزو من ضواحيها أخفوا فيه جذعهم.. ثم ذهب الاثنان سريعا قاصدين بيت الصائغ..

وعندما وقفا عند الباب وقرعاه، كلمهما من وراء الباب وقال لهما: إنني مشغول وإن عليهما إذا كان لهما حاجة أن يعودا في وقت لاحق.. فألحا عليه بأنهما يريدانه في عمل مستعجل لا يقبل التأخير.. فأجابهما بأنه لا يستطيع أن يعمل أي شيء في هذا اليوم وعليهما أن يعودا إليه غدا..

وأخيرا قال له الساحر: أخرج رأسك إلي من النافذة لأقول لك كلمتي مشافهة ثم أذهب.. فأخرج الصائغ رأسه من النافذة وكان الساحر الثاني قد أعد في يده حبتين من النوى، فقذفه بهما بقوة، وقال مخاطبا الصائغ: كن وعلا..

فلصقت النواتان في جانبي رأسه وصارت كل واحدة منهما قرنا امتد أحدهما إلى جهة اليمين وامتد الآخر إلى جهة الشمال..

صار الصائغ بهذا لا يستطيع أن يتحرك من مكانه.. لقد لصق بالنافذة وسمر فيها بفعل هذه القرون التي هي أكبر من النافذة فلا تدخل معها ولا تخرج منها..

عندئذ نفخ الساحر في الباب فانفتح ودخلا الدار مسرعين وبحثا عن الزوجة المسكينة فوجداها في غرفة نوم الصائغ. وسألها زوجها لعلك سالمة يا زوجتي.. فقالت: إنني سالمة، فلم أصل إلا منذ بضع دقائق. ولم ينل مني شيئا بحمد الله.. فشكروا الله جميعا على أنهم جاءوا في الوقت المناسب. وذهبوا إلى الصائغ فذل وتضرع وقال: استروا علي ستر الله عليكم... وخذوا ما شئتم..

تعاهد الساحران على أن لا يستعمل الصائغ سحره في إزاء الناس والسطو على حقوقهم والتفريق بين محب وحبيبه أو بين زوج وزوجته.. وأخذت المواثيق الغليظة.. ففك أسر الصائغ..

أخذ الرجل زوجته وكلاهما لا يكاد يصدق ما جرى.. إنه أشبه ما يكون بالحلم.. أشبه ما يكون بالكابوس المزعج الذي يطرأ على النائم ثم لا ينفك منه إلا باليقظة.. ومشى الثلاثة إلى مكان الجذع حيث أعادهم في

مثل لمح البصر إلى بلدتهم.. وسر الزوج من هذا الساحر الشهم النبيل، وعرض عليه عروضا مغرية لمكافأته على صنيعه، بل معجزته التي قام بها بخدمته، فرفض بإباء وشمم، وقال: إنني لم أفعل سوى الواجب. أنا لم أتعلم السحر إلا لهذه المشكلة وأمثالها من مشاكل السحرة الجهلة الذين يستعملون سحرهم للإضرار بالناس، وأخذ حقوقهم بطرق غير مشروعة..

كرر الزوج الشكر لهذا الساحر الشهم.. وعاش مع زوجته في سعادة وصفاء.. وبعد فترة من الوقت رزق منها ابنا سماه سالما وسر الوالدان. أدخله والده في المدرسة التي يديرها أمام البلدة.. ويقوم بتدريس جميع العلوم فيها..

رأى الإمام نظافة سالم وإشراق وجهه وحسن هندامه.. وترتيبه لدروسه ولوقته.. فعزا ذلك كله في نفسه إلى أم الطفل فأحبها من بعيد لبعيد! وسأل عنها من طرف خفي فقيل له إنها فائقة الحسن والجمال..بل تكاد تكون أجمل امرأة في المدينة، فدبَّت في نفسه عوامل الطمع وعوامل الشهوة الحيوانية. وجعل يتملق ابنها سالماً ويحسن معاملته، ويهدي إليه بعض الهدايا الطفيفة التي يحبها الأطفال وتحبِّب الأطفال إلى من يقدمها إليهم!

استمر هذا الإمام على ذلك فترة من الزمن.. إلى أن اطمأن إليه الطفل.. واطمأن هو إلى الطفل..

وفي ذات يوم قال هذا المدرس: إنني أريد منك أن تأتي إلي بشعرات من رأس أمك إذا مشطت شعرها. ولا أريد أن يعلم بهذا أحد.. لا أمك ولا أبوك.. فوعده الطفل بذلك..

كان الطفل ذكيًا وعارفا ببعض الأمور فدبت الشكوك والتساؤلات في نفسه.. وقال، ماذا يريد هذا المدرس بشعرات أمي؟ وأي علاقة له بهذه الشعرات؟ وما هو الهدف من اقتنائه لها؟

وقبل أن يقدم على هذه الخطوة أخبر أمه بما قال له هذا المدرس، وقال: إنه هددني إذا لم آت له بشيء من هذا الشعر.. كما أنه أمرني بأن يكون هذا سرًا.. فقالت أم سالم: إنني سوف أعطيك شيئا من شعراتي مادام يريدها.. فلا ضرر علينا من ذلك ولا خوف منه!

ثم أخذت جلد خروف كان يستعمل كفراش في أحد أركان المنزل وأمرت عليه المشط حتى أخرج منه بضع شعرات، فعطرتها ثم لفتها في ورقة نظيفة وربطتها برباط وثيق وأعطتها ولدها سالماً وقالت: أعطه هذه الشعرات، ولا تخبره أنني علمت بالأمر. فأعطاه سالم تلك الشعرات، فسرّ الأستاذ بهذا الانتصار..

جاء الزوج فأخبرته زوجته بما جرى، فقال: إحفظي هذا الجلد في غرفة مغلقة الأبواب والنوافذ لنرى ماذا يكون من أمره. وصبرا يوما أو يومين. ولم يشعرا ذات يوم إلا والجلد يطير في داخل الغرفة يبحث عن منفذ فلا يجده. ويكرر المحاولة للخروج فلا يجد مخرجا. فتركوا الأبواب والنوافذ مغلقة على هذا الجلد حتى جاء وقت الصلاة. وتقدم أمام المسجد للصلاة بالناس وكان هو مدرس الأطفال.

عندئذ فتحوا الباب لهذا الجلد، فخرج من الغرفة ثم من البيت مسرعا.. وطار إلى أن حلق فوق المسجد ثم دخل واستمر في الطيران حتى جاء عند الإمام وهو في أثناء الصلاة فالتف عليه، وجعل يتحرك حوله؛ فتارة يصعد وتارة يهبط. إلى أن شعر جميع المصلين بما جرى فأتم

صلاته سريعا.. ثم انصرف إلى بيته عجلا والجلد معه.. وهو لا يستطيع أن يعلل ما جرى للمصلين، ولا أن يأتي لهم بأسباب معقولة لهذا الحادث الشاذ!

ولما جن الليل أخذ هذا الإمام أمتعته ورحل عن هذه البلدة التي انكشف فيها أمره، وعُرف سره.

وعاش سالم مع زوجته وابنه في سعادة وهناء، وقد حصنت الزوجة نفسها ضد السحر بالصوم والصلاة وقراءة كتاب الله كي تتقي شرّ حاسد إذا حسد.

أسطورة الشقيقتين

هذه أسطورة شقيقَين أحدهما غني والآخر فقير. كان الغني عقيما لا يولد له، وليس عنده على سعة ثروته إلا زوجته التي هي من عشاق المال وجمع المال.

أما الأخ الفقير فقد كان لديه ست طفلات صغيرات، وكان يكافح في الحياة من أجل معيشتهن وراحتهن وظهورهن أمام زميلاتهن بالمظهر اللائق الذي لا يشعرن معه بأنهن أقل من غيرهن.

وكان لدى هذا الوالد الفقير حمار يحتطب عليه صيفا ويجمع الأعشاب ويحملها عليه شتاءً، ويبيع محصوله اليومي ثم ينفقه على زوجته وعلى بناته الصغيرات.

وكان هذا الأخ الفقير أيضا لا يجد من أخيه الغني أي عون أو مساعدة. وكيف يعينه أو يساعده إنسان يقتر على نفسه ويحرمها من كريم المأكل والملبس، ويعيش وليس له هم إلا الجمع والمنع والتقتير على نفسه وعلى زوجته في كل جانب من جوانب حياتهم.

فأكلهم من أقل الأكل طيبا ولباسهم من أرخص اللباس، وفراشهم من أخشن الفرش وهوايتهم ولذتهم الوحيدة هي تنمية هذا المال وزيادته.

وذهب الفقير ذات يوم إلى الصحراء وتغلغل فيها بحثا عن نوع من الأعشاب المطلوبة المرغوبة.

ونظر ذات لحظة فرأى قصرا كبيرا في وسط الصحراء، فتوجه إلى جهته. وعندما أقبل عليه لم ير حوله أحدا فتخوف من هذا القصر العظيم المنفرد في وسط الصحراء. واختفى هو وحماره في مكان منخفض، وبقي يراقب هذا القصر عن بعد ليرى هل فيه أحد.

وبعد وقت طويل من الانتظار رأى عفريتا هائل الخلقة، كريه المنظر، يخرج من هذا القصر ثم يغلق بابه، ويحفر للمفتاح حفرة ويدفنه فيها وبعد ذلك يبول على المكان الذي فيه المفتاح، حتى لا يعرف أحد مكان المفتاح.

وذهب العفريت ضاربا في الصحراء باحثا عن صيد من إنسان أو حيوان.

وبعد أن اختفى العفريت عن الفقير، وظن أنه ذهب بعيدا ركب حماره وجاء إلى هذا القصر واستخرج المفتاح من مخبأه، وفتح القصر ودخل هو وحماره فيه.

وعندما دخل القصر، رأى في داخله فضاء واسعا تحيط به غرف مغلقة الأبواب. وشم رائحة طعام فذهب إلى المطبخ، فوجد لحوما مطبوخة ومعدة للأكل، فأكل منها حتى شبع.

ثم راح يتفقد الغرف، فوجد غرفة مملوءة بالحيوانات الميتة المعلقة بأرجلها، وغرفة أخرى كل ما فيها بشر قتلى ومعلقون بأرجلهم، وفي أنف كل واحد منهم أنبوبة يتسرب دم الإنسان فيها، ويجتمع في إناء ليشربه هذا العفريت إذا أحس بالظمأ. فهو لا يأكل إلا لحما، ولا يشرب إلا دما.

ووجد غرفة ثالثة فيها رجال قد أقفل عليهم وهم ينتظرون دورهم في القتل، ورأوا هذا الحطاب الفقير ورآهم وأخبروه عن العفريت وقالوا له: أنجُ بنفسك فإنه إن رجع ووجدك أكلك أنت وحمارك.

فقال لهم الرجل الفقير: إنه لا يمكنني الهرب في هذا الوقت، وإنني أخشى إذا هربت أن يصادفني العفريت في الطريق فيأخذني مع حماري. لكنني سوف أختفي في هذا القصر ليلتي هذه، ثم أهرب غدا.

فقالوا له: ما دمت مصرًّا على البقاء فإن عليك إذا قرب الليل أن تصعد إلى تلك المقصورة أنت وحمارك، وأن تبقى فيها طيلة ساعات الليل بدون حراك. لأنه إن سمعك أو سمع حمارك فإنه سوف يصعد إليك وسيكون مصيرك الموت لا محالة.

وسمع الفقير كلامهم، وسألهم عن محتويات هذا القصر فأخبروه أنه مليء بالكنوز والذهب والفضة والجواهر التي يأتي بها العفريت من كل مكان، ويخزنها في تلك الغرف التي خصص كل واحدة منها لنوع من أنواع هذه الثروات الطائلة.

وقرب الليل وصعد الفقير مع حماره إلى أعلى المقصورة الوحيدة التي في هذا القصر. وبعد صعوده بفترة وجيزة جاء الوحش ودخل القصر. وأحس الفقير بدخوله من صوت الباب وصريره. فكتم أنفاسه وربط فم حماره خوفا من أن ينهق.

وتجول الوحش في القصر وتفقد جميع أموره، وداخله الشك من ان يكون في المقصورة أحد، فمشى حتى وقف عندها، ثم رفع صوته بهذه العبارة:

« يا للي في المقصورة تعش!.. لحم خرفان. ولحم وحش! »

وسمع الفقير هذا النداء لكنه تجاهله واستمر في صمته واحتاط على فم حماره بحيث لا يخرج منه أي صوت. وبعد لحظات أعاد الوحش نداءه:

« يا للي في المقصورة، تعش لحم خرفان، ولحم وحش »

ولكن الذي في المقصورة لا يتكلم ولا يبدي حراكا. وأعاد الوحش عبارته للمرة الثالثة:

« يا للي في المقصورة، تعش لحم خرفان، ولحم وحش »

ولم يسمع الوحش أي صوت ولم يلاحظ أي حركة فذهب إلى شؤونه الخاصة بعد أن تيقن أن القصر خال من أي شخص غريب. حتى المقصورة قد تأكد أنه ليس فيها أحد.

ونام الفقير الحطاب بجانب حماره حتى جاء الصباح. وقام الوحش وقضى شؤونه، ثم خرج من الباب وأقفله، وذهب يضرب في كبد الصحراء باحثا عن صيد جديد.

وأنزل الرجل حماره من سطح المقصورة ثم صار يفتح غرف القصر واحدة إثر واحدة، ليعرف ما في كل واحدة منها؛ فواحدة يجد فيها ذهبا، وأخرى يجد فيها فضة، وثالثة يجد فيها جواهر، ورابعة يجد فيها لؤلؤا ومرجانا، وخامسة يجد فيها أنواع الأطياب والعطورات.

وفكر الحطاب فيما يأخذ. ورأى أن الذهب هو أثمن شيء وأحسن شيء يمكن أن يأخذه. فملأ جميع الأوعية التي معه ذهبا ووضعها على ظهر حماره ثم فتح باب القصر ووجه حماره إلى جهة الطريق وتبع حماره ووصل إلى بلده.

ودخل الحطاب على زوجته وأولاده وهم يبكون خوفا عليه، فإنه لم يسبق أن غاب عنهم ليلة واحدة. وقد خافوا أن تكون بعض الوحوش اختطفته أو تعرض لعصابة من اللصوص الطامعين.

استقبلته زوجته وأولاده بفرح وسرور وقالوا: لقد تأخرت هذه المرة عن الحضور في موعدك فخفنا عليك، وظننَّا مختلف الظنون.

فقصَّ عليهم قصته مع الوحش، ثم أنزل أكياس الذهب من فوق ظهر الحمار. ورأت الزوجة والأولاد بريق الذهب فكادوا أن يصعقوا من الفرح.

إنه فرح مضاعف وعنيف بعد حزن مضاعف وعنيف. وقال الزوج لزوجته: كيف نستطيع أن نعرف مقدار هذا الذهب؟ إننا لو عددناه لتعبنا ولم نصل إلى نتيجة إلا بعد أيام وليال طويلة.

فقالت له زوجته: إن الرأي عندي أن نرسل إحدى البنات إلى بيت عمها لتستعير منهم المكيال فنكيل الذهب به ونعرف مقداره بواسطته.

فوافق الزوج على هذا الرأي وأرسل إحدى بناته إلى بيت عمها وطلبت منهم المكيال.

وكانت زوجة العمّ هذا امرأة تحب أن تدس أنفها في كل شيء، وتريد أن تعرف كل شيء ولا سيما عن شقيق زوجها وعائلته، ولهذا فقد سألت الفتاة عما يريده أهلها بالمكيال، فقالت الفتاة إنني لا أدري.

لكن زوجة عمها قبل أن تعطيها المكيال جعلت في أصله مادة لاصقة من أجل أن يلتصق بها بعض ما يكال في المكيال.

وذهبت الفتاة بالمكيال إلى أهلها بعد أن أكدت عليها زوجة عمها أن

تعيده بعد الفراغ من الكيل مباشرة. وجاءت الفتاة بالمكيال فكالوا فيه الذهب وعرفوا مقداره تماما. ثم أعطوا الفتاة المكيال لتعيده إلى أهله.

وأعيد المكيال إلى أهله فنظرت زوجة العم إلى أسفل المكيال وهي تظن أنها ستجد في المكيال حنطة أو شعيرا أو ذرة. ولكن ما أشد دهشتها عندما وجدت في قعره خمس جنيهات ذهبية. إنها تعرف أن شقيق زوجها فقير وأن معيشتهم كلها تقتير في تقتير.

فمن أين جاء إليهم هذا الذهب؟ إنهم بهذا سوف يكونون أرفع منهم مقاما وأرغد منهم عيشا وأنعم منهم بالا.

وذهبت الزوجة مسرعة إلى زوجها وأخبرته بما توصلت إليه من أخبار، وقالت له: إن عند أخيك ثروة لا يحصى عددها وإنها تكال بالمكيال، وأرته الخمس جنيهات الذهبية التي وجدتها في قاع المكيال.

فدهش زوجها أيما دهشة، وقال لزوجته: إنني لا أدري من أين جاءت أخي هذه الثروة العظيمة. سوف أذهب إليه وأسأله. وسوف أعلم الأسباب للحصول على مثل تلك الثروة التي حصل عليها.

وشجعته زوجته على فكرته هذه وعلى الإسراع في تنفيذها.

وجاء الصباح وذهب الأخ إلى أخيه، وسلم عليه بحفاوة ما كان يعهدها منه من قبل. وقال لأخيه: تعال معي إلى بيتي لأتناول وإياك فنجان قهوة، ولنتحدث في هذه الأثناء عن بعض الشؤون التي تهمنا.

ووافق الأخ على كلام أخيه وذهب الأخوان، وأوقدت النار، وبدأ الحديث بين الأخوين. وسأل الأخ الغني أخاه عن تلك الجنيهات الذهبية التي يملكها، ومن أين جاءته.

فأنكر الأخ الفقير أن يكون عندهم شيء من هذا. لكن الأخ الغني أخرج من جيبه بعض تلك الجنيهات وقال: إنه لا سبيل إلى الإنكار، فقد وجدنا هذه الجنيهات في قاع المكيال الذي كلتم به الذهب.

وأمام هذه الحقيقة، اعترف الأخ لأخيه بأنَّ لديهم ذهبًا، وأنه وجده بطريق الصدفة. وقال الغني لأخيه: كيف وجدته؟ وأين؟

وقصَّ الأخ الحطاب قصته مع الوحش على أخيه. وكيف تعرض للخطر، ثم كيف نجا منه وهرب بهذه الثروة. فقال الأخ الغني: صف لي هذا القصر؛ أين يقع، وكم المسافة التي تفصل بيننا وبينه.

فقال الأخ لأخيه: إنني أنصحك يا أخي بأن لا تذهب فإنني أخشى عليك، فلقد نجحت أنا في الهرب من هذا الوحش بأعجوبة، والفرصة التي أتيحت لي قد لا تتاح لك. وإذا وقعت في يده فإن مصيرك الموت المحقق.

لكن الأخ الغنيّ أصرَّ على أن يعرف هذا القصر وأن يقوم بمحاولة للحصول على كمية من الذهب، مثل ما حصل عليه أخوه.

ورأى الحطاب تصميم أخيه على رأيه فأخبره بمكان القصر والمسافة التى تفصل بينهم وبينه. وأخبره بطريقة الوحش متى خروجه من القصر ومتى عودته، وأين يضع المفتاح.

كما أخبره بأن عليه أن يصعد إلى المقصورة هو والحمار وأن يكتم أنفاسه مع أنفاس حماره، وإذا كلمه الوحش فإن عليه أن لا يجيبه. ووصف الأخ لأخيه كل دقيقة وجليلة يمكن أن تمر عليه. كما وصف له طريقة التهرب من المآزق التي تمر به أو يمر بها.

وأخذ الغني حمار أخيه، وأخبر زوجته بأنه سوف يذهب ليأتي لها بالذهب. فشجعته ودفعته دفعا إلى هذه المخاطرة الجريئة التي ليس فيها حالة وسط. فإما هي الحياة مع الغنى أو الموت السريع.

وذهب الأخ الغني في الطريق المرسوم، وسار طيلة الليل. وعندما ظهرت تباشير الصباح رأى القصر. وبحث عن مكان خفي حتى وجده وأخفى حماره واختفى.

وبقي يراقب القصر وباب القصر. وبعد فترة قصيرة خرج الوحش وأغلق الباب وحفر للمفتاح في مكان خفي ودفنه. ثم بال عليه وذهب في طريقه، يضرب في كبد الصحراء بحثا عن الصيد.

وعندما اختفى الوحش وابتعد عن القصر، خرج الرجل من مكمنه وركب حماره وجاء إلى القصر واستخرج المفتاح. وفتح الباب ودخل بحماره داخل القصر وتجول فيه وعرف كل شيء.

ورأى الرجال القتلى المعلقين بأرجلهم، ورأى الرجال الأحياء الذين حذروه ونصحوه وقالوا له، أنجُ بنفسك. لكنه لم يسمع كلامهم ولم يتعظ بعظاتهم. وراح يتجول في القصر ويفتح كل غرفة ليعرف ما فيها ثم يغلقها كما وجدها. واستمر على ذلك إلى أن وصل إلى المطبخ فوجد فيه قدورا ملأى بأنواع الأطعمة من لحوم وغيرها فأكل منها حتى شبع. ثم ذهب وأخذ حماره عندما قرب الليل وصعد هو وإياه إلى المقصورة.

وعندما بقي بعض الوقت أحس بباب القصر يفتح وبالوحش يدخل، فكتم أنفاسه وربط فم الحمار خوفا من أن ينهق.

وجاء الوحش يتجول في القصر ويتفقد أموره ويتحسس الغرف

لئلا يكون جاء إليها شخص غريب. وانتهى من جولته تلك ولم يبق إلا المقصورة فجاء بالقرب منها ونادى بندائه المعهود:

« يا للي في المقصورة، تعش لحم خرفان، ولحم وحش »

وسمع الرجل هذا الكلام فسكت ولم يجبه.

ولكن الوحش أعاد الجملة ثانية. ثم أعادها ثالثة بصوت شعر منه الرجل أن الوحش متأكد من وجوده. فنطق الرجل لا شعوريا بقوله "بالهناء والعافية"، أي كل طعامك وحدك هنيئا.

ولهذا عرف الوحش أن في المقصورة شخصًا غريبا، فصعد إليه وقبض عليه بيد وعلى حماره باليد الأخرى وأنزلهما إلى أسفل القصر، ثم ذهب بالحمار إلى غرفة البهائم فعلقه برجليه، وترك الدم يسيل من منخريه. وذهب بالرجل إلى غرفة الرجال، وعلقه أيضا برجليه وجعل في أنفه مكاحل لاختزان الدم، ثم ضغط عليه بآلات عنده لإنزال الدم إلى تلك المكاحل.

وهكذا لقي هذا الرجل الغني مصيره المحتوم الذي ساقه إليه الطمع والجشع الذي لا يعرف الحدود ولا تقف في وجهه المخاوف والسدود.

وانتظرت الزوجة زوجها ليأتي إليها بالذهب. لكنه تأخر عن الموعد الذي حدده لرجوعه. ثم جاء اليوم الثاني والثالث ولم يعد الرجل. وتيقن الجميع أنه قد لقي مصرعه، وراح ضحية أطماعه.

حكايات وأساطير
من
الأدب العربي القديم

أسطورة
أبو زيد الهلالي

كان أبو زيد الهلالي نازلاً هو وجماعته في المستوى بين الوشم والقصيم. وكان معهم ذياب بن غانم، الفارس المشهور، ونفد الطعام وأرادوا أن يمدوا وشيقر، أي يرحلوا إليها لشراء ما ينقصهم من الأطعمة ولكن بعضهم قال لبعض، كيف نشتري طعاما وليس معنا نقود؟

وتكلم أبو زيد فقال: إن الأمير وشيقر الذي يدعى حديد، رجل غني لديه جميع ما نريده من الأطعمة، وهو لا يعرفني فبيعوني عليه – وكان أبو زيد أسود اللون – واشتروا بثمنه ما تريدون من الأطعمة. ثم ارحلوا واتركوني عنده وسوف أحل مشكلتي أو أتركها للزمن يحلها.

وعارض بعض الجماعة وقالوا: كيف نبيع أميرنا وفارسنا بحفنات من طعام؟ إن هذا لا يليق، وقد يجعله الناس مغمزا لنا، وعيبا يتحدثون به عن بني هلال كلما ذكروا.

ولكنَّ أبا زيد قال: إن الضرورات تبيح المحظورات، وليس هناك حل غير هذا الحل لهذه المشكلة، ومن راقب أحاديث الناس أتعب نفسه، وليس أمامنا الآن إلا هذا الرأي الذي هو بيعي على حديد.

ونظر القوم بعضهم إلى بعض، فلم يتكلم منهم معارض. وشد القوم رحالهم وقصدوا وشيقر، وحلوا ضيوفا على أميرها حديد. فأكرمهم ورحب بهم وقدم لهم واجب الضيافة، ثم إن ذياب بن غانم قال لحديد:

- أيها الأمير الجليل، إن أهلنا وأولادنا في المستوى وليس لديهم شيء من الطعام، نحن ليس لدينا شيء من النقود لنشتري به طعاما، لكن لدينا عبدٌ مملوكٌ نريد بيعه عليك بثمن معلوم. وسوف نشتري بثمنه تمرا وحنطة من عندك.

فاشترى منهم حديد أبا زيد بثمن معلوم. وأعطاهم بقيمته تمرا وعيشا. وحمّلوا رواحلهم، وذهبوا إلى أهليهم وخلفوا أبا زيد وراءهم يرسف في أغلال الرق والعبودية.

وقال حديد لأبي زيد بعد أن انصرف أصحابه إلى أهليهم: ما اسمك؟ فقال أبو زيد: اسمي مسعود.

فقال حديد: يا مسعود، هل تعرف أن تستخرج الماء وتسقي به النخل والزرع؟

فقال مسعود: إنني لا أعرف شيئا مثلما أعرف الرياسة.

وكان لحديد حديقة غناء تُسقى من بئر عظيمة يخرج الماء منها كارتان. كارة من جهة الشرق وكارة من جهة الغرب.

فأرسل أبو زيد إلى هذه الحديقة لكي يستخرج الماء. وجاء الليل واشتغلت الكارتان في إخراج الماء وتوجيهه إلى المزارع وأبو زيد هو الذي يروي، أي يسقي به النخل والزرع ويعدله من هذا إلى هذا، ومن هذا إلى ذاك.

وتتبع أبو زيد الماء حتى وصل إلى منتهاه. ونظر يمينا ويسارا فرأى مطينة كبيرة قد أخذ منها تراب سور الحديقة كله فوجد الماء إليها ثم توسد عصاه العجراء التي لا تفارق يده ونام.

وعندما طلع الفجر توقف صوت السواقي، فقام مسعود من نومه وتوجه إلى زملائه العمال. وسألوه كيف كان عمله ولعله أسقى زرعا كثيرا. فقال مسعود: لقد انتصف الحوض.

وسمع العمال هذا الكلام فدهشوا؛ كيف يكون عملهم طيلة ليلة كاملة في حوض واحد مع أن العادة أن يسقوا جزءا كبيرا من البستان؟ وانطلق العمال إلى مكان السقي، وعندما وصلوه نظروا فإذا سهرهم كله قد ضاع في المطينة.

ولم يقوَ أحد منهم أن يقول لمسعود كلمة واحدة خوفا من عجراه. ولكن واحدا منهم انطلق إلى الأمير حديد وأخبره بما صنع مسعود. ودعا الأمير مسعودا فجاء إليه. وقال الأمير له: يظهر أنك لا تعرف الرياسة ولكنك سوف تعرف سياقة السواقي؛ فقم بمهمة سياقة السواقي، ودع غيرك من العمال يقوم بالرياسة.

فقال مسعود: مرحبا يا عمي.

وجاء الليل. وكان معظم عملهم في الليل لأن عمل الليل أقل تعبا وأكثر سقيا. واستلم مسعود السواقي، وساقها فترة من الزمن. وتعب من التردد في المنحاة خلف السواقي يصعد بصعودها ويهبط بهبوطها.

وعندما نامت العيون أوقف السواقي. ثم عمد إلى المحال والدراج فألقاها في البئر. ثم عاد حتى توسط في المنحاة وتوسد عجراه ونام.

وجاء الصباح. واجتمع العمال فرأوا الخراب والدمار، ولم يستطيعوا أن يقولوا لمسعود كلمة واحدة؛ فإن عصاه العجراء في يده. وهو مهيب مفتول العضلات، حاد النظرات.

فانطلق أحد العمال إلى الأمير حديد فأخبره بما حدث وطلب الأمير مسعودا فجاء إليه وقال الأمير:

- يظهر أنك لا تعرف لأمور الفلاحة، ولكن هل تعرف أن تعمل القهوة والشاي لي ولأضيافي؟

فقال مسعود: نعم إنني أعرف هذا العمل تمام المعرفة لأن عملي السابق عند أعمامي القدامى هو عمل القهوة والشاي لهم ولضيوفهم.

واستلم مسعود أدوات القهوة والشاي، واستراح من أعمال الفلاحة الشاقة التي كان سوف يكلف بأعمالها. وكان عمله للقهوة والشاي في غاية الروعة والإتقان، مع النظافة واللطافة في كل وقت وآن.

ورضي الأمير حديد كل الرضا عن مسعود في عمله الجديد.

وفي ذات يوم جاء ركب من بني هلال، وصاروا ضيوفا عند الأمير حديد. وعلم مسعود بقدومهم وعلم بأنهم من فخذ بعيد عنه، لكنهم يعرفونه تمام المعرفة. فكلف مسعود أحد مساعديه بالقيام بعمل القهوة.

وجلس أبو زيد في طرف المجلس. وجاء بنو هلال، فدخلوا على الأمير حديد، فوجدوا حديدا في صدر المكان فاستقبلهم ورحب بهم. ونظر أحد بني هلال في جوانب المجلس فرأوا أبا زيد الذي هو مسعود فعرفوه وقاموا فسلموا عليه، ورد عليهم السلام وجلس كل في مكانه وجهزت القهوة والشاي.

وأديرت أكوابها على الأمير وضيوفه. وقدم الفنجان الأول للأمير حديد كما هي العادة، لكنه آثر به أكبر ضيوفه وقدمه إليه، فقال هذا

الضيف: إنني لا يمكن أن آخذ الفنجان قبل الأمير أبو زيد. ولم يسع الأمير حديد إلا أن يجامل ضيوفه ويعطي الفنجان الأول لأبي زيد الذي هو مسعود العبد المملوك للأمير حديد.

وانتهت مدة الضيافة وذهب بنو هلال في طريقهم وعرف الأمير حديد كل شيء. ودعا مسعودا فاعتذر منه، وقال له: لماذا لم تخبرني باسمك لأعاملك المعاملة التي تليق بك. إنك لست عبدا بل أمير وضيف معزز مكرم.

ولك الآن مطلق الحرية؛ إن شئت أن تقيم عندنا أو شئت أن تذهب إلى قومك وعشيرتك، إلا أن لي شرطا واحدا وهو أن تعاهدني أن لا يأتيني منك ضرر أنت وجماعتك. فقال أبو زيد: أما أنا فأعاهدك أنه لا يأتيك مني ضرر ولا خيانة ولا غدر.

أما بنو هلال فأنا لا أضمنهم، فهم كثيرون وليسوا تحت أمري. فرضي حديد بأن يعاهده أبو زيد بأن لا يأتيه منه ضرر هو وحده، أما بقية بني هلال فيترك موضوعهم لمناسبة أخرى.

وجهز الأمير حديد أبا زيد وأعد له أربعا من الإبل محملة بالأطعمة. وأرسل معه خادما يخدمه ويساعده إلى أن يصل إلى أهله.

وخرج أبو زيد بتلك القافلة الصغيرة متوجها إلى أهله وعشيرته في المستوى.

وعندما وصل أبو زيد، استبشر بوصوله جميع أهالي الحي. لأنه كان بحق زعيما محبوبا يحبه الصغير ويحبه الكبير، يحبه الذكور ويحبه الإناث، لأنه شجاع وكريم ومتواضع، ولأنه شهم يؤثر قومه على نفسه ويتعب نفسه في سبيل عشيرته. ولهذا فقد كان يوم وصوله يوم عيد مشهود.

وقد قابل أبو زيد تلك العواطف الجياشة من أهله وعشيرته بعواطف الكرم والبذل والسخاء؛ ففرق الأطعمة التي معه على المحتاجين من أبناء عشيرته. وأضاف إلى أربع الإبل التي أعطاه إياها حديد أربعا أخرى ونحر الجميع لقومه وأبناء عشيرته.

ونعم الجميع بسعادة لا حدود لها. وأراد الخادم أن يرجع إلى بلده فأعطاه أبو زيد تلك العجراء كهدية وذكرى، لأنه طلبها منه كما طلب أن يرسم عليها رسمه ففعل. وعاد الخادم إلى سيده حديد فأخبره بما رأى وقص عليه ما سمع.

وبقي أبو زيد بني جماعته في حفاوة وتكريم وأقبل الصيف وقل المرعى في الأرض التي ينزلونها. واتفق الجميع على الانتقال إلى الدهناء والصمان، ففيها من المرعى ما لا ينفد في الصيف ولا ينفد في الشتاء. وفي طريقهم لابد أن يردوا وشيقر، وأن يستقوا من الماء وأن يشتروا بعض ما يحتاجونه من أطعمة وملابس.

وورد بنو هلال مياه وشيقر في طريقهم مسالمين، وليس في نيتهم إثارة أي فتنة أو شر، وكان معهم جار يقال له عمار الهتيمي، وهو يسير مع بني هلال كواحد منهم.

وقفزت إحدى نياق عمار هذا في أحد المزارع وجعلت ترعى من الزرع الذي أوشك على الحصاد. ورآها صاحب الزرع فكاد يفقد صوابه. وكان بالقرب منه سيف فأخذه وانطلق إلى تلك الناقة التي ترعى في زرعه فعقرها.

وجعلت الناقة تئن وتتوجع، فسمعها صاحبها. وجاء يتبع الصوت مسرعا فرأى ناقته معقورة فغضب غضبا أفقده صوابه وعاد إلى عاقرها.

وأخذ السيف من يده وقطع به يد الفلاح التي عقرت ناقته ثم رمى سيفه عنده وذهب في حال سبيله.

ورأى جيران الفلاح صاحبهم وقد قطعت يده ونزف دمه فمات، فصاحوا صيحة الفزع والاستنفار. وتجمع أهل وشيقر تحت راية أميرهم حديد الذي علم بمقتل أحد رعاياه. وكان الأمير حديد رجلا شجاعا مقداما لا يهاب الموت ولا يتوانى عن مناولة الفرسان.

وتجمع بنو هلال تحت قيادة أبي زيد الهلالي وذياب بن غانم. والتقى الجمعان، وتقارع الفرسان. وكانت الحرب سجالا، تارة تميل الكفة لصالح أهل وشيقر وتارة تميل لصالح بني هلال، وحاول كل فريق أن ينال النصر على أعدائه.

وتقدم الأمير حديد بكل قوته وثقله إلى الجناح الذي يقوده أبو زيد. وجعل يقتل في بني هلال ويفتك بهم فتكا ذريعا. هذا وأبو زيد يتقهقر أمام حديد ولا يشتبك معه في قتال. وظن بنو هلال أن أبا زيد جبن عن لقاء حديد وانهزم أمامه خوفا من سطوته، وما علموا بالعهد الذي أخذه حديد على أبي زيد.

وامتلأت أرض المعركة بالقتلى من الفريقين. وحمي الوطيس. وبدأ فرسان كل فريق يعتزون ويتشجعون، ويشجعون رفاقهم واختل الجناح الذي يقوده أبو زيد من جراء عدم اشتباك أبي زيد بحديد. وتقهقر أبو زيد تقهقرا مريعا حتى خشي بنو هلال من الهزيمة التي ظهرت بوادرها واضحة للعيان.

ورأى ذياب ما حدث في جناح أبي زيد، وعلم أن في الأمر سرا. فأناب عنه في جناحه أحد فرسان بني هلال. وتقدم ذياب حتى صار

وجها لوجه أمام حديد. وتصاول الفارسان وتقارعا بالسيف والسنان. وكان كل واحد منهما كفوا للآخر وندا له.

وبدأت الحرب تقرب من نهايتها، فإما أن يكون النصر لبني هلال، وإما أن يكون لأهل وشيقر. والنصر مربوط الآن بنتائج النزال الذي يخوضه الفارسان، الأمير حديد من جانب أهل وشيقر، والأمير ذياب بن غانم من جانب بني هلال.

واشتد الصراع بين الفارسين. وتطلع كل فريق إلى ذلك الصراع الهائل الذي عليه يتوقف مصير المعركة، وبه يحوز النصر أحد الفريقين. وصار كل فريق يشجع فارسه ويندبه ويوجه إليه كلمات الحماسة والإقدام.

وخشي ذياب أن يلتحم مع خصمه العنيد بين جماعته فيساعدونه فتكون النتيجة لصالح أهل وشيقر. وفكر في مكيدة يخرج بها من ذلك المأزق. واهتدى إليها سريعا؛ فعندما هجم عليه الأمير حديد بكل قوته تظاهر ذياب بالانهزام. وأسرع حديد في أثره يريد القضاء عليه، ولكن ذياب استمر في تقهقره وانهزامه.

ولم يشكَّ أحد من الفريقين في أن حديدا سوف يدرك ذيابا ويقتله. ثم تنتهي هذه المعركة لصالح أهل وشيقر. لكن الذي حدث غير ذلك، فقد استطرد ذياب للأمير حديد حتى أخرجه من بين جماعته. وعندما صار الفارسان بالقرب من رحين، وهما كثيبان من الرمل عاليان، حرف عليه فرسه وضربه بالشلفي حتى نثر حلق درعه. ثم هجم ذياب على حديد هجمة أخرى فضربه بالسيف ولكنها كانت ضربة غير قاتلة.

وصار الأمير حديد بعد هاتين الضربتين يقف موقف المدافع عن نفسه لا موقف المهاجم لخصمه.

وقد علم الأمير حديد بأنه أمام فارس لا يجارى ولا يتبارى في الكرّ والفرّ والهجوم والانهزام.

واتجهت جميع الأنظار إلى الصراع بين الفارسين ولم يطل الانتظار؛ فقد هجم ذياب على خصمه هجمة عنيفة زعزعت ثقته بنفسه، وجعلته في وضع متخاذل لا يملك الانهزام فينجو بنفسه، ولا يملك القوة ليدافع عنها. فلا مفر له إذاً، فليقاتل حتى الموت فذلك أشرف له، وأحسن أحدوثة من أن يقتل وهو مهزوم.

وبدأت الحلقات تضيق حول عنق حديد. وبدأ ذياب يوالي هجماته على خصمه العنيد حتى أرهقه وأفقده السيطرة على نفسه وعلى أعصابه.

عندئذ هجم عليه الهجوم الأخير، فضربه بالسيف ضربة قوية أطاحت به من فوق فرسه وقد انفصل رأسه عن جسده وسقط في ميدان المعركة صريعا.

ورأى هذا المنظر كل من الفريقين المتقاتلين، فكبر بنو هلال وصاحوا صيحة النصر حتى زلزلوا الأرض بأصواتهم.

أما أهل وشيقر فقد تراجعوا إلى الوراء، ودخلوا في بلدهم واحتموا بأسوارها وقلاعها. وكانوا كما يقول المثل الشعبي: "إذا طاح شيخ القوم طفيت نارهم".

وانتهت تلك المعركة العنيفة التي لم يخطط لها، إنما كانت وليدة الصدف السيئة التي تفاجئ القوم في بعض الأحيان وتجرهم إلى مثل تلك المعارك جرا. فلا يملكون أنفسهم عن الاشتراك فيها وإبلاغها نهايتها.

وكان من عادة بني هلال أن يسجلوا تلك المعارك وأحداثها في أشعار

وقصائد تروى ويتناقلها الخلف عن السلف، وذلك لأن الشعر أقرب إلى الحفظ، وهو أبقى أثرًا وأخلد ذكرا وأكثر تأثيرا على العواطف البشرية.

كما أن من عاداتهم الحميدة أن يسجلوا مفاخر خصومهم وأن لا يبخسوهم حقهم، وأن يعلنوا مفاخرهم أيضا ومواقفهم المشرفة على رؤوس الأشهاد. وهذا طبعا من مصلحة بني هلال، لأنه ليس فخرا أن تنازل جبانا فتهزمه، ولكن الفخر أن تنازل بطلا فتقهره.

وعلى هذا النهج من طريقة بني هلال فقد سجل شاعرهم أحداث هذه المعركة في قصيدة شعرية لا تزال تتناقلها الرواة جيلا بعد جيل، مستشهدين بها على الأحداث والوقائع التي جرت بين بني هلال وبين ما يحاربونهم، من أبطال الرجال.

وهذه القصيدة قد تكون طويلة، مليئة بالمفاخر والمحامد، طافحة بالأمجاد والبطولات. ولكن الذي أبقى لنا الدهر منهالاً هو هذه الأبيات التالية:

قال شاعر بني هلال يصف تلك المعركة الحامية الوطيس، ويذكر مزايا كل فريق:

وردنـــاك يا عد يســـمى وشـــيقر وصدرنا ضمايا والشـــراب وجيد
وهد لنـــا من نايـــد المـــال بكره وعقرها مـــن لا راية عليه ســـديد
وجـــازاه عمـــار الهتيمـــي بمثلها وقطع ساعده في الحال بالسيف وكيد
وصاحوا وصحنا واشتبكنا بجمعهم وصـــارت الطرحا بينـــا مالها عديد
إلـــين حدّونـــا لجينـــا بســـلامة وإلـــين حديناهـــم لجـــو بحديـــد
حديد يحـــد الخيل بذويـــرع القنا يعـــدي علـــى فرســـاننا ويزيـــد
ثم اطـــرد قدمـــه ذياب بـــن غانم وذبحه تحت هـــاك العـــدام وحيد
طعنـــه بشـــلف صنعة ابـــن جبارة تـــودع حلاقـــين الـــدروع بديد

وعند هذا انتهى الراوي من روايته وتوقف عند هذا الحد، ولكن الأحداث لم تنته بعد، بل بقيت تتوالى كالسلسلة التي لا يعرف أين طرفاها.

الخادم الفصيح

حدّث أبو العيناء قال:

كان سبب خروجي من البصرة وانتقالي عنها أني مررت بسوق النخاسين يومًا، فرأيت غلاما ينادي عليه وقد بلغ ثلاثين دينارًا فاشتريته.

وكنت أبني دارًا فدفعت إليه عشرين دينارا على أن ينفقها على الصناع، فجاءني بعد أيام يسيرة فقال:

– قد نفدت النفقة.

فقلت: هات حسابك.

فرفع حسابا بعشرة دنانير، فقلت:

– أين الباقي؟

قال: قد اشتريت به ثوبا لنفسي.

قلت: من أمرك بهذا؟

قال: لا تعجل يا مولاي، فإن أهل المروءة لا يعيبون على غلمانهم إذا فعلوا فعلا يعود بالزين على مواليهم.

فقلت في نفسي: أنا اشتريت الأصمعي ولم أعلم.

وكانت هناك امرأة أردت أن أتزوجها سرًّا من ابنة عمي.

فقلت له يوما: أفيك خبراً؟

قال: أي لعمري.

فأطلعته على الخبر.

فقال: أنا نعم العون لك.

فتزوجتُ المرأة ودفعت إليه دينارا، وقلت له:

- اشتر لنا بعض السمك الهازبي.

فمضى ورجع وقد اشترى سمكا من نوع آخر، فغاظني ذلك، فقلت:

- أليس أمرتك أن تشتري سمكًا هازبيا!؟

قال: بلى، ولكن رأيت بقراط يقول إن هازبي يولد مرض السوداء وهذا سمك أقل ضررا.

فقلت: يا ابن الفاعلة! أنا لم أعلم أني اشتريت "جالينوس" (طبيب إغريقي) وقمت إليه فضربته عشر مقارع، فلما فرغت من ضربه، أخذني وأخذ المقرعة وضربني سبع مقارع، وقال:

- يا مولاي، الأدب ثلاث، والسبع فضل، وذلك قصاص، فضربتك هذه السبع خوفا من القصاص يوم القيامة.

فغاظني هذا، فرميته فشججته فمضى من وقته إلى ابنة عمي، وقال لها:

- يا مولاتي إن الدين النصيحة وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: مَن غشنا فليس منا. وأنا أعلمكِ أن مولاي قد تزوج فاستكتمني فلما قلت له: لا بد من تعريف مولاَتي الخبر ضربني بالمقارع وشججني.

فمنعتني بنت عمي من دخول الدار وحالت بيني وبين ما فيها، ووقعنا في تخبيط، فلم أرَ الأمر يصلح إلا بأن طلقت المرأة التي تزوجتها.

فصلح أمري مع ابنة عمي وسمت الغلام الناصح ولم يتهيأ لي أن أكلمه فقلت: أعتقه وأستريح فلعله يمضي عني.

فلما عتقته لزمني وقال:

- الآن وجب حقك علي.

ثم إنه أراد الحج فجهزته وزودته وخرج فغاب عني عشرين يوما ورجع، فقلت له:

- لِمَ رجعت؟ فقال: قطع الطريق بي وفكرت فإذا الله تعالى يقول: «ولله عَلى الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا» وكنت غير مستطيع، وفكرت فإذا حقك أوجب فرجعت.

ثم إنه أراد الغزو، فجهزته، فما غاب عني بعت كل ما أملك بالبصرة من عقار وغيره، وخرجت عنها خوفا أن يرجع.

حلاوة اللسان

قال متمم العبدي:

خرجت من مكة زائرا لقبر النبي فإني لبقرية على الطريق، إذا جويرية تسوق بعيرا وتترنم بصوت مليح طيب حلو في هذا الشعر:

ألا أيها البيتُ الذي حِيل دونه... بنا أنت من بيتٍ وأهلُك من أهل.

فقلت: لمن هذا الشعر يا جويرية؟

قالت: أما ترى تلك الكوة الموقاة بالكلة الحمراء؟

قلت: أراها.

قالت: من هناك نهض هذا الشعر؟

قلت: أو قائله في الأحياء.

قالت: هيهات، لو أن لميت أن يرجع لطول غيبته لكان ذلك.

فأعجبتني فصاحة لسانها ورقة ألفاظها، فقلت لها:

- ألك أبوان؟

فقالت: فقدت خيرهما وأجلهما ولي أم.

قلت: وأين أمك؟

قالت: منك بمرأى ومسمع

قال: فإذا امرأة تبيع الخرز على ظهر الطريق فأتيتها.

فقلت: يا أمتاه استمعي مني.

فقالت لها: يا أمّه فاستمعي من عمي ما يلقيه إليك.

فقالت: حياك الله، هيه هل من خبر؟

قلت: أهذه ابنتك؟

قالت: كذا كان يقول أبوها.

قلت: أفتزوجينها؟

قالت: ألعلة رغبت فيها؟ فما هي والله من عندها جمال ولا لها مال.

قلت: لحلاوة لسانها و حسن عقلها.

فقالت: أينا أملك بها؟ أنا أم هي بنفسها؟

قلت: بل هي بنفسها.

قالت: فإياها خاطب.

فقلت: لعلها تستحي من الجواب في مثل هذا.

فقالت: ما ذاك عندها، أنا أخبر بها.

فقلت: يا جارية، أما تستمعين ما تقول أمك؟

قالت: قد سمعت.

قلت: فما عندك؟

قالت: أوليس حسبك أن قلت إني أستحي من الجواب في مثل هذا فإن كنت أستحي في شيء فلم أفعله؟ أتريد أن تكون الأعلى وأكون بساطك؟ لا والله لا يشد علي رجل حواءه وأنا أجد مذقة لبن أو بقلة ألين بها معاي.

فقلت في نفسي: هذا والله أعجب كلام على وجه الأرض. ثم قلت:

- أتزوجك و الإذن فيه إليك، وأعطي الله عهدا أني لا أقربك أبدا إلا عن إرادتك.

قالت: إذا والله لا تكون لي في هذا إرادة أبدا، ولا بعد الأبد إن كان بعده بعد.

فقلت: فقد رضيت بذلك.

فتزوجتها، وحملتها وأمها معي إلى العراق وأقامت معي نحو ثلاثين سنة ما ضممت عليها حِواي قط. و كانت قد علقت من أغاني المدينة أصواتا كثيرة، فكانت ربما ترنمت بها فأشتهيها، فقلت:

- دعيني من أغانيك هذه فإنها تبعثني على الدنو منك.

قالت: فما سمعتها رافعة صوتها بغناء بعد ذلك حتى فارقت الدنيا، وإن أمها عندي حتى الساعة.

مصرع ثلاثة عشاق في يوم واحد

كانت فتاة جميلة الوجه تهوى شابا لطيفا للغاية. وكان الشاب يهوى قينة بديعة الصوت فتانة الملامح لها معرفة بتلك الفتاة. فبينما كانت تلك القينة في مجلس مع الشاب أنشدت له هذين البيتين:

علامات ذل الهوى على العاشقين البكا
ولا سيما عاشق إذا لم يجد مشتكى

فقال لها الشاب: أحسنت يا سيدتي أفتأذنين لي أن أموت؟

فقالت له القينة: نعم إن كنت عاشقا فمت.

فوضع الشاب رأسه على وسادة وأغمض عينيه، فحركوه فإذا به ميت. ولما سمعت الفتاة التي تهواه بخبر موت حبيبها توسدت على منواله فحركوها فإذا بها ميتة. فجهزوها مع الشاب وساروا في جنازتهما. فبينما هم في الطريق رأوا جنازة ثالثة فسألوا عنها فإذا هي جنازة القينة. فدفنوا الثلاثة في يوم واحد.

غسان بن جهضم وزوجته أم عقبة

كان غسان بن جهضم مفتونا بحب ابنة عمه أم عقبة، وكانت من أجمل النساء وأحسنهن وأفضلهن خصالا. فلما حضرته الوفاة جعل ينظر إليها ويبكي. ثم قال لها: إني منشدك أبياتًا أسألك فيها عما تصنعين بعدي وأرجوك أن تصدقيني.

فقالت: قل فوالله لا أكذبك أمرا، فأنشد:

أخبري بالذي تريدين بعدي   تحفظيني من بعد موتي لما قد
أم تريدين ذا جمال ومال   ما الذي تضمرين يا أم عقبة
كان مني من حسن خلق وصحبة   وأنا في التراب رهن سجن وغربة

فأجابته:

قد سمعنا الذي تقول وما   خفته يا خليل من أم عقبة
قد سوف أبكيك ما حييت شجوا   بمراث أقولها وبندبه

فقال:

أنا والله واثق بك لكن   ربما خفت منك غدر النساء
عد موت الأزواج يا خير من عو   شر فارعي حقي بحسن وفاء
إنني قد رجوت أن تحفظي العهد   فكوني إن مت عند رجائي

فلما مات، توافد عليها الخطاب، فقالت:

سأحفظ غسانا على بُعد داره   وأرعاه حتى نلتقي يوم نحشر
وإني لفي شغل عن الناس كلهم   فكفوا فما مثلي من الناس يغدر
سأبكي عليه ما حييت بعبرة   تسيل على الخدين مني فيكثر

قلما طالت الأيام وكثر إلحاح الناس أجابت الخاطب. فلما كانت الليلة التي زفت بها جاءها غسان في النوم فأنشد:

غـدرت ولم ترعي لبعلك حرمة   ولم تعرفي حقا ولم تحفظي عهدا
ولم تصبري حولا حفاظا لصاحب   حلفت له يوما ولم تنجزي وعدا
غـــدرت بــه لمــا ثــوي في ضريحه   كذلك يُنسي كل من سكن اللحــدا

فانتبهت مرعوبة كأنها كان معها. فقالت لها النساء:

- ما دهاك؟

قالت: ما ترك غسان لي في الحياة إربا ولا في السرور رغبة، أتاني في المنام فأنشدني هذه الأبيات.

ثم جعلت ترددها وتبكي، فشاغلتها بالحديث. فلما غفلن عنها أخذت شفرة فذبحت نفسها ووفت لزوجها.

حكاية المعتضد والمال المسروق

مما ذكر من خبر الخليفة العباسي المعتضد وحزمه في الأمور وحيله، أنه أطلق من بيت المال لبعض الرسوم في الجند عشر بِدَر (كيس به عشرة آلاف درهم)، فحُملت إلى منزل صاحب عطاء الجيش ليصرفها فيهم. فنُقب منزله في تلك الليلة، وأخذت العشر بِدَر. فلما أصبح نظر إلى النّقب ولم ير المال، فأمر بإحضار صاحب الحرَس، وقال له:

- إن هذا المال للسلطان والجند، ومتى لم تأت به أو بالذي نقبه وأخذ المال، ألزمك أمير المؤمنين غرمة.

فجد في طلبه، وأحضر التوابين والشرط - التوابون هم شيوخ اللصوص الذين كبروا وتابوا، فإذا جرت حادثة عملوا من فهل من هي فدلوا عليه، وربما يتقاسمون واللصوص ما سرقوه - فتقدم إليهم في الطلب. وتهددهم وأوعدهم. فتفرق القوم في الدروب والأسواق والمواخير، ودور القمار، فما لبثوا أن أحضروا رجلا نحيفا ضعيف الجسم، رث الكسوة، فقالوا:

- يا سيدي، هذا صاحب الفعلة، وهو غريب من غير هذا البلد.

فأقبل عليه صاحب الحرس، فقال له:

- ويلك! من كان معك؟ ما أظنك تقدر على عشر بِدر وحدك في ليلة.

فما زاده على إنكار شيء. فأقبل يترفق به، وبعده أن يرزقه ويعظم جائزته، ويتوعده بكل مكروه، وهو على إنكاره. فلما غاظه ذلك ويئس من إقراره، أخذ في عقوبته، وضربه بالسوط على ظهره وبطنه ورأسه وأسفل رجليه وكعابه، حتى لم يكن للضرب فيه موضع. وبلغ به ذلك إلى حالة لا يعل فيها ولا ينطق، ولم يقرّ بشيء.

وبلغ ذلك المعتضد، فأحضر صاحب الجيش، وقال له:

- ويلك! تأخذ لصا قد سرق من بيت المال عشر بدر، فتبلغ به الموت والتلف حتى يهلك الرجل ويضيع المال؟ فأين حيل الرجال؟ أحضرني الرجل.

فأتى به، وسأله فأنكر، فقال له:

- ويلك، إن مت لم ينفعك، وإن برئت من هذا الضرب ونجوت لم أدعك تصل إليه. فلك الأمان والضمان على ما تُصلح به حالتك.

فأبى إلا الإنكار. فقال المعتضد:

- عليّ بأهل الطب.

فأحضروا. فقال:

- خذوا هذا الرجل إليكم، فعالجوه بأرفق العلاج، وواظبوا عليه بالمراهم والغذاء، واجتهدوا أن تبرئوه في أسرع وقت.

فأخذوه إليهم، حتى صح وقوي جسمه، وظهر لونه، ورجعت إليه نفسه.

ثم أمر المعتضد بإحضاره، فلما حضر بين يديه سأله عن حاله، فدعا وشكر، وقال:

- أنا بخير ما أبقى الله أمير المؤمنين.

ثم سأله عن المال، فعاد إلى الإنكار. فقال له:

لست تخلو من أن تكون أخذته وحدك كله، أو وصل إليك بعضه. فإن كنت أخذته كله فإنك تنفقه في أكل وشرب ولهو، ولا أظنك تفنيه قبل موتك، وإن مت فعليك وزره. وإن كنت أخذت بعضه سمحنا لك به، فأقر لنا به وأقر أصحابك، فإني أقتلك إن لم تقر، ولا ينفعك بقاء المال بعدك، ولا يبالي أصحابك بقتلك. ومتى أقررت دفعت إليك عشرة آلاف درهم، ورسمتك من التوابين، وأجريت لك في كل شهر عشرة دنانير تكفيك لأكلك وشربك وكسوتك وطيبك، وتنجو من القتل، وتتخلص من الإثم.

فأبى إلا الإنكار. فاستحلفه فحلف. وأظهر له مصحفا واستحلفه فحلف عليه. فقال المعتضد:

إني سأجد المال، فإن أنا وجدته بعد هذه اليمين قتلتك.

فأبى إلا الإنكار. قال له:

- فضع يدك على رأسي واحلف بحياتي.

فوضع يده على رأسه وحلف بحياته أنه ما أخذه، وأنه مظلوم متهم، وأن التوابين قد تبرؤوا به. فقال له المعتضد:

فإن كنت قد كذبت قتلتك وأنا بريء من دمك؟

قال: نعم.

فأمر الخليفة بإحضار ثلاثين عبد أسود، وأمرهم أن يتناوبوا في

ملازمته، فأتت عليه أيام وهو قاعد لا يتكئ ولا يستند ولا يستلقي ولا يضطجع، وكلما نعس ضُرب على رأسه. حتى إذا ضعف وقارب التلف، أمر المعتضد بإحضاره فأعاد عليه ما كان خاطبه به، فحلف أنه ما أخذ المال، ولا يعرف من أخذه. فقال المعتضد لمن حضر:

- قلبي يشهد أنه بريء، وأن ما يقوله حق.

ثم أمر بإحضار مائدة عليها طعام، وأحضر بارد الشراب، وأمره بالجلوس. فأقبل يأكل ويشرب، ويحث على الأكل ويُلقم ويعاد الشارب عليه ويكرر، حتى لم يبق للأكل والشرب موضع. ثم أمر ببخور وطيب، فبُخر وطُيب. وأتي له بحشية ريش فوطئ له ومُهد. فلما استلقى واستراح وغفا، أمر المعتضد بإزعاجه وسرعة إيقاظه. فحُمل من موضعه حتى أقعد بين يديه وفي عينيه الوسن، فقال له:

- حدثني كيف صنعت؟ وكيف نقبت؟ ومن أين خرجت؟ وإلى أين ذهبت بالمال؟ ومن كان معك؟

قال:

ما كنت إلا وحدي، وخرجت من النقب الذي دخلت منه، وكان مقابل الدار الحمام له كوم شوك يوقد به، فأخذت المال، ورفعت ذلك الشوك فوضعته تحته وغطيته، وهو هنالك.

فأمر برده إلى فراشه، فردوه وأضجعوه عليه، ثم أمر بإحضار المال، فأحضر عن آخره، وأحضر صاحب الحرس والوزير والجلساء، وقد غطي المال بالبساط ناحية من المجلس. ثم أمر بإيقاظ اللص وقد اكتفى من النوم وذهب عنه الوسن، فقال له بحضرة الجميع مثل قوله الأول، فجحد وأنكر. فأمر بكشف البساط، وقال له:

- أليس هذا المال؟ ألم تفعل كذا وكذا؟ يصف له ما حدثه به. فأسقط في يد اللص. ثم أمر فقبض على يديه ورجليه وأوثق، ثم أمر بمفتاح فنفخ في دُبُره وأتي فحشي في أذنيه وفمه وأنفه، وأقبل ينفخ وقد خلى عن يديه ورجليه من الوثاق، وأمسك بالأيدي وقد صار كأعظم ما يكون من الزقاق المنفوخة، وقد ورم سائر أعضائه وعظم جسمه، وعيناه قد امتلأتا وبرزتا. فلما كاد أن ينشق أمر بعض الأطباء فضربه في عرقين فوق الحاجبين، فأقبلت الريح تخرج منهما مع الدم ولها صوت وصفير، إلى أن خمد ومات.

كتمان المعروف

أراد جعفر البرمكي يوماً حاجة كان طريقه إليها على باب الأصمعي، وأنه دفع إلى خادم له كيساً فيه ألف دينار وقال له:

- سأنزل إلى الأصمعي، وسيحدثني ويضحكني؛ فإذا رأيتني قد ضحكت فضع الكيس بين يديه. فلما دخل رأى جرة مكسورة العروة وقصعة مشعبة.

ورآه على مصلى بال وعليه بركان أجردٍ. فغمز جعفر غلامه بعينه ألا يضع الكيس بين يديه ولا يدفع إليه شيئاً.

فلم يدع الأصمعي شيئاً مما يضحك الثكلان والغضبان إلا أورده عليه، فما تبسم جعفر.

فقال له إنسان:

- ما أدري من أي أمرَيْكَ أعجب؛ أمن صبرك على الضحك وقد أورد عليك ما لا يصبر على مثله، أم من تركك إعطاءه وقد كنت عزمت على إعطائه؟ وهذا خلاف ما أعرفك به!

قال جعفر: ويلك! إني والله لو علمت أنه يكتم المعروف بالفعل لما احتفلت بنشره له باللسان. وأين يقع مديح اللسان من مديح آثار الغنى على الإنسان؟ فاللسان قد يكذب والحال لا تكذب. فلست بعائد إلى هذا بمعروفٍ أبدا.

حكاية السفاح وزوجته وخالد بن صفوان

دخل خالد بن صفوان على الخليفة أبي العباس السفاح فوجده خاليا، فقال:

- يا أمير المؤمنين، أنا أترقب مذ تقلدت الخلافة أن أجدك خاليا فألقي إليك ما أريده.

قال: فاذكر حاجتك.

قال: يا أمير المؤمنين، إني فكرت في أمرك فلم أر من هو مثل قدرك أقل استمتاعا بالنساء. وقد ملكتْ على نفسك امرأة واحدة، واقتصرتَ عليها فإن مرضتْ مرضتَ، وإن غابت غبت، وإن غضبت حرمت. وإنما التلذذ باستطراف الجواري، ومعرفة اختلاف أحوالهن، والاستمتاع بهن. فلو رأيت الطويلة البيضاء والسمراء اللقاء، والصفراء العجزاء، والغنجة الكحلاء، والمولدات من المدنيات، والملاح من القُندهاريات ذوات الألسن العذبة، والقدود المهفهفة، والثدي المحققة.

وجعل خالد بعذوبة لفظه واقتداره على الوصف يزيد في قوله. فلما فرغ من كلامه، قال السفاح له:

- والله يا خالد ما سلك سمعي قط كلام أحسن من هذا. لقد حرّك مني ساكنا.

وبقي السفاح مفكرا عامة نهاره. ثم دخلت عليه زوجته أم سلمة،

فلما رأته دائم الفكر، كثير السهو، قليل النشاط، قالت:

- إني أنكرك يا أمير المؤمنين، فهل حدث ما تكرهه؟

ولم تزل به حتى حدثها بخبر خالد بن صفوان.

قالت: فما قلت لابن الفاعلة؟

قال لها: سبحان الله! رجل نصحني تسبينه؟

فخرجت من عنده متميزة غضبا، وأرسلت إلى خالد بجماعة من غلمانها العجم ومعهم العصا، وأمرتهم ألا يتركوا فيه عضوا صحيحا.

أما خالد فقد انصرف من عند السفاح وهو على غاية السرور بما رأى الخليفة عليه من الإعجاب بحديثه، وقعد على باب داره يتوقع جائزته. فلم يشعر إلا بالغلمان، وتحقق مجيئهم بالجائزة. فلما وقفوا على رأسه سألوه عن ابن صفوان، فقال: هاأنذا. فأهوى بعضهم بهراوته إليه. فوثب خالد ودخل داره، وغلق بابه واستتر، وعرف هفوته وزلته في فعله وكلامه، وعلم من أين أتي.

ثم إنه مكث أياما مستترا. فلم يشعر ذات يوم إلا بجماعة من خدم السفاح قد هجموا عليه، فقالوا:

- أجب أمير المؤمنين.

فأيقن بالهلكة، وركب معهم وهو بلا دم. فلما دخل عليه وسلم فرد عليه، سكنت نفسه بعض السكون. وأومأ إليه بالجلوس فجلس.

ونظر خالد، فإذا خلف ظهر السفاح باب عليه ستور قد أرخيت وأحس بحركة خلفه.

ثم قال الخليفة: يا خالد، لم أرك منذ أيام.

فاعتل عليه وقال له:

- ويحك! إنك وصفت لي آخر يوم كنت عندي فيه من أمر النساء والجواري ما لم يخرق سمعي قط مثله. فأعده عليّ.

قال: نعم. أعلمتك يا أمير المؤمنين أن العرب اشتقت اسم الضرتين من الضر وأن أحدهم لم يكن عنده من النساء أكثر من واحدة إلا كان في جهد وكد.

قال السفاح:

- ويحك، لم يكن هذا في كلامك.

قال: بلى، وأخبرتك أن الثلاث من النساء كأثافي القدر تغلي عليهن.

قال السفاح: برئت من قرابتي من رسول الله إن كنت سمعت هذا منك في حديث.

قال: بلى، وأخبرتك أن الأربع من النساء شر مجموع لمن كن عنده يُهزمنه ويُنغصن عليهن عليه عيشه ويُشيبنهُ قبل حينه.

قال السفاح: والله ما سمعت هذا قط منك ولا من غيرك.

قال: بل يا أمير المؤمنين لقد قلت.

قال: ويلك، تكذبني؟

قال: يا أمير المؤمنين، فتريد قتلي؟

فسُمع ضحك شديد وراء الستر. فقال خالد:

- وأعلمتك أن عندك ريحانة قريش، وأنه لا يجب أن تطمح نفسك إلى غيرها من النساء.

فسُمع من وراء الستر صوت يقول:

صدقت والله يا عماه، ولكن أمير المؤمنين غيّر وبدّل، ونطق عن لسانك بغير ما ذكرته.

وخرج خالد إلى منزله، فلم يصل إليه حتى وجهت إليه أم سلمة ثلاثة تخوت فيها أنواع الثياب، وخمسة آلاف درهم.

الأخوان والحية

حج الخليفة عبد الملك بن مروان في بعض أعوامه، فخطب في أهل المدينة وقال:

- مَثَلُنَا ومثلكم أن أخوين في الجاهلية خرجا مسافرين، فنزلا في ظل شجرة تحت صَفَاة، فلما دنا الرواح خرجت إليهما من تحت الصفاة حية تحمل ديناراً فألقته إليهما، فقالا:

- إن هذا لمن كنز.

فأقاما عليها ثلاثة أيام، كل يوم تخرج إليهما ديناراً، فقال أحدهما لصاحبه:

- إلى متى ننتظر هذه الحية؟ ألا نقتلها ونحفر هذا الكنز فنأخذه.

فنهاه أخوه، وقال له:

- ما تدري لعلك تعطب ولا تدرك المال.

فأبى عليه، وأخذ فأساً معه ورَصَدَ الحية حتى خرجت، فضربها ضربة جرحت رأسها ولم تقتلها، فثارت الحية فقتلته، ورجعت إلى جحرها.

فقام أخوه فدفنه، وأقام حتى إذا كان من الغد خرجت الحية معصوباً رأسها ليس معها شيء، فقال لها:

- يا هذه، إني والله ما رضيت ما أصابك، ولقد نهيت أخي عن ذلك،

فهل لك أن نجعل الله بيننا أن لا تضريني ولا أضرك، وترجعين إلى ما كنت عليه؟

قالت الحية: لا

قال: ولم ذلك؟

قالت: إني لأعلم أن نَفْسَكَ لا تطيب لي أبداً وأنت ترى قبر أخيك، ونفسي لا تطيب لك أبداً وأنا أذكر هذه الشجَّة.

فيا أهل المدينة، وليُّكم عمر بن الخطاب كان فَظًّا غليظًا مُضَيِّقًا عليكم، فسمعتم له وأطعتم، ثم وليكم عثمان كان سهلاً لينًا كريمًا فعدوتم عليه فقتلتموه، وبعثنا عليكم مسلماً يوم الحرة فقتلتموه، فنحن نعلم يا معشر قريش أنكم لا تُحِبُّوننا أبداً وأنتم تذكرون يوم الحرة، ونحن لا نحبكم أبداً ونحن نذكر مقتل عثمان.

في هذه الدنيا مَن هو أجود منك

قال معن بن زائدة:

– لما انتقلت الدولة إلى بني العباس، جد المنصور في طلبي وجعل لمن يحملني إليه مالا. فاضطررت لشدة الطلب إلى أن تعرضت للشمس حتى لوحت وجهي، وخففت عارضي، ولبست جبة صوف، وركبت جملا وخرجت متوجها إلى البادية لأقيم بها.

فلما خرجت من باب حرب، وهو أحد أبواب بغداد، تبعني أسود متقلد بسيف، حتى إذا غبت عن الحرس قبض على خطام الجمل فأناخه، وقبض على يدي. فقلت له: ما بك؟

فقال: أنت طلبة أمير المؤمنين.

فقلت: ومن أنا حتى أُطلب؟!

قال: أنت معن بن زائدة.

فقلت له: يا هذا، اتق الله، وأين أنا من معن؟

فقال: دع هذا، فوالله إني لأعرف بك منك.

فلما رأيت منه الجد، قلت له:

– هذا جوهر قد حملته معي بأضعاف ما جعله المنصور لمن يجيئه بي. فخذه ولا تكن سببا في سفك دمي.

قال: هاته.

فأخرجته إليه، فنظر فيه ساعة وقال:

صدقت في قيمته، ولست قابله حتى أسألك عن شيء، فإن صدقتني أطلقتك.

فقلت: قل.

قال: إن الناس قد وصفوك بالجود. فأخبرني، هل وهبت مالك كله قط؟

قلت: لا.

قال: فنصفه؟

قلت: لا.

قال: فثلثه؟

قلت: لا.

حتى بلغ العُشر، فاستحييت وقلت:

- أظن أني فعلت هذا.

قال: وما ذاك بعظيم. أما عني فرزقي من الخليفة كل شهر عشرون درهما. وهذا الجوهر قيمته ألوف الدنانير. وقد وهبته لك، ووهبتك لنفسك ولجودك المأثور بين الناس، ولتعلم أن في هذه الدنيا من هو أجود منك. فلا تعجبك نفسك، ولتحقر بعد هذا كل جود فعلته، ولا تتوقف عن مكرمة.

ثم رمى العقد في حجري، وترك خطام الجمل، وولى منصرفا.

فقلت: يا هذا، قد والله فضحتني، ولسفك دمي أهون علي مما فعلت. فخذ ما دفعته لك فإني غني عنه.

فضحك وقال:

- أردت أن تكذبني في مقالي هذا؟ والله لا أخذته ولا آخذ لمعروف ثمنا أبدا.

ومضى في سبيله.

فوالله لقد طلبته بعد أن أمنت ووليت بلاد اليمن، وبذلت لمن يجيئ به ما شاء، فما عرفت له خبرا، وكأن الأرض ابتلعته.

الضَّرَّة

تزوج والدي الشيخ حسن الجبرتي بنت رمضان جلبي. وكانت به بارة وله مطيعة. ومن جملة برها له وطاعتها أنها كانت تشتري له من السراري الحسان من مالها، وتنظمهن بالحلي والملابس، وتقدمهن إليه، وتعتقد حصول الأجر والثواب لها بذلك. وكان يتزوج عليها كثيرا من الحرائر، ويشتري الجواري، فلا تتأثر من ذلك ولا يحصل عندها ما يحصل في النساء من الغيرة.

ومن الوقائع الغريبة أنه لما حجّ في سنة 1156 هـ. واجتمع به الشيخ عمر الحلبي بمكة، أوصاه الحلبي بأن يشتري له جارية بيضاء تكون بكرا دون البلوغ، وصفتها كذا وكذا. فلما عاد من الحج طلب اليسرجية الجواري لينتقي منهن المطلوب. فلم يزل حتى وقع على الجارية فاشتراها، وأدخلها عند زوجته المذكورة حتى يرسلها مع من أوصاه بإرسالها صحبته.

فلما حضر وقت السفر أخبرها بذلك، فقالت:

إني أحببت هذه الوصيفة حبا شديدا، ولا أقدر على فراقها، وليس لي أولاد وقد جعلتها مثل ابنتي.

وبكت الجارية أيضا، وقالت:

– لا أفارق سيدتي، ولا أذهب من عندها أبدا.

فقال: وكيف يكون العمل؟

قالت: أدفع ثمنها من عندي، واشتر أنت غيرها.

ففعل.

ثم إنها أعتقتها، وعقدت لزوجها عليها، وجهزتها وفرشت لها مكانا على حدتها. وبنى بها والدي في سنة 1165. وكانت لا تقدر على فراقها ساعة مع كونها صارت ضرتها وولدت له أولادا.

فلما كان في سنة 1182، مرضت الجارية، فمرضت لمرضها وثقل عليهما المرض. فقامت الجارية في ضحوة النهار، فنظرت إلى مولاتها وكانت في حالة من الإغماء، فبكت وقالت:

- إلهي إن كنت قدّرت موت سيدتي، إجعل يومي قبل يومها.

ثم رقدت، وماتت تلك الليلة، فأضجعوها بجانبها. فاستيقظت مولاتها آخر الليل، وجستها بيدها، وصارت تقول:

- زليخا! زليخا!

فقالوا لها: إنها نائمة.

فقالت:

- إن قلبي يحدثني أنها ماتت، ورأيت في منامي ما يدل على ذلك

فقالوا لها: حياتك الباقية.

فقامت وهي وتقول:

- لا حياة لي بعدها.

وصارت تبكي وتنتحب حتى طلع النهار، وغسلوها بين يديها

وشالوا جنازتها.

ورجعت هي إلى فراشها، وماتت آخر النهار. وخرجوا بجنازتها في اليوم التالي.

وهذا من أعجب ما شاهدته ورأيته ووعيته. وكان سني إذ ذاك أربع عشرة سنة.

محمد بن عبدالله بن طاهر والجارية والمتوكل

بينما كان محمد بن عبد الله بن طاهر في الحج، رأى في الطواف جارية في نهاية الحسن، فوقع حبها في قلبه. فعمل على أخذها له وعاد إلى حيث كان. فلما قدم مدينة دار السلام شغف بها شغفا شديدا، وأخفى أمرها وما يجده خوفا من أمير المؤمنين المتوكل. وكان من شدة وجده بها يحتبس عندها أياما لا يظهر للناس في خلالها. ففطن إليه شويد ابن أبي العالية صاحب البريد. وكان بينه وبين محمد منافرة لم يجد لها كيدا إلا أن كتب إلى المتوكل وهو نازل على أربعة فراسخ من بغداد كتابا نصه: « بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد يا أمير المؤمنين فإن محمد بن عبد الله بن طاهر اشترى جارية حسناء لا يفارقها أبدا، وقد اشتغل بها عن النظر في أمور الناس وعن التوقيع في دعاوى المظلومين. ولا يأمن أمير المؤمنين من خراب يصيب بغداد مع كثرة ما فيها من الغوغاء. فتكون العائدة سببا لتعب سره». ثم ختم الكتاب وسلمه إلى بعض المماليك فأوصله إليه. فلما قرأ المتوكل ذاك الكتاب نظر إلى نرجس الخادم وقال له:

- إمض الساعة إلى محمد بن عبد الله بن طاهر، وادخل إلى منزله بغتة من غير إذَن، وانظر إلى ما يصنع، ثم خذ منه جاريته فلانة وائت بها من غير تأخير.

فحضر نرجس من ساعته ودخل على محمد بن طاهر دون أن يطلب الإذن. فلم يشعر محمد إلا وهو واقف أمامه، فتغير وجهه وامتقع لونه

وفاضت عيناه وارتعدت فرائصه لعلمه أن نرجسا ما دخل عليه من غير إذن إلا وقد أضمر له السوء. فقال:

- يا نرجس ما الذي أتى بك؟

قال: أمير المؤمنين أمرني أن آخذ هذه.

قال: يا نرجس هذا اليوم قد حضر شره وغاب خبره، وقد ترى ما نحن فيه، وأنا لا أخالف ما أمر به أمير المؤمنين.

ثم أمر للخادم بكرسي فجلس عليه بعد أن امتنع ساعة، وقال إن مثلي لا يجلس مع مثلك. ثم إن محمدا نظر إلى الجارية وبكى بكاءا شديدا وقال لها: إني لأتزود منك.

فأخذت العود وغنت بصوت حزين:

لله مَـــن لمــعــذبــين رمــاهمــا بـشـماتـة الــعــذال والحــســاد
أمــا الرحيل فــإني جد تحملت منهج النفوس به من الأكباد
من لم يبت والبين يصدع شمله لم يــدر كيف تفتت الأكـبـاد

ثم أنهما أعلنا بالبكاء والنحيب والشهيق، فرحمهما الخادم ورق لهما حين عاين ما حل بهما، فقال:

- أيها الأمير إن رأيت أن أمضي وأدعكما على ما أنتما عليه، وأتعلل عنكما لأمير المؤمنين فعلت.

فقال: يا نرجس من خلفه مثل أبي سويد، كيف يمكنه التعلل؟ ولكن أرفق بنا.

فقالت الجارية: والله يا سيدي لا ملكني غيرك أبدا، ولئن دفعتني إليه

لأقتلن نفسي.

فقال لها محمد: لو كان غير أمير المؤمنين لكان في ذلك أوسع حيلة. ولقد وددت أن يأخذ أمير المؤمنين جميع ما أملك ويعزلني عن عملي ويبيعك لي، ولكن هذا قضاء الله وقدره.

ثم التفت إلى نرجس وقال: لقد شاهدت مني ومن هذه الجارية ما شهد قلبك علينا بالمحبة والمودة والإلفة، وليس يخفي عليك أن عمل المعروف يقي مصارع السوء، ومثلك من يصنع المعروف مع مثلي، فخذها وامض بها إلى أمير المؤمنين وقل ما شئت مما يليق بمروءتك.

ثم التفت إليها وقبلها وبكى وبكت وبكى نرجس. ثم أخذها وخرج وهي تبكي وتخمش وجهها. ثم سار حتى دخل بها على أمير المؤمنين.

فلما رآه قال: ما وراءك؟

قال: ورائي يا أمير المؤمنين كل بلية.

ثم إنه جلس بين يديه وقص عليه حالهما ولم يخف شيئا.

فقال المتوكل: كل هذا الوجد يجده محمد من هذه الجارية.

فقال: يا أمير المؤمنين والذي خفي أكثر مما ظهر وما أظنه يعيش بعدها.

فرقّ له قلب المتوكل وقال: يا نرجس إرجع بها إليه الساعة من وقتك هذا، وأدركه قبل أن تزهق روحه، وقد أمرت له بمائة ألف درهم، ولها مع ذلك مثله، وجعلت أمر أبي سويد إليه يصنع به ما يشاء.

ثم كتب له توقيعا بذلك دفعه إلى نرجس. فرجع الخادم بالجارية

والتوقيع ولم يتمهل حتى دخل عليه، فوجده عريانا يتقلب على الثرى من شدة الكرب والوجد، وقد أحدقت به الجواري يروحنه بالمراوح، فقال:

- أبشر يا محمد إن أمير المؤمنين قد رد جاريتك عليك من غير أن يوقع نظره عليها، وقد حكمك في أبي سويد. ثم ناوله التوقيع بذلك ودخلت الجارية عليه.

فوثب إليها وعانقها وقبلها ساعة، ثم خرج فجلس على باب داره وبعث إلى أبي سويد، فلما أحضر دفع إليه التوقيع، فلما قرأه قال: أعوذ برضاك من سخطك وبعفوك من عقوبتك، وإن تهدم مني ركنا أن شيدته وتصنع معي جميلا فمثلي من هفا ومثلك من عفا.

ثم قام وقبّل الأرض بين يديه، فقال له محمد:

- لا أبدل نعمة الله كفرا ثم أمر له بخمسين ألف درهم.

فقالت الجارية: وأنا أيضا أهب له مثل هذه الهبة مما وهبه لي أمير المؤمنين.

ثم ذهب أبو سويد وبقيا بعد ذلك في أطيب عيش وأحسن حال.

شهادة الحمير

كان بمكة رجل يجمع بين الرجال والنساء ويحمل لهم الشراب. فشكي إلى عاهل مكة، فغربه إلى عرفات فبنى بها منزلاً، وأرسل إلى إخوانه، فقال:

- ما يمنعكم أن تعاودوا ما كنتم فيه؟

قالوا: وأين بك وأنت في عرفات؟

فقال: حمار بدرهم، وقد صرتم على الأمن والنزهة.

ففعلوا فكانوا يركبون إليه حتى فسدت شباب مكة، فعادوا بشكايته إلى والي مكة، فأرسل إليه فأتي به فقال الرجل:

- يكذبون علي أصلح الله الأمير.

فقالوا: دليلنا أصلحك على ما نقول أن تأمر بحمير مكة فتجمع وترسل بها أمناء إلى عرفات ثم يطلقونها، فإن لم تقصد لمنزلة من بين المنازل كعادتها إذ ركبها السفهاء فنحن غير مبطلين.

فقال الوالي: إن في هذا دليلاً وشاهداً عدلاً.

فأمر بحمير من حمير الأجرة فجمعت ثم أرسلت، فصارت إلى منزله كما هي من غير دليل، فأعلمه بذلك أمناؤه فقال:

- ما بعد هذا شيء، جردوه.

فلما نظر إلى السياط قال:

- لا بد أصلحك الله من ضربي؟

قال: نعم.

قال: والله ما في ذلك من شيء هو أشد علي من أن يشمت بنا أهل العراق ويضحكوا منا ويقولوا: أهل مكة يجيزون شهادة الحمير.

فضحك الوالي وخلى سبيله.

ما عندنا سكر

قيل للمأمون إن بني علي بن صالح صاحب المصلى فجار سفهاء، فقال المأمون لعلي:

- أحضرني أولادك.

فلما دخلوا وسلموا، قال المأمون:

- قبحكم الله! تركتم الأدب، وآثرتم المجون والسفه. هذا وأبوكم أحد العلماء والفقهاء الذين يرتضى برأيهم، ويستضاء بهديهم.

ثم أقبل على الوالد فقال له:

ما الذنب إلا لك لأنك أهملتهم حتى تتايعوا في غيهم، وتركوا ما كان أولى بهم وبك.

قال: ما لي عليهم قدرة ولا طاعة، ولا سيما هذا الكبير فإنه أفسدهم وزيّن لهم سوء أعمالهم.

فأطرق الكبير وأمسك. فقال له المأمون:

- تكلم.

فقال: يا أمير المؤمنين، أتكلم بلساني كله، أم كما يتكلم العبد الذليل بين يدي مولاه، تاركا لحجته، وهائبا لسيده؟

قال: تكلم بما عندك.

قال: هل أحمدت رأي أبينا كما أحمدت فهمه وعلمه؟

قال: نعم.

قال: أعتق ما أملك، وعليّ ثلاثون حجة إن لم يكن أبي هذا قد طلب يوما سكرا فلم يوجد في خزانته منه شيء، ولم يكن الوقت وقتا يوجد فيه بائع ولا سكر.

فقال له خازنه:

- ما عندنا سكر.

قال: أدع لي الوكيل.

فدعاه، فقال:

- ما منعك إذ فني السكر إن تبتاع لنا سكرا؟

قال: ما أعلمني الخازن.

فقال أبي للخازن: لِمَ لم تعلمه؟

قال: كنت على ذلك...

فقال: ما ها هنا ما هو أبلغ في عقوبتكما من أن أقوم على إحدى رجلي ثم لا أضع الأخرى على الأرض ولا أرواح بينهما حتى تحضراني ألف من سكر من الجنس الذي أفضله، ليس بوسخ ولا مضرّس ولا لين المكسر ولا معوج القالب.

ثم وثب وقال:

- والله، ثم والله لا أزال قائما حتى أوفي بنذري.

فتبادر غلمانه ومواليه وبعض ولده وعجائزه نحو السوق، فواحد ينبه حارسا، وآخر يفتح دربا، وآخر يوقظ نائما، والغلمان والخزان والجواري والحراس في مثل يوم القيامة، ثم قال:

- يا قوم، أما لي من أهلي مساعد؟ أين البنات اللواتي كنت أغذوهن لين الطعام؟ أين أمهات الأولاد اللواتي ملكن الرغائب بعد الحال الخسيسة؟ أين الأولاد الذكور الذين لهم نسعى ونغدو ونروح؟

فتبادر إليه بناته وأمهات أولاده، فقامت كل واحدة منهن على شاق. فقال:

- أحسنتن والله. أحسن الله جزاءكن عن بركن. لمثل هذا كنت أعدكن.

ولاحظ الكبرى من بناته وآخر من بنيه وهما يراوحان بين أقدامهما، فقال لهما:

- تراوحان ولا أرواح! صدق الله العظيم وبلغ رسوله الكريم قال «إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم».

ثم قال: عليّ بن صالح ليس في خزانته سكر وجائزته من أمير المؤمنين ثلاثمائة ألف، وضيعته تغل مائة ألف؟ أجل والله! إذا كان وكيلي مشغولا بزوجته وبناته ومصالح أمره، فمتى يُفرغ للنظر في مصالح خزانتي؟ والله لقد حُدثت أن حُلي بناته بألوف الدنانير، وأنه قال لزوجته: أخرجي إلى الأعياد، وادخلي الأعراس، واسألي عن الرجال المذكورين، واطلبي المواضع المعروفة، والأنساب المرضية، والأخلاق الكريمة لبناتك، وأخرجيهن في الجمعات يتصفحن محاسن العزاب، ويخترن أولي الأنساب.

ثم قال: يا قوم، ما الذي حركنا هكذا في جوف الليل؟

فقالوا: السكر

قال: أجل! وما أحضرتموني السكر إلى هذه الغاية. تبادروني فقد تعبت من طول القيام، ويلكم! أدركوني فإني أريد نومة ولابد من البكور نحو الدار.

فبادر بقية الخدم يستحثون الأول، وأخذوا السكر فجاءوا به من غير وزن ثمنه ولا تقرير سعره طلبا للسرعة.

فقال: ما هذا؟

قالوا: ما أمرت به.

قال: فهل أخذتموه من الجنس الذي طلبت؟

قالوا: نعم

قال: فهل وزنتموه؟

قالوا: لا

قال: يا أعداء الله، أردتم أن توقعوا أذيتي؟ والله لا أزال على حالي حتى تأخذوه بيعا صحيحا لا شرط فيه ولا خيار. هيهات، يأبى الله ذلك وعليّ بن صالح.

فرجعوا وقطعوا ثمنه مع التجار، ووزنوا لهم ثمنه، وعادوا إليه فأخبروه بذلك، فقال:

- يوزن بحضرتي!

فجاءوا بالقبّان ليزنوا السكر، وهو يقول:

- ويلكم، عجلوا فقد دنا الصبح، أوه! جاءت والله نفسي أو كادت.

فلما استوفى الوزن خرّ مغشيا عليه، وكذلك كانت حال من كان معه في مثل حاله، فما انتبه واحد منهم لفريضة ولا نافلة إلا بحر الشمس.

فهذه يا أمير المؤمنين حال من أحمدت علمه وعقله وفهمه ورأيه وفقهه.

فقال له المأمون:

- والله لئن كنت ولدت هذا على أبيك في مقامك هذا فما لك في الأرض نظير، وإن كنت حكيت عنه حقا، فما في الدنيا لأبيك شبيه.

وأراد عليّ بن صالح أن يتكلم، فقال له المأمون:

- إياك أن تنبس بحرف.

ثم أمرهم بالانصراف.

رؤيا الحسن البصري

كان بين الحسن البصري وبين ابن سيرين هجرة. فكان إذا ذُكر ابن سيرين عند الحسن يقول:

- دعونا من ذكر الحاكة «وكان بعض أهل ابن سيرين حائكا».

فرأى الحسن في منامه كأنه عريان، وهو قائم على مزبلة يضرب بالعود. فأصبح مهموما برؤياه، فقال لبعض أصحابه:

- امض إلى ابن سيرين - وكان مشهورا بتفسير الأحلام - فقص عليه رؤياي على أنك أنت رأيتها.

فدخل على ابن سيرين وذكر له الرؤيا. فقال ابن سيرين:

- قل لمن رأى هذه الرؤيا: لا تسأل الحاكة عن مثل هذا.

فأخبر الرجل الحسن بمقالته، فعظم لديه، وقال:

- قوموا بنا إليه.

فلما رآه ابن سيرين، قام إليه وتصافحا، وسلم كل واحد منهما على صاحبه وجلسا يتعاتبان. فقال الحسن:

- دعنا من هذا، فقد شغلت الرؤيا قلبي.

فقال ابن سيرين:

- لا تشغل قلبك، فإن العري عري من الدنيا، ليس عليك منها علقة. وأما المزبلة فهي الدنيا، وقد انكشف لك أحوالها، فأنت تراها كما هي في ذاتها. وأما ضربك بالعود فإنه الحكمة التي تتكلم بها وينتفع بها الناس.

فقال له الحسن:

- فمن أين لك أني أنا رأيت هذه الرؤيا؟

قال ابن سيرين:

- لما قصها عليّ فكرت، فلم أر أحدا يصلح أن يكون رآها غيرك.

شجرة العروسين

وقال عبد الله بن معمر القيسي: حججت سنة ثم دخلت مسجد المدينة لزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم. فبينما أنا جالس ذات ليلة بين القبر والمنبر إذا سمعت أنينا فأصغيت إليه، فإذا هو يقول:

أشجاك نوح حمائم السدر ... فأثار منك بلابل الصدر
أم ساء حالك ذكر غانية ... أهدت إليك وساوس الفكر
يا ليلة طالت على دنف ... يشكو السهاد وقلة الصبر
أسلمت من تهوى بحر جوى ... متوقد كتوقد الجمر
فالبدر يشهد إنني كلف ... مغرم بحب شبيهة البدر
ما كنت أحسبني أهيم بحبها ... حتى بليت وكنت لا أدري

ثم انقطع الصوت فلم أدر من أين جاء وإذا به قد عاد البكاء والأنين ثم أنشد يقول:

أشجاك من ريا خيال زائر ... والليل مسود الذوائب عاكر
واعتاد مهجتك الهوى بسهاده ... واهتاج مقلتك الخيال الزائر
ناديت ريا والظلام كأنه ... يم تلاطم فيه موج زاخر
والبدر يسري في السماء كأنه ... ملك ترجل والنجوم عساكر
ترى به الجوزاء ترقص في الدجى ... رقص الحبيب علاه سكر طاهر
يا ليل طلت على محب ما له ... إلاّ الصباح مساعد وموازر
فأجابني: مت حتف أنفك واعلمن ... أن الهوى لهو الهوان الحاضر

قال: وكنت ذهبت عند ابتدائه بالأبيات فلم يتنبه إلاّ وأنا عنده. فرأيت شابا مقتبلا شبابه قد خرق الدمع في خده خرقين، فسلمت عليه، فقال: إجلس، من أنت؟

فقلت: عبد الله بن معمر القيسي.

قال: ألك حاجة؟

قلت: نعم كنت جالسا في الروضة فما راعني إلاّ صوتك فبنفسي أفديك فما الذي تجده؟

فقال: أنا عتبة بن الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصاري غدوت يوما إلى مسجد الأحزاب فصليت فيه. ثم اعتزلت غير بعيد فإذا بنسوة قد أقبلن يتهادين مثل القطا وإذا في وسطهن جارية بديعة الجمال كاملة الملاحة وقالت: يا عتبة ما تقول في وصل من يطلب وصلك؟ ثم تركتني وذهبت فلم أسمع لها خبرا ولم أقف لها على أثر، فأنا حيران أنتقل من مكان إلى مكان.

ثم صرخ وأكب مغشيا عليه ثم أفاق كأنما أصبغت ديباجة خديه ثم أنشد يقول:

أراكـــم بقلبي من بــلاد بعيدة تراكم تروني بالفؤاد على بعدي
فـؤادي وطـرفي يأسفان عليكم وعندكم روحي وذكركم عندي
ولست ألذ العيش حتى أراكم ولو كنت في الفردوس جنة الخلد

فقلت: يا ابن أخي تب إلى ربك واستغفره من ذنبك فبين يديك هول المطلع.

فقال: ما أنا بسائل حتى يذوب العارضان فلم أزل معه حتى طلع الصباح.

فقلت: قم بنا إلى مسجد الأحـزاب فلعل الله يكشف كربتك.

فقال: أرجو ذلك إن شاء الله ببركة طاعتك.

ثم جلسنا حتى صلينا الظهر. فإذا بالنسوة قد أقبلن وليست الجارية فيهن فوقفن عليه وقلن له: يا عتبة ما ظنك بطالبة وصلك وكاشفة بالك

قال: وما بالها؟

قلن: أخذها أبوها وارتحل بها إلى أرض السماوة.

فسألتهن عن الجارية فقلن: هي ريا بنت الغطريف السلمي فرفع عتبة إليهن رأسه وقال:

خليلي ريـا قـد أجـد بكورها وسارت إلى أرض السماوة وغيرها
خليلي إني قد غشيت من البكا فهل عند غيري مقلة أستعيرها

فقلت له: إني قد وردت بمال جزيل أريد به أهل الستر ووالله لأبذلنه أمامك حتى تبلغ رضاك وفوق الرضاء، فقم بنا إلى مسجد الأنصار.

فقمنا وسرنا حتى أشرفنا على ملأ منهم فسلمت فأحسنوا الرد.

فقلت: أيها الملأ ما تقولون في عتبة وأبيه؟

قالوا: من سادات العرب. قلت: فإنه قد رمى بداهية من الهوى وما أريد منكم إلاّ المساعدة إلى السماوة. فقالوا: سمعا وطاعة.

فركبنا وركب القوم معنا حتى أشرفنا على منازل بني سليم فأعلم الغطريف بنا فخرج مبادرا فاستقبلنا.

وقال: حييتم بالإكرام.

فقلنا: وأنت فحياك الله إنا لك أضياف.

فقال: نزلتم أكرم منزل.

فنادى: يا معشر العبيد أنزلوا القوم. ففرشت الأنطاع والنمارق وذبحت الذبائح.

فقلنا: لسنا بذائقي طعامك حتى تقضي حاجتنا.

فقال: وما حاجتكم؟

قلنا: نخطب ابنتك الكريمة لعتبة بن الحباب بن المنذر.

فقال: إن التي تخطبونها أمرها إلى نفسها وأنا أدخل أخبرها؟

ثم دخل مغضبا على ابنته.

فقالت: يا أبت ما لي أرى الغضب في وجهك؟

فقال: قد ورد الأنصار يخطبونك مني.

فقالت: سادات كرام استغفر لهم الرسول صلى الله عليه وسلم، فلمن الخطبة منهم؟

قال: لعتبة.

قالت: والله لقد سمعت عن عتبة هذا إنه يفي بما وعد ويدرك إذا قصد.

فقال: أقسمت لأزوجنك إياه أبدا ولقد نمى إلى بعض حديثك معه.

فقالت: ما كان ذلك ولكن إذا أقسمت فإن الأنصار لا يردون ردا

قبيحا فأحسن لهم الرد.

فقال: بأي شيء؟

قالت: أغلظ عليهم المهر فإنهم قوم يرجعون.

فقال: ما أحسن ما قلت.

فخرج مبادرا على هم.

فقال: إن فتاة الحي قد أجابت، ولكني أريد لها مهرا لائقا بها، فمن القائم به؟

فقال عبد الله بن معمر: أنا فقل ما شئت

فقال: ألف مثقال من ثوب من الأبراد وخمسة أكرسة من عنبر.

فقال عبد الله: لك ذلك كله فهل أجبت؟

قال: نعم.

قال: عبد الله فأوفدت نفرا من الأنصار إلى المدينة فأتوا بجميع ما طلب. ثم صُنعت الوليمة فقمنا على ذلك أياما ثم قال: خذوا فتاتكم.

وانصرفوا مصاحبين ثم حملها في هودج وجهز بثلاثين راحلة من المتاع والتحف فودعناه وسرنا حتى إذا بقي بيننا وبين المدينة مرحلة واحدة خرجت علينا خيل تريد الغارة أحسبها من سليم، فحمل عليها عتبة فقتل منهم رجالا وجندل منهم آخرين، ثم رجع وبه طعنة تفور دما فسقط إلى الأرض وأتانا نجدة فطردت الخيل عنا وقد قضى عتبة نحبه فقلنا: واعتبتاه فسمعتنا الجارية فألقت نفسها عن البعير وجعلت تصيح بحرقة وأنشدت:

تـصـبرت لا أني صـــبرت وإنـــما أعـلـل نفسي أنهـا بـك لاحقة
ولو أنصفت روحي لكانت إلى الردي أمامك من دون البرية سابقة
فما أحـد بعدي وبعدك منصفٌ خليلا ولا نفس لنفس موافقة.

ثم شهقت وقضت نحبها فحفرنا لهما قبرا واحدا ودفناهما فيه. ثم رجعتُ إلى المدينة فأقمت سبع سنين ثم ذهبت إلى الحجاز ووردت المدينة فقلت: والله لآتين قبر عتبة أزوره.

فأتيت القبر فإذا عليه شجرة عليها عصائب حمر وصفر؛ فقلت لأرباب المنزل: ما يقال لهذه الشجرة؟ قالوا شجرة العروسين.

فأقمت عند القبر يوما وليلة وانصرفت.

العامَّة والأنعام

كان المأمون قد همّ بلعن معاوية ابن أبي سفيان. فمنعه عن ذلك يحيى بن أكثم وقال:

- يا أمير المؤمنين، العامة لا تحتمل هذا ولا سيما أهل خراسان ولا تأمن أن يكون لهم نفرةٌ ونبوةٌ لا تستقال ولا يُدرى ما تكون عاقبتها، والرأي أن تدع الناس على ما هم عليه ولا تظهر لهم أنك تميل إلى فرقة من الفرق فإن ذلك أصلح في السياسة.

فركن المأمون إلى قوله.

فلما دخلت عليه قال:

- يا ثمامة قد علمت ما كنا دبّرناه في أمر معاوية وقد عارضنا رأيٌ هو أصلح في تدبير المملكة وأبقى ذكراً في العامة.

ثم أخبرني أن يحيى بن أكثم خوفه إياه.

فقلت: يا أمير المؤمنين، والعامة عندك في هذا الموضع الذي وضعها فيه يحيى، والله يا أمير المؤمنين ما رضي الله جل وعز أن سوّاها بالأنعام حتى جعلها أضل سبيلاً، فقال تبارك وتعالى: « أم تحسبُ أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً ». والله لقد مررت يا أمير المؤمنين منذ أيام في شارع الخلد وأنا أريد الدار، فإذا إنسان قد بسط كساءه وألقى عليه أدوية وهو قائم ينادي:

- هذا الدواء للبياض في العين والغشاوة والظلمة وضعف البصر.

وإن إحدى عينيه لمطموسة والأخرى مؤلَمة، وقد تألبوا عليه واحتفلوا إليه، فنزلت عن دابتي ودخلت بين تلك الجماعة فقلت:

- يا هذا! أرى عينيك أحوج الأعين إلى العلاج وأنت تصف هذا الدواء وتخبر أنه شفاء! فما بالك يا هذا لا تستعمله؟.

فقال: أنا في هذا الموضع منذ عشرين سنة ما رأيت شيخاً قط أجهل منك ولا أحمق!

قلت: وكيف ذاك؟

قال: يا جاهل أتدري أين اشتكت عيني؟

قلت: لا.

قال: بمصر.

فأقبل عليّ الجماعة فقالت:

- صدق والله أنت جاهل.

وهمّوا بي، فقلت:

- والله ما علمت أن عينه اشتكت بمصر! فتخلصت منهم بهذه الحجة.

الحاكم والرعية

قال الوزير في بعض الليالي:

- قد والله ضاق صدري بالغيظ لما يبلغني عن العامة من خوضها في حديثنا، وذكرها أمورنا، وتتبعها لأسرارنا، وتنقيرها عن مكنون أحوالنا، ومكتوم شأننا، وما أدري ما أصنع بها، وإني لأهم في الوقت بعد الوقت بقطع ألسنةٍ وأيدٍ وأرجلٍ وتنكيلٍ شديدٍ، لعل ذلك يطرح الهيبة ويحسم المادة، ويقطع هذه العادة، لحاهمَ الله، ما لهم لا يقبلون على شؤونهم المهمة، ومعايشهم النافعة، وفرائضهم الواجبة؟ ولم ينقبون عما ليس لهم، ويرجفون بما لا يجدي عليهم، ولو حققوا ما يقولون ما كان لهم فيه عائدةٌ ولا فائدة؛ وإني لأعجب من لهجهم وشغفهم بهذا الخلق حتى كأنه من الفرائض المحتومة، والوظائف الملزومة؛ وقد تكرر منا الزجر، وشاع الوعيد، وفشا الإنكار بين الصغار والكبار، ولقد تعايى علي هذا الأمر وأغلق دوني بابه.

فقلت: أيها الوزير، عندي في هذا جوابان: أحدهما ما سمعت من شيخنا أبي سليمان، وهو من تفوق في الفضل والحكمة والتجربة ومحبة هذه الدولة والشفقة عليها من كل هبة ودبة؛ والآخر مما سمعته من شيخ صوفيّ؛ وللجوابين فائدتان عظيمتان، ولكن الجملة خشناء، وفيها بعض الغلظة، والحق مر، ومن توخى الحق احتمل مرارته.

قال: فاذكر الجوابين وإن كانا غليظين، فليس ينتفع بالدواء إلا بالصبر على بشاعته، وصدود الطبع عن كراهته.

قلت: أما أبو سليمان، فإنه قال في هذه الأيام: ليس ينبغي لمن كان الله عز وجل جعله سائس الناس عامتهم وخاصتهم وعالمهم وجاهلهم، وضعيفهم وقويهم، وراجحهم وشائلهم، أن يضجر مما يبلغه عنهم أو عن واحد منهم لأسباب كثيرة، منها: أن عقله فوق عقولهم، وحلمه أفضل من حلومهم، وصبره أتم من صبرهم؛ ومنها أنهم إنما جعلوا تحت قدرته، ونيطوا بتدبيره، واختبروا بتصريفهم على أمره ونهيه، ليقوم بحق الله تعالى فيهم، ويصبر على جهل جاهلهم، ويكون عماد حاله معهم الرفق بهم، والقيام بمصالحهم، ومنها أن العلاقة التي بين السلطان وبين الرعية قوية، لأنها إلهيةٌ، وهي أوشج من الرحم التي تكون بين الوالد والولد، والملك والدٌ كبير، كما أن الوالد ملكٌ صغير، وما يجب على الوالد في سياسة ولده من الرفق به، والحنو عليه، والرقة له، واجتلاب المنفعة إليه، أكثر مما يجب على الولد في طاعة والده، وذلك أن الولد غرٌّ، وقريب العهد بالكون، وجاهلٌ بالحال، وعارٍ من التجربة، كذلك الرعية الشبيهة بالولد، وكذلك الملك الشبيه بالوالد؛ ومما يزيد هذا المعنى كشفاً، ويكسبه لطفاً، أن الملك لا يكون ملكاً إلا بالرعية، كما أن الرعية لا تكون رعيةً إلا بالملك، وهذا من الأحوال المتضايفة، والأسماء المتناصفة؛ وبسبب هذه العلاقة المحكمة والوصلة الوشيجة، ما لهجت العامة بتعرف حال سائسها، والناظر في أمرها، والمالك لزمامها، حتى تكون على بيانٍ من رفاهة عيشها، وطيب حياتها، ودرور مواردها، بالأمن الفاشي بينها، والعدل الفائض عليها، والخير المجلوب إليها، وهذا أمرٌ جارٍ على نظام الطبيعة، ومندوبٌ إليه أيضاً في أحكام الشريعة.

ولو قالت الرعية لسلطانها: لم لا نخوض في حديثك، ولا نبحث عن غيب أمرك، ولم لا نسأل عن دينك ونحلتك وعادتك وسيرتك؟

ولم لا نقف على حقيقة حالك في ليلك ونهارك، ومصالحنا متعلقةٌ بك، وخيراتنا متوقعةٌ من جهتك، ومسرتنا ملحوظةٌ بتدبيرك، ومساءتنا مصروفة باهتمامك، وتظلمنا مرفوعٌ بعزك، ورفاهيتنا حاصلةٌ بحسن نظرك وجميل اعتقادك، وشائع رحمتك، وبليغ اجتهادك، ما كان جواب سلطانها وسائسها؟ أما كان عليه أن يعلم أن الرعية مصيبةٌ في دعواها؟

ولو قالت الرعية أيضاً: ولم لا تبحث عن أمرك؟ ولم لا تسمع كل غثٍّ وسمين منا! وقد ملكت نواصينا، وسكنت ديارنا، وصادرتنا على أموالنا، وحلت بيننا وبين ضياعنا، وقاسمتنا مواريثنا، وأنسيتنا رفاهة العيش، وطيب الحياة، وطمأنينة القلب، فطرقنا مخوفة، ومساكننا منزولة، وضياعنا مقطعة، ونعمنا مسلوبة، وحريمنا مستباح، ونقدنا زائف، وخراجنا مضاعف، ومعاملتنا سيئة، وجندينا متغطرس، وشرطينا منحرف، ومساجدنا خربة، ومارستاناتنا خاوية، وأعداؤنا مستكلبة، وعيوننا سخينة، وصدورنا مغيظة، وبليتنا متصلة، وفرحنا معدوم؛ ما كان الجواب أيضاً عما قالت وعما لم تقل، هيبةً لك، وخوفاً على أنفسها من سطوتك وصولتك؟

وقد حُكي لنا أنه رفع إلى الخليفة المعتضد أن طائفةً من الناس يجتمعون بباب الطاق ويجلسون في دكان شيخ تبان، ويخوضون في الفضول والأراجيف وفنونٍ من الأحاديث، وفيهم قومٌ سراة وتناء وأهل بيوتاتٍ سوى من يسترق السمع منهم من خاصة الناس، وقد تفاقم فسادهم وإفسادهم.

فلما عرف الخليفة ذلك ضاق ذرعاً، وامتلأ غيظاً، ودعا بعبيد الله بن سليمان وسأله: فما الدواء؟

قال: تتقدم بأخذهم وصلب بعضهم وإحراق بعضهم وتغريق بعضهم، فإن العقوبة إذا اختلفت، كان الهول أشد، والهيبة أفشى.

فقال المعتضد - وكان أعقل من الوزير -:

- والله لقد بردت لهيب غضبي بفورتك هذه، ونقلتني إلى اللين بعد الغلظة، وحططت علي الرفق، من حيث أشرت بالخرق، وما علمت أنك تستجيز هذا في دينك وهديك ومروءتك، ولو أمرتك ببعض ما رأيت بعقلك وحزمك لكان من حسن المؤازرة ومبذول النصيحة والنظر للرعية الضعيفة الجاهلة أن تسألني الكف عن الجهل، وتبعثني على الحلم، وتحبب إلى الصفح وترغبني في فضل الإغضاء على هذه الأشياء. وقد ساءني جهلك بحدود العقاب وبما تقابل به هذه الجرائر، وبما يكون كفأً للذنوب، ولقد عصيت الله بهذا الرأي ودللت على قسوة القلب وقلة الرحمة ويبس الطينة ورقة الديانة، أما تعلم أن الرعية وديعة الله عند سلطانها؟ وأن الله يسائله عنها كيف سستها؟ ولعله لا يسألها عنه، وإن سألها فليؤكد الحجة عليه منها؛ ألا تدري أن أحداً من الرعية لا يقول ما يقول إلا لظلم لحقه أو لحق جاره، وداهية نالته أو نالت صاحباً له؟ وكيف نقول لهم: كونوا صالحين أتقياء مقبلين على معايشكم، غير خائضين في حديثنا، ولا سائلين عن أمرنا، والعرب تقول في كلامها: غلبنا السلطان فلبس فروتنا، وأكل خضرتنا، وحنق المملوك على المالك معروف، وإنما يحتمل السيد على صروف تكاليفه، ومكاره تصاريفه، إذا كان العيش في كنفه رافعاً، والأمل فيه قوياً، والصدر عليه بارداً، والقلب معه ساكناً، أتظن أن العمل بالجهل ينفع، والعذر به يسع، لا والله ما الرأي ما رأيت، ولا الصواب ما ذكرت، وجه صاحبك وليكن ذا خبرة ورفق، ومعروفاً بخير وصدق، حتى يعرف حال هذه الطائفة، ويقف

على شأن كل واحدٍ منها في معاشه، وقدر ما هو متقلبٌ فيه ومنقلبٌ إليه، فمن كان منهم يصلح للعمل فعلقه به، ومن كان سيىء الحال فصله من بيت المال بما يعيد نضرة حاله، ويفيده طمأنينة باله؛ ومن لم يكن من هذا الرهط، وهو غنيٌّ مكفيٌّ، وإنما يخرجه إلى دكان هذا التبان البطر والزهو، فادع به، وانصحه ولاطفه، وقل له: إن لفظك مسموع، وكلامك مرفوع؛ ومتى وقف أمير المؤمنين على كنة ذلك منك لم تجدك إلا في عرضة المقابر، فاستأنف لنفسك سيرةً تسلم بها من سلطانك.

وفارق الوزير حضرة الخليفة، وعمل بما أمر به على الوجه اللطيف، فعادت الحال ترف بالسلامة العامة، والعافية التامة؛ فتقدم إلى الشيخ التبان برفعِ حال من يقعد عنده حتى يواسي إن كان محتاجاً، ويصرف إن كان متعطلاً، وينصح إن كان متعقلاً.

قلت: حدثني شيخ من الصوفية في هذه الأيام.

قال: كنت بنيسابور سنة سبعين وثلاثمائة، وقد اشتعلت خراسان بالفتنة، وتبلبلت دولة آل سامان بالجور وطول المدة، وغلا السعر، وأخيفت السبل، وكثر الإرجاف، وساءت الظنون، وضجت العامة..

وكنا جماعةً غرباء قد ضاقت صدورنا بهذه الأحوال. وقلنا:

كأنا والله أصحاب نعم وأرباب ضياع نخاف عليها الغارة والنهب وما علينا من ولاية زيدٍ وعزل عمرو، وهلاك بكر، ونجاة بشر، نحن قوم قد رضينا في هذه الدنيا العسيرة، ولهذه الحياة القصيرة، بكسرةٍ يابسة، وخرقةٍ بالية، وزاويةٍ من المسجد مع العافية من بلايا طلاب الدنيا. فما هذا الذي يعترينا من هذه الأحاديث التي ليس لنا فيها ناقةٌ ولا جمل، ولا حظٌّ ولا أمل، قوموا بنا غداً حتى نزور أبا زكرياء الزاهد،

ونظل نهارنا عنده لاهين عما نحن فيه.

فغدونا وصرنا إلى أبي زكرياء الزاهد، فلما دخلنا رحب بنا، وفرح بزيارتنا، وقال:

- ما أشوقني إليكم! حدثوني ما الذي سمعتم، وماذا بلغكم من حديث الناس، وأمر هؤلاء السلاطين؟ فما لي والله مرعىً في هذه الأيام إلا ما اتصل بحديثهم.

فلما ورد علينا من هذا الزاهد العابد ما ورد، دهشنا واستوحشنا، وقلنا في أنفسنا:

- انظروا من أي شيء هربنا، وبأي شيء علقنا.

فخففنا الحديث وانسللنا، فلما خرجنا قلنا:

- ميلوا بنا إلى أبي عمرو الزاهد فله فضلٌ وعبادة وعلمٌ وتفردٌ في صومعته.

ووصلنا إليه فسر بحضورنا، ثم قال:

- يا أصحابنا ما عندكم من حديث الناس؟ فقد والله طال عطشي إلى شيء أسمعه، ولم يدخل علي اليوم أحدٌ فأستخبره، وإن أذني لدى الباب لأسمع قرعة أو أعرف حادثة، فهاتوا ما عندكم.

فعجبنا منه، وخاطفناه الحديث، وودعناه، وخرجنا.

وأقبل بعضنا على بعضٍ يقول:

- أرأيتم أظرف من أمرنا وأغرب من شأننا؟ انطلقوا إلى أبي الحسن

الضرير، وإن كان مضربه بعيداً فإنا لا نجد سكوننا إلا معه، لقلة فكره في الدنيا وأهلها.

ودخلنا عليه، ولما سمع بنا أقبل على كل واحد منا يلمسه بيده ويرحب به، ويدعو له ويقرب، فلما انتهى أقبل علينا وقال:

- أمن السماء نزلتم علي؟ ما عندكم من أحاديث الناس؟ وما الذي يتهامس به الناس؟

فودعناه ومضينا، وطفقنا نتلاوم على زيارتنا لهؤلاء القوم.

فلقينا في الطريق شيخاً من الحكماء يقال له أبو الحسن العامري، فقال لنا:

- إنما غركم ظنكم بالزهاد، وقلتم لا ينبغي أن يكون الخبر عنهم كالخبر عن العامة، لأنهم الخاصة، ومن الخاصة خاصة الخاصة.

قلنا له: فإن رأيت يا معلم الخير أن تكشف لنا هذا الغطاء.

فقال: نعم، أما العامة فإنها تلهج بحديث كبرائها ساستها لما ترجو من رخاء العيش وطيب الحياة وسعة المال ودرور المنافع واتصال لجلب ونفاق السوق وتضاعف الربح؛ فأما هذه الطائفة العارفة بالله، العاملة لله، فإنها مولعةٌ أيضاً بحديث الأمراء، والجبابرة العظماء، لتقف على تصاريف قدرة الله فيهم، وجريان أحكامه عليهم، ونفوذ مشيئته في محابهم ومكارههم في حال النغمة عليهم، والانتقام منهم، ألا ترونه قال جل ثناؤه: «حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتةً فإذا هم مبلسون»، وبهذا الاعتبار يستنبطون خوافي حكمته، ويطلعون على تتابع نعمته وغرائب نقمته، وها هنا يعلمون أن كل ملكٍ سوى

ملك الله زائل، وكل نعيم غير نعيم الجنة حائل، ويصير هذا كله سبباً قوياً لهم في الضرع إلى الله، والعياذ بالله، وبين الخاصة والعامة في هذه الحال وفي غيرها فرق. وقد يتشابه الرجلان في فعل، وأحدهما مذموم، والآخر محمود، وقد رأينا مصلياً إلى القبلة وقلبه معلق بإخلاص العبادة، وآخر إلى جانبه أيضاً يصلي وقلبه في استلال ما في كم الآخر. فلا تنظروا من كل شيء إلى ظاهره، إلا بعد أن تصلوا بنظركم إلى باطنه.

فلما سمع الوزير هذا عجب وقال:

- لا أدري: أكلام أبي سليمان في ذلك الاحتجاج أبلغ، أم الحكاية عن المعتضد أشفى، أم رواية الشيخ الصوفي أطرف، وما علمت أن في البحث عن سر الإرجاف هذه اللطيفة الخفية؟

أنس الوجود ومحبوبته ورد

حُكي أنه كان لأحد الوزراء ابنة بديعة في الحسن والجمال فائقة في البهجة والكمال، ذات عقل وافر وأدب كامل. وكانت تهوى المنادمة وسماع دقائق الأشعار لرقة فؤادها ولطف أخلاقها وظرفها.

فبينما كانت تنظر يوما من شباك قصرها وقع نظرها على شاب نير الوجه، ضاحك السن، بهي الطلعة، حسن الشمائل. فوقع حبه في قلبها وعدمت صبرها في هواه، فرمته للحال بتفاحة كانت في يدها. فرفع رأسه فرآها في شباك القصر كأنها البدر فلم يرنُ إلا وهو بعشقها مشغول الخاطر.

فلما بعد عن القصر سألت جاريتها عن اسمه وكانت تعرفه، فقالت لها إن اسمه أنس الوجود وإنها تعرف مكانه. فكتبت له رقعة شرحت فيها حالها وما عراها من حبه وغرامه.

فأخذت الجارية الرقعة وسارت بها إليه فأعطتها له. فلما قرأها كتب في أسفلها هذه الأبيات:

أعلل قلبي في الغرام وأكتم   ولكن حالي عن هواي يترجم
وإن فاض دمعي قلت جرح بمقلتي   لئلا يرى حالي العذول فيفهم
وكنت خالياً لست أعرف ما الهوى   فأصبحت صباً والفؤاد متيم
رفعت إليكم قصتي أشتكي بها   غرامي ووجدي كي ترقوا وترحموا
وسطرتها من دمع عيني لعلها   بما حل بي منكم إليكم تترجم

رعى الله وجهاً بالجمال مبرقـاً له البدر عبد والكواكب تخدم
على حسن ذات ما رأيت مثيلها ومن ميلها الأغصان عطفاً تتعلم
وأسألكم من غير حمل مشقة زيارتنا إن الوصال معظم
وهبت لكم روحي عسى تقبلونها فلي الوصل خلد والصدود جهنم

أخذت الجارية الكتاب وأعطته إلى سيدتها. فلما قرأت ذاك الكتاب هاج منها الوجد والغرام وكتبت له تقول:

يا من تعلق قلبه بجمالنا أصبر لعلك في الهوى تحظى بنا
لما علمنا أن حبك صادق وأصاب قلبك ما أصاب فؤادنا
زدناك فوق الوصل وصلاً مثله لكن منع الوصل من حجابنا
وإذا تجلى الليل من فرط الهوى تتوقد النيران في أحشائنا
رجعت مضاجعنا الجنوب وربما قد برح التبريح في أجسامنا
الفرض في شرع الهوى كتم الهوى لا ترفعوا المسبول من أستارنا

فلما فرغت من شعرها طوت القرطاس وأعطته للخادمة فأخذته وخرجت من عندها، فصادفها الحاجب وقال لها: أين تذهبين؟

فقالت: إلى الحمام وقد انزعجت منه فوقعت الورقة حين خرجت من الباب وقت انزعاجها. هذا ما كان من أمرها.

فبينما كان بعض الخدم يمشي من تلك الجهة وقع نظره على الورقة، فأخذها وقدمها إلى الوزير.

فلما قرأها وفهم فحواها، هاج منه الغيظ والغضب، وجاء إلى ابنته ورد لائما منددا. ثم أمر بعض الخدم بإبعادها وأخذِ مكان لها يكون بعيدا في البرية. فلما علمت بذلك زاد منها القلق، وكتبت قبل ذهابها هذه الأبيات على باب حجرتها:

بالله يا دار إن مر ضحي مسلماً بإشارات يحيينا
اهديه منا سلاماً زاكياً عطراً لأنه ليس يدري أين أمسينا
ولست أدري إلى أين الرحيل بنا لما مضوا بي سريعاً مستخفيا
في جنح ليل وطير الأيل قد عكفت على الغصن تباكينا وتنعينا
وقال عنها لسان الحال واحرباه من التفرق ما بين المحبينا
لما رأيت كؤوس البعد قد ملئت والدهر من صرفها بالقهر يسقينا
مزجتها بجميل الصبر معتذراً وعنكم الآن ليس الصبر يسلينا

فلما فرغت من شعرها ركبت وساروا بها يقطعون البراري والقفار حتى وصلوا إلى بحر الكنوز ونصبوا الخيام هناك ووكلوا بها بعض الخدم. فلما أظلم الظلام تذكرت حالها وكيف فارقت أطلال الحبيب، فسكبت العبرات وأنشدت تقول:

جن الظلام وهاج الوجد بالسقم والشوق حرك ما عندي من الألم
ولوعة البين في الأحشاء قد سكنت والفكر صيرني في حالة العدم
والوجد أقلقني والشوق أحرقني والدمع باح بسر غير مكتتم
وليس لي حالة في العشق أعرفها من رق عودى ومن سقمي ومن ألمي
جحيم قلبي من النيران قد سعرت ومن لظى حرما الأكباد فى نقم
ما كنت أملك نفسي أن أودعهم يوم الفراق فيا قهري ويا ندمي
يا من يبلغهم ما حل بي وكفى إني صبرت على ما خط بالقلم
أقسمت لا حلت عنهم في الهوى أبدا يمين شرع الهوى مبرورة القسم
يا ليل سلم على الأحباب مخبرهم وأشهد بعلمك إنى فيك لم أنم

أما أنس الوجود فإنه بعد كتابة الأبيات وإرسالها إلى محبوبته ورد، صبر إلى ثاني الأيام فقام وقصد أبياتها. فسأله عنها الخادمة، فأعلمته بالخبر، وأطلعته على ما كتبت من أبيات على الباب.

فلما قرأ تلك الأبيات زاد منه الوجد والقلق وسار في عرض القفار لا يرتاح إلى سمير ولا يلذ له كلام. إلى أن رأى رجلا أهداه إلى مكانها، فبينما هو سائر إلى حبيبته، وقع نظره على حمام من الأيك، فهاج منه لاعج الغرام وأنشد:

يا حمام الأيك أقرئك السلام يا أخا العشاق من أهل الغرام
إنني أهوى غزالاً أهيفاً لحظه أقطع من حد الحسام
في الهوى أحرق قلبي والحشى وعلا جسمي نحول وسقام
ولذيذ الزاد قد أحرمته مثل ما احرمت من طيب المنام
اصطباري وسلوى رحلا والهوى بالوجد عندي قد أقام
كيف يهنأ العيش لي من بعدهم وهم روحي وقصدي والمرام

أما حبيبته ورد فإنها بينما كانت تخطر حول خيامها إذ رأت موكبا حافلا من بعد فجنت منه فإذا في وسطه أمير خطير، فلما وقع نظره عليها عجب من رائق جمالها وهاله ما رأى فيها من شدة الضعف والهزال، فسألها عن حالها وما ألم بها. فأعلمته القصة على التمام وما جرى لها أولا وآخرا.

فرق لها قلبه وبعث فاسترضى أباها وأرسل من يأتي بأنس الوجود.

فما مضى إلا القليل حتى صادفوه قريبا من خيام محبوبته. فلما جاءوا به مالت إليه كغصن البان، فضمها إلى صدره وأنشد:

ما أحلاها ليلات الوفا حيث أمسى لي حبيبي منصفا
وتوالى الوصل فيما بيننا وانفصال الهجر عنا قد وفى
وإلينا الدهر يسعى مقبلاً بعد ما مال وعنا انحرفا
نصب السعد لنا أعلامه وشربنا منه كأساً قد صفا
واجتمعنا وتشاكينا الآسى ولليلات تقضت بالجفا
ونسينا ما مضى يا سادتي وعفا الرحمن عما سلفا

وعاشا معا في ألذ عيش وأهنأ بال.

عيون أحمد بن طولون

حدّث أحمد بن محمد الكاتب، وكان من عقلاء الناس وفهمائهم، وكان فيه دين وخير كثير، قال:

أتاني رسول أحمد ابن طولون وقد مضى من الليل أكثره وأنا نائم في فراشي فقرع بابي قرعاً عنيفاً، فأشرفْ عليهم عيالي فإذا جماعة من الغلمان بالشمع والمشاعل، فراعهم ذلك وعرفوني فأشرفت عليهم، فعلمت أنه لم يستدع حضوري في ذلك الوقت لخير، وأيست من الحياة فدخلت المستراح (بيت الخلاء) وتطهرت وتطيبت كمن يفارق الدنيا ولبست ثياباً نظيفة، وقلت: تكون مشيئة الله، وودعت أهلي وقد كثر بكاؤهم وضجيجهم، ونزلت إليهم فركبت معهم، فمضوا بي حتى دخلت إلى أحمد ابن طولون..

ورأيت قاعة الدار كلها شمعا يتقد، حتى خلت أنه نهار. وسرت فيها حتى بلغت المجلس الذي هو فيه، وبين يديه شمعتان عظيمتان، في كل واحدة منها قنطار.

فسلمت وأنا أرعد خوفا، فرد عليّ السلام، فسكن بذلك بعض روعي، واستدناني فدنوت، فقال لي:

- أنت غدا في دعوة فلان، ومعك في الدعوة فلان وفلان..

إلى أن أسمى لي جميع من كان وقع الاتفاق على حضوره.

فقلت: نعم، أيّد الله الأمير.

فقال: امض واحذر أن يفوتك شيءٌ مما يجري حتى تنصرف به إلى تـُعَرِّفْنِيه.

فقلت: السمع والطاعة لأمر الأمير أيده الله..

وانصرفت وقد حِرت في أمري، وقلت:

- أَبَعْد هذا السن أركب الآثام، وأسعى بقوم بيني وبينهم مودة وعشرة وأخوة وأكون السبب في قتلهم وإتلاف نعمتهم، إنا لله وإنا إليه راجعون.

وتأملت الحال فإذا بي إذا خالفت أمره قتلني وأيتمت ولدي وأرملت زوجتي وإني غير مختار، ثم فكرت في وقوفه على الدعوة وعلى حالها وعلى من يحضرها فازداد خوفي منه وحذرني، وعدت إلى منزلي وقد يئسوا مني فلما رأوني تباشروا بي وحمدوا الله. ورأوني رجعت إليهم من الآخرة.

فلما أصبحت وتعالى النهار، جاءني رقعة صديقي صاحب الدعوة يسألني أن أقدم إليه، ففعلت وأظهرت أن بي عسر البول، وحضرت الجماعة التي أسماهم لي ابن طولون، فكنت كلما سمعت شيئاً يجب أن أثبته أريهم أني أقوم إلى المستراح، فإذا حصلت فيه كتبت كل ما جرى، ولم يكن للقوم منذ وقت حضورهم إلى وقت انصرافهم حديث إلا ذكر أحمد ابن طولون بكل قبيحة والدعاء عليه. كل ذلك لأمن بعضهم من بعض والثقة بهم، ولما في قلب كل واحد منهم منه، فلم أزل أكتب كل ما يقوله واحد واحد، وفي قلبي من ذلك ما قد علمه الله عز وجل إلى بعد العتمة.

وانصرفت الجماعة وكنت آخر من انصرف، فجئت من توي إلى أحمد

بن طولون كما أمرني، فأخذت إليه فأصبته على تلك الحال وهو كالمنتظر لي.. فقال لي:

- الساعة انصرفت؟

قلت: نعم أيها الأمير. أنا آخر من انصرف.

قال: هات ما معك.

فلما استوفى قراءتها، قال لي:

- بارك الله عليك خذ ما تحت المصلى.

فمددت يدي وأنا أرتعد وأقدر أنها أفعى وقد أعدها لي تضرب يدي فتأتي على نفسي، فأصبت رقعة، فقال لي: اقرأها.

فقرأتها فإذا فيها جميع ما كتبته، وإذا به قد بعث معي واحداً من القوم الذين كانوا معنا في الدعوة لا أعرفه، ليعرف أينا أصدق فيما يرويه له. فكانت نسختانا واحدة، فحمدت الله جلِ اسمه إذ لم أدع شيئاً قلّ أو جلّ حتى كتبته، وتيقنت أني لو تركت شيئاً لاستحل قتلي.

فلما قرأتها قال لي: دعها وامضِ.

وأمر لي بألف دينار فأخذتها وانصرفت، وليس لي فكر ولا عقل إلا في أصدقائي وما أتخوفه عليهم.

فلما كان من غد ركبت إلى دار صديقي صاحب الدعوة لأعرف خبره فلما صرت إلى السكة التي يسكن فيها لم أر للدار التي كان فيها أثراً، ورأيت موضعها رحبة مكنوسة مرشوشة واسعة نظيفة لا أعرفها ولا رأيتها قط.

فتحيرت ووقفت أتأمل الرحبة والموضع فرآني بعض شيوخ الناحية، فتقدم إلي وقال:

- أراك متحيرًا.

فقلت له: نعم، أعزك الله أنا أطلب دار صديق وما أراها.

فقدمني ناحية وخلا بي وقال لي:

- امض يا حبيبي في حفظ الله، فرحم الله صديقك.. كان حسن المجاورة لنا، وقاضيا لحوائجنا وحقوقنا.

فقلت له: عرفني ما وقفت عليه لأعمله.

فقال: سعوا به إلى أحمد بن طولون وبجماعة كانوا عنده البارحة في دعوة فلما كان في أول الليل وافى إلى هنا أكثر من خمسمائة رجل فهدموا الدار بأسرها وأغرقوا صاحبها والجماعة الذين كانوا عنده، وصادروا أموالهم، فاذهب في حفظ الله.

فزاد غمي وعظمت مصيبتي. وما انتفعت بنفسي بعدهم.

مُري خيالك أن يطرقني

كانت زادمهر جارية بارعة الجمال، طيّبة الغناء. رآها يوماً فتى من بغداد فعشقها، وأخذ في استعطافها بالمراسلات والمكاتبات، وهي لا تعرف إلا الدنيا والدينار. وجعل يصف لها في رقاعِهِ عشقَه، وسهره في الليالي، وتقلّبه على حرّ المقالي، وامتناعه من الطعام والشراب، وما يشاكل هذا من الهذيان الفارغ الذي لا طائل فيه ولا نفع.

فلما أعياه أمرها، ويئس من تعطّفها عليه، كتب إليها في رقعة:

وإذ قد منعتني زيارتك، فمُري بالله خيالك أن يطرُقَني ويبرد حرارة قلبي.

فقالت زاد مهر لرسولته:

ويحكِ، قولي لهذا الرقيع: أنا أعمل ما هو خير لك من أن يطرقك خيالي؛ أَرسل إليّ دينارين في قرطاس حتى أجيئك أنا بنفسي!

أحمد بن طولون والطبيب

كان سعيد بن نوفل طبيبا نصرانيا متميزا في صناعة الطب. وكان في خدمة أحمد بن طولون، يصحبه في السفر والحضر. وكان لسعيد خادم قبيح الصورة اسمه هاشم، يخدم بغلة سعيد، ويمسكها له إذا دخل دار أحمد بن طولون. وكان سعيد يستعمله في بعض الأوقات في سحق الأدوية بداره، وينفخ النار على المطبوخات.

وتقدم ابن طولون إلى سعيد أن يختار طبيبا يكون لحرمه، ويكون مقيما بالقصر في غيبته. فقال له سعيد:

- لي ابن ذكي الروح قد علمته وخرّجته، وهو حسن المعرفة بالطب.

قال: أرِنيه.

فأحضره. فلما رآه ابن طولون شابا رائعا حسن الصورة قال:

- لا يصلح هذا لخدمة الحرم. أحتاج لهن طبيبا حسن المعرفة، قبيح الصورة.

فأشفق سعيد أن يختار غريبا فينبو عنه، ويخالف عليه، فأخذ خادمه هاشما وألبسه جُبة وخفين، وعينه للحرم.

ثم لقيه عمر بن صخر، فقال له:

- ما الذي نصبت هاشما له؟

قال سعيد: خدمة الحرم، لأن الأمير يطلب رجلا قبيح الخلقة.

فقال له عمر: أليس في أبناء الأطباء قبيح قد حسنت تربيته وطاب مغرسه يصلح لهذا؟ إنك استرخصت الصنعة. والله إن قويت يده ليرجعن إلى دناءة أصله وخساسة محتده.

فتضاحك سعيد من هذا الكلام.

وتمكن هاشم من الحرم بصنعه لهن ما يوافقهن من أدوية الشحم والحبل وما يُحسّن اللون ويغزر الشعر، حتى قدمه النساء على سعيد.

وخرج ابن طولون إلى الشام وقصد الثغور لإصلاحها، ثم عاد إلى أنطاكية، فأدركه إسهال من ألبان الجواميس التي استكثر منها، فالتمس طبيبه سعيدا فأخبروه أنه قد خرج إلى ضيعة له بأنطاكية. فتمكن غيظه منه. فلما حضر أغلظ له في التأخر عنه، وقال له:

- تشغلك ضيعتك عن صحبتي؟ أعلم أنك تسبقني إلى الموت إن كان موتي على فراشي، فإني لا أمكنك بالاستمتاع بشيء بعدي.

وأنِف أن يشكو إليه ما وجده.

فلما خرج قال له اسحاق بن إبراهيم كاتب أحمد بن طولون يعاتبه:

- ويحك يا سعيد، أنت حاذق في صناعتك، وليس لك عيب إلا أنك مدل بها. والأمير وإن كان فصيح اللسان فهو أعجمي الطبع. فتلطف له، وارفق به، وراع حاله.

فقال سعيد: والله ما خدمتي له إلا خدمة الفأر للسنور. وإن قتلي لأحب إليّ من صحبته.

ثم زاد المرض على ابن طولون في الليلة الثانية، فطلب سعيدا فجاءه وقد شرب نبيذا. فقال له:

- أنا من يومين عليل وأنت تشرب النبيذ؟

فقال: يا سيدي، طلبتني أمس وأنا في ضيعتي على ما جرت عادتي، وحضرت فلم تخبرني بشيء.

قال: فما كان ينبغي أن تسأل عن حالي؟

قال: ظنك بي يا مولاي سيء.

قال: فما العمل الساعة؟

قال: لا تقرب شيئا من الغذاء ولو اشتهيته الليلة وغدا.

قال: أنا والله جائع وما أصبر.

قال: هذا جوع كاذب لبرد المعدة.

ودخلت امرأة ابن طولون عليه، فقالت:

- والله يا سيدي ما في أطبائك مثل هاشم.

فقال لها: أحضرينيه سرًّا.

فأدخلته إليه سرًّا، وشجعته على كلامه. فلما مثل بين يديه نظر في وجه ابن طولون وقال:

- أُغفِل الأمير حتى بلغ إلى هذه الحالة؟ لا أحسن الله جزاء من كان يتولى أمره.

قال له ابن طولون: فما الصواب يا هاشم؟

فناوله دواء ظن معه ابن طولون أن البرء قد تم له. ثم قال لهاشم:

- أنا أشتهي عصيدة وسعيد يمنعني عنها.

قال: يا سيدي، أخطأ سعيد، وهي مغذية ولها أثر حميد فيك.

فأمر ابن طولون بعملها وأكل منها، وطاب نفسا ببلوغ شهوته، ونام وتوهم أن حاله زادت صلاحا.

فلما حضر سعيد بعد ذلك، قال له:

- ما تقول في العصيدة؟

قال: هي ثقيلة على الأعضاء، وتحتاج أعضاء الأمير إلى تخفيف عنها.

قال له أحمد: دعني من هذا الاختلاق، قد أكلتها ونفعتني والحمد لله.

قال سعيد: الله المستعان.

قال: فما تقول في السفرجل؟

قال سعيد: تمصّ منه خلو المعدة والأحشاء فإنه نافع.

فلما خرج سعيد أكل ابن طولون سفرجلا، فوجد السفرجل العصيدة فعصرها فتدافع الإسهال حتى قام أحمد أكثر من عشرة مجالس. فدعا سعيدا فقال:

- يا ابن الفاعلة! ذكرت أن السفرجل نافع لي، وقد عاد إليّ الإسهال.

فقام سعيد ونظر إلى المائدة ورجع إليه، فقال:

- هذه العصيدة التي حمدتها وذكرت أني غلطت في منعها، لم تزل مقيمة في الأحشاء لا تطيق هضمها لضعف قواها، حتى عصرها السفرجل. ولم أكن أوصيت بأكله وإنما بمصه.

ثم سأله عن مقدار ما أكل منه، فقال:

- سفرجلتين.

فقال سعيد: أكلت السفرجل للشبع، ولم تأكله للعلاج.

فقال ابن طولون:

- يا ابن الفاعلة! جلست تنادرني وأنت صحيح سوي وأنا عليل متعب.

ثم دعا بالسياط فضربه مائتي سوط، وأمر بأن يطوفوا به على جمل وأن ينادى عليه:

- هذا جزاء من ائتمن فخان.

ونهب الناس منزله، ومات بعد يومين. ومات ابن طولون في علته هذه بعده بقليل.

الحاكم بأمر الله والنساء

حظر الحاكم صاحب مصر على النساء الخروج من منازلهن والاطلاع على سطوحهن ودخول الحمامات ومنع الأساكفة من عمل الخفاف لهن وقتل عدة نسوة خالفن أمره في ذلك.

وكان الحاكم قد لهج بالركوب بالليل يطوف الأسواق، ورتب في كل درب أصحابًا أخيارًا يطالعونه بما يعرفونه ورتبوا لهم عجائز يدخلن الدور ويرفعن إليهم أخبار النساء، وان فلانا يحب فلانة وفلانة تحب فلانا وأن تلك تجتمع مع صديقها وهذا مع صاحبته. فكان أصحاب الأخبار يرفعون إليه ذلك فينفذ من يقبض على المرأة التي سمع عنها مثل ذلك فإذا اجتمع عنده جماعة منهن أمر بتغريقهن.

واتفق أن مرَّ قاضي القضاة مالك بن سعيد الفارقي ببعض المحال فنادته امرأة من دارها وأقسمت عليه أن يقف لها فوقف، فبكت بكاء شديدا وقالت:

- لي أخ لا املك غيره وعرفت أنه في آخر الرمق وأنا أقسم عليك إلا أمرت بحملي إليه لأشاهده قبل أن يقضي نحبه.

فرحمها ورقَّ لها، وأمر رجلين من أصحابه أن يحملاها إلى الموضع الذي تدلهما عليه.

فأغلقت باب دارها، وتركت المفتاح عند جارة لها وقالت:

- سلميه إلى زوجي.

ومضت إلى باب فدقته فدخلت وقالت للرجلين: انصرفا.

وكانت الدار لرجل يهواها وتهواه فلما رآها سرّ بها فأخبرته بحيلتها.

فلما انصرف زوجها آخر النهار وجد بابه مغلقا فسأل الجيران فأخبروه بالحال وبما جرى لها مع قاضي القضاة. فدخل إلى بيته فبات في أقبح ليلة. ثم باكر في غد دار قاضي القضاة، وقال:

- أنا زوج المرأة التي فعلت أمس في بابها ما فعلته ومالها أخ وما أفارقك حتى تردها إليّ.

فركب في الحال، واستصحب الرجلين الذي أنفذ بهما مع المرأة حتى يرشداه إلى الدار، فوجد المرأة والرجل نائمين في إزار واحد على سكر فحملا إلى الحاكم، فأمر بأن تُحرق المرأة، وأن يُضرب الرجل ألف سَوط.

النبوءة
هند وأبو سفيان

كانت الشمس ترسل أشعتها حارقة على بحر لا نهائي من الرمال وكانت الصحراء تحتها تلتهب وهي تتلقى فيضا من الحرارة، وسكنت جميع الكائنات في هذا الأتون الصامت، حتى حيوانات الصحراء، وهوامها وطيورها آوت جميعا إلى جحورها تتقي الوهج. وكأنما كانت الرياح أيضا تخشى اللهيب فقبعت لا تتحرك فيها نسمة هواء. وران على الكون صمت رهيب زاد من وحشة المكان ورهبته.

وفي وسط هذا الجحيم الأرضي كان هنالك رجلٌ يسير. شيخ ينتزع قدميه من الأرض انتزاعا، وقد تصبب العرق على جسده النحيل. وكان منهوكا مكدودا تكاد أن تخور قواه. وما كان يدري أين ينتهي به المطاف، ومع هذا فقد ظل في سيره بلا توقف كأنما تدفعه قوة فوق الطبيعة. وتطلعت الشمس من عليائها على هذا المخلوق الضئيل الذي كان كأنما يتحداها في قوتها وجبروتها. وضاعفت من شدة حرارتها حتى خيل للشيخ أن أشعتها قد ركزت عليه دون سائر الكون، وبالرغم من هذا فإنه ظل يتابع سيره الوئيد إلى حيث لا يعلم.

ولم يكن الشيخ يسير بمفرده وإنما كانت إحدى يديه تقبض على عنان إتان تعلوه امرأة تحتضن صبيا تحاول أن تدفع بجسدها عنه أشعة الشمس. وسكن الطفل إليها فلم تكد تسمع له صوتًا وكأنما أحس بوحشة المكان فشارك في السكون. ومضت الخواطر تدور في رأس المرأة. لم تكن تدري إلى أين يقودها الشيخ، ولكنها كانت على ثقة عمياء

به وبربه. لقد بدأ الركب رحلته قبل مطلع الشمس، واتجه جنوبا، ولم يتوقف هنيهة للراحة. وفي كل خطوة كان الركب يخطوها، كان يبعد عن الأهل والعشيرة بل إنه يبدو أنه كان يبعد عن العالم وما فيه، ليتجه إلى الجحيم. كانت منهوكة القوى وقد جف حلقها فازداد شعورها بالحرارة، ولكنها ظلت صابرة لا تتبرم. ومدت بنظرها إلى الأفق كأنها تبحث عن شيء، ولكن المنظر كان هو لم يتغير. رمال لا نهائية وانعكاس أشعة الشمس عليها يكاد أن يخطف البصر. ألا توجد شجرة واحدة في هذا الجحيم المستعر؟. ألا يوجد مكان واحد ظليل؟

وبلغ الركب قمة تل صغير من الرمال. ووقف الشيخ برهة ريثما يلتقط أنفاسه وراح يجول بناظريه في الخواء الفسيح أمامه. والتفت الرجل إلى المرأة فرأت في عينيه نظرة كلها رأفة، وكلها رحمة، ولكنها نظرة فيها أيضا كل العزم وكل الإيمان. وعاد الشيخ يبحث بناظريه عن مكان ظليل يقضي فيه الركب ساعة الظهيرة، ولكن الصحراء لم تمنح. ورفع رأسه إلى السماء في ابتهال صامت ودمعت عيناه رأفة ورحمة بالأم وصبيها، وما كان الله ليرفض ابتهال الشيخ.

وأحس الركب بنسمة خفيفة تلاعب سطح الرمال، وتهتز لها الثياب فرحا. وظهرت في السماء سحب متفرقة، ما لبثت أن تجمعت تحجب وهج الشمس وحرارتها عن المنهكين، ولاحت على وجه الشيخ الصبوح شبه بسمة شكر وحمد، وطأطأ رأسه في الأرض خجلا من ربه ثم شد على عنان الإتان وبدأ يغذي السير إلى حيث لا يعلم إلا الله ربه.

واختفت الشمس وراء الأفق، وهبط الليل فجأة كأنما قد احتوى الأرض في ملاءة سوداء. وتوقف الركب يستريح. وسألت المرأة بعض الماء والزاد. فناولها الشيخ قطرات ماء، وكسرة من خبز وبعض تمر.

وازدادت وحشة الليل وسكونه. وما كان معهم أخشاب ليوقدوا نارا. فاكتفوا بضوء النجم. وتناول الجميع زادهم ثم استلقوا على الأرض الناعمة منهكين. واستيقظت المرأة بعد ساعات والبرد القارس يهرأ جسدها وضمت وليدها إلى صدرها تهبه بعض الدفء الذي حرمت منه. وأحست بالشيخ يخلع عباءته، ويضعها حولها. وغالبها النعاس فأغلقت عينيها ولكنها قبل أن تنام كانت تسمع صوت الشيخ ضعيفا خافتا، يصلي لربه.

وتتالت الأيام والليالي والركب ما زال سائرا، دائما نحو الجنوب. وسألت المرأة الرجل إلى أين المطاف؟ ولكنه أجاب بأنه لا يدري وأن الله وحده هو الذي يعلم. واستمروا في السير. وجاء يوم توقف الشيخ فيه على غير موعد، وغير عادته. ونظر الشيخ حوله فإذا هو في واد تحوطه الجبال، ولكن لا ماء ولا زرع ولا كلأ. هنا إذا نهاية المطاف. هنا يريدني ربي أن أترك المرأة ووليدها. والتفتت المرأة إليه وقد بدأ الشك يساورها. هل سيتركها الشيخ ووليدها في هذا المكان الموحش حيث لا إنسان ولا شجر، ولا ماء؟ وأجابها الشيخ في ثقة واطمئنان «بهذا أمرت».

وأقام الشيخ وابنه بيتا من حجارة وطوب. كان الشيخ يقيم والصبي يحمل ما يقدر عليه من حجارة.

وحان موعد عودة الشيخ، ونظر في حب وحنان إلى ولده البكر، وإلى امرأته المسكينة المطيعة. ودارت عيناه في جنبات الوادي عسى أن يرى ماء أو كلأ، ولكن الوادي ظل صامتا على وحشته، وظلت الجبال كئيبة على رهبتها. وفي خطى وليدة متثاقلة ترك امرأته وابنه وحيدين وسط واد لا نبات فيه ولا إنسان. ولكن قبل أن يتركها ترك معها إيمانا راسخا لا يضعضع ولا يتزعزع، وترك معها دعوة من نبي كريم « ربنا إني أسكنت

من ذرتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهما وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون» صدق الله العظيم.

واستكانت الأم المسكينة لأمر الله. وراحت نظراتها تجوب الوادي علها ترى بريق أمل. واشتدت حرارة الشمس، وجف حلقها حتى شعرت به يكاد أن يلتهب. ومدت يدها إلى الجرة التي تركها الشيخ وراءه، ثم ترددت اليد حينما وقع نظر الأم على الصبي الممدد إلى جوارها يغط في نومه في دعة واطمئنان. ماذا لو انتهت هذه البقية الضئيلة من الماء. ورفعت يدها إلى رقبتها تدلكها كأنما لتجعل بقية من لعاب يجري.

ومضى يوم. تلاه آخر، وشرب فيه الصبي كفايته أو أقل، وما كان يعلم أن الأم قد حرمت على نفسها الماء حتى بدأت شفتاها تتشققان.

وجاء يوم نضب فيه الماء، وذاقت الأم أقصى درجات الظمأ ولكن لهفتها على ابنها كانت تفوق آلام الظمأ. وانتحى الصبي ناحية ظليلة يلهو بالرمال والحصى. وتركته الأم وهرولت في جنبات الوادي بين الصفا والمروى سبع مرات تبحث عن ماء لم تجده، فعادت محطمة مستكينة لقضاء الله.

وانبثقت عين ماء سلسبيل من تحت قدمي الطفل وهو يلهو.

ورأى الشيخ فيما يرى النائم كأنما هو يذبح ابنه وقام من نومه فزعا. هل قضى عليه أن يذبح ابنه البكر؟

لقد كان يعلم أن الكنعانيين والأموريين وغيرهما من القبائل الوثنية يقدمون كل بكر من أولاد أو ثمار أو حيوان إلى إلههم بعل، وقد يتساءل

البعض هل ستستمر هذه العادة مع عقيدة التوحيد؟ ألن تنتهي هذه الذبائح البشرية؟

ولكن ما كان لمثله أن يتساءل حينما يأمره الله. وبخطى حزينة اقترب من بكره. يا بني إنني أمرت أن أذبحك. وبإيمان يكاد أن يداني إيمان الشيخ، قال الصبي: يا أبت أفعل ما أمرت. وكان الفداء بكبش عظيم. واستقرت بهذا أسس عقيدة التوحيد. وقضي نهائيا على إحدى العادات الوثنية القديمة.

ورأى جماعة من جرهم الطير يحوم فوق سماء الـوادي. ودهش الدليل والتفت إلى رفاقه فما كان عهدهم ماء بهذا المكان. واتجه منهم مستطلع يتبين جلية الأمر. ووجدوا امرأة وصبيا وبيتا، وعينا تفيض ماء سلسبيلا. واستأذنوا المرأة أن يشاركوها الوادي تستأنس بهم. والماء لها وأذنت واستقرت القبائل. واعتنق الرجال الدين الحنيف. ومضوا يصلون ويطوفون حول البيت الحرام يعظمونه.

ومات إسماعيل. ومضت أعوام. لعلها عشرات أو مئات. وكثر الناس بمكة، وتعددت مصالحهم فكان منهم من يرتحل لأعماله فيأخذ معه حجرا من الكعبة يضعه حيثما حل ويطوف به كطوافه بالكعبة. وتطورت الأحوال حتى أضحوا يعبدون الحجارة؛ أية حجارة. ويقال إن أول من غير دين إسماعيل فنصب الأوثان وسبب السائبة عمرو بن ربيعة.

وكان الحارس هو الذي يتولى أمر الكعبة فلما بلغ عمرو بن لحي نازعه في الولاية وقاتل زعيمهم ببني إسماعيل ونفاهم من بلاد مكة، وتولى حماية البيت. ثم أنه مرض، فقيل له إن بالبقاء من الشام عينا حارة

ليستشفى بها، فأتاها فاستحم بها فبرئ. ووجد أهلها يعبدون الأصنام فسأل عنها فقالوا نستسقي بها المطر، ونستنصر بها على العدو فأخذ منها ونصبها حول الكعبة.

وانتشرت عبادة الأصنام في بلاد العرب جميعا، شمالها وجنوبها، في معين، وسبأ، وحمير، وقنبان، وحضرموت، واوسان وجبا، وسمعان وأربع. وظهر الثالوث الشمس، والقمر، والزهرة.

ويحدثنا نيلوس الأكبر سنة 290م. الذي كان راهبا على جبل سيناء وهو يتحدث عن عبادة الزهرة عند العرب، فيقول: إنهم لا يعرفون إلها روحيا أو من عمل أيديهم، بل يقدسون نجم الصباح ويقدمون له عند طلوعه أحسن ما غنموه. كما أنهم يضحون له أطفالا جميلة فوق أكوام من أحجار وذلك عند وقت الفلق. ويقول إنه حدث أن سرق العرب نجله الصغير ليقدموه قربانا لنجم الصباح، لكن بينما كانوا يقضون الليل في عمل الاستعدادات اللازمة. وفي الصباح، عندما حان وقت تقديم القربان كان العرب يغطون في نومهم، ولما استيقظوا وجدوا الشمس طالعة وقد مضى وقت تقديم القربان فنجا الطفل من تلك المحنة.

وقد وردت هذه القصة في كتاب تاريخ العرب القديم تأليف نيلس وهرمل وغيرهما وترجمة الدكتور فؤاد حسنين علي. وواضح أن السيد نيلوس الأكبر هذا قد اخترع القصة برمتها كما أنه لم يكن يعلم شيئا عن العرب ولا عن دياناتهم المتعددة.

ولكن دعونا الآن من مناقشة الأصنام وأوصافها، ولنصاحب رجلا بدأ بالمسيرة نفسها التي قطعها قبله بأكثر من ألفي عام سيدنا إبراهيم عليه السلام. لقد رأينا الشيخ يسير في الصحراء. لا حامي له إلا الله

يدفعه إيمانه به، ويحميه ولنتابع الآن رجلا آخر يقطع المسيرة نفسها وقد نسي دين التوحيد.

نرى الرجل وقد عقد العزم على الرحيل ينسل ليلا إلى شجرة يعقد طرفا من غصنها بطرف غصن آخر. كان عليه أن يفعل هذا ليثق في أنه سوف يعرف إن كانت امرأته خانته أثناء غيبته. ذلك هو الرتم، فإن عاد الرجل ووجد أن الغصنين على ما كانا عليه فامرأته لم تخنه وإن كانا قد انفصلا فقد خانته.

لا تحسبن رتائما عقدتها تنبيك عنها باليقين الصادق

إنه لم يكن يثق فيها حال وجوده فكيف يثق فيها وهو غائب عنها، على أي حال فقد عقد رتمه وهو لا شك مخبره بما سوف تفعل امرأته حال غيابه.

خانته لما رأت شيبا بمفرقه وغره حلفيها والعقد للرتم

لو كان فقط يستطيع أن يمتنع عن السفر. ولكنه كان يعلم أن ذلك ضرب من المحال. إن قاتل أبيه قد ارتحل شمالا، وجاءته الأنباء بذلك، فكان عليه أن يتابعه ليأخذ بدم أبيه. وكأنما قد أحس المقتول بتردده فإذا به يأتيه ليلا، ليراه فيما يرى النائم وقد انبسطت جثته أمامه مفلوجة الرأس والدم يسيل منها. ورأى بعضا من الدماء تتجلط وتتجعد لتأخذ شكل طائر ما لبث أن طار ينعب، وعرف الرجل نعيب الطائر إنه ذكر البوم، واستمع إلى صياحه اسقوني، اسقوني. إنه كان يطالب بثأره.

وهب الرجل من نومه فزعا والعرق يتصبب منه. وتمثل له الحلم كأنما هو حقيقة واقعة لا ريب فيها. لقد عرف الطائر، هو إلهامه التي سمع الحديث عنها أكثر من مرة. لقد خرج من جمجمة أبيه، وسيظل هكذا

يصيح حتى يؤخذ بالثأر، بل إنه سوف يعود كل مائة عام ليصيح على القبر إسقوني، اسقوني. هو روح أبيه تائهة في أجواء السماء، ولن تهمد حتى يقتل القاتل وعندئذ فقط سوف يطير الصدى ولا يعود.

يا عمرو أن لا تذر شتمي ومنقصتي أضربك حتى تقول الهامة إسقوني.

إذا لا مفر من الترحال. ولكن السفر لم يكن بالأمر الهين الذي يقوم به المرء بمجرد العزم. كان عليه أن يعرف أي الأيام يسافر فيها ليبتعد عن أيام النحس، وكان عليه أن يعرف ما إذا كان السفر سوف يعود عليه بفائدة أم لا، ومستقبل الرحلة وما إذا كان سيظفر ببغيته.

واتجه الرجل إلى الكعبة ولم يتوان في خطاه وهو يتخذ طريقه إلى هبل، أعظم الأصنام، هناك كانت قداح يستقسم بها أهله، قداح ليعرفوا بها نسبة المولود، وأخرى للنكاح وثالثة للنجاح والأعمال والسفر وغيرها من الأمور. وقدم الرجل هديته للإله. مائة درهم، نقدا وعدا واستقسم بالأزلام بقداح السفر. وأخرج صاحب القدح قدحين وخرجت النتيجة بالنهي.

ولم يقبل الرجل النتيجة فما كان من الهين عليه أن يترك دماء أبيه دون انتقام. وعاودته ذكرى الهامة التي رآها تتشكل من الدماء المتدفقة من الرأس فازداد التياعه وازداد تصميمه.

وتوجه الرجل إلى صديق له يستشيره. أي الكهانة أحذق. كان عليه أن يعرف هل سيسافر حقا ومتى السفر. أي الأيام، أيام نحس، وأيها أيام سعد. وكان يود أن يخترق الحجب ليعلم الغيب وما يبقيه له الغد. وتذاكر الرجلان أسماء الكهان والعرافين واستقر الرأي على أحدهم. وقضيا شطرا من الليل يذكران طرفا من نوادر الكهان وأقاصيصهم.

ذكر شقا بن إنمار بن نزار ذلك الرجل الذي ابتلاه الله في يديه ورجليه وعينيه فاقتطع من كل واحدة وذكرا قصته المشهورة مع مالك بن نصر ملك اليمن إذ رأى رؤيا أبي أن يبوح بها لأحد من الكهنة والعرافين وطلب منهم إخباره بها ثم تأويلها. ولم يفلح أحد من الكهان في معرفة الرؤيا إلا شقا قال له:

«أيها الملك إنك رأيت حممه خرجت من ظلمة فوقعت بين روضة وأكمة فأكلت كل ذات نسمة».

وإذ صدق الملك على الرؤيا طلب تفسيرها فقال: «أحلف بما بين الجرتين من إنسان لينزلن أرضكم السودان فيغلبن على كل طفله البنان وليملكن ما بين أبين إلى نجران».

واستفسر منه الملك عن موعد حدوث ذلك، أفي زمانه أم بعده. فأجاب بل بعده بزمان ثم يستنقدكم منه عظيم الشأن ويذيقهم أشد الهوان.

ويسأل الملك عن عظيم الشأن، قال: «غلام يخرج من عدن من بيت ذي يزن » وهل يدوم سلطانه؟ «بل ينقطع برسول مرسل» يأتي بالحق والعدل، بين أهل الدين والفضل، ويكون الملك في قومه إلى يوم الفصل.

وتذاكرا سطيح بن مازن من غسان، الذي كان يدرج كما يدرج الثوب ولا عظم فيه إلا الجمجمة والذي ولد هو وشوق في يوم واحد وكانا من المعمرين.

ورويا قصة إيوان كسرى إذا ارتجس فسقطت منه أربع عشرة شرفة. كما كتب إليه صاحب اليمن يخبره أن بحيرة سادة غاصت تلك الليلة،

وكتب إليه صاحب السماوة يخبر أن وادي السماوة انقطع في الليلة نفسها، وكتب إليها صاحب طبرية أن الماء لم يجر تلك الليلة في بحيرة طبرية، في حين كتب إليه صاحب فارس أن بيوت النيران خمدت تلك الليلة ولم تكن خمدت قبل ذلك بألف سنة.

وهال كسرى الأمر فجمع أهل مملكته، فإذا بالموبذان فقيه الفرس وقاضيهم يضم إلى ما سبق أن رأى رؤيا هالته؛ رأى إبلا صعابا تقود خيلا عرابا قد اقتحمت دجلة وانتشرت في البلاد.

وطالب كسرى بتأويل كل هذا من عبد المسيح بن بقيلة الغساني، الذي أرسله إليه عامل الحيرة فعجز عن التأويل ولكنه طلب الشخوص إلى خاله سطيح بالشام وارتحل عبد المسيح حتى وصل الشام. وسطيح يحتضر فناداه فلم يجبه، وكلمه فلم يرد عليه، فقال عبد المسيح:

أصم أم يسمع غطريف اليمن يا فاصل الخطبة أحيت من ومن
أتاك شبح الحي من آل سنن أبيض فضفاض الرداء والبدن
رسول قبل العجم سيهوى الوثن لا يرهب الرعد ولا ريب الزمن

فرفع المحتضر رأسه وقال: عبد المسيح، على جمل مشيح. جاء إلى سطيح، وقد أوفى على الضريح. بعثك ملك ساسان، لارتجاس الإيوان، وخمود النيران، ورؤيا الموبذان، رأى أبا صعابا تقود خيلا عرابا، قد اقتحمت في الواد وانتشرت في البلاد. يا عبد المسيح إذ ظهرت التلاوة، وغاض وادي السماوه، وظهر صاحب الهراوة، فليست الشام لسطيح بشام، يملك منهم ملوك وملكات، عدد سقوط الشرفات وكل ما هو آت آت »

وصدق سطيح في كهانته، فإن في تلك الليلة، ولد محمد رسول الله

«ص». واطمأن كسرى إذ أخبره عبد المسيح أن الملك لن يزول من دولة الفرس إلى أن يملك منهم أربعة عشر ملكا، وحتى هذا تكون أمور ويدور الزمان. ولكنه لم يكن يدري أن كل ذلك لن يجاوز الأربعين عاما.

وذكرا قصة الأعرابي من لهب إذ خرج في حاجة ومعه سقاء من لبن، فسار صدر يومه ثم عطش، فأناخ بعيره ليشرب فإذا غراب ينعب فأثار راحلته ومضى، فلما أجهده العطش أناخ ليشرب، فنعب الغراب فأثار راحلته. ثم في الثالثة نعب الغراب وتمرغ في التراب، فضرب الرجل السقاء بسيفه، فإذا فيه أسود ضخم. ثم مضى فإذا غراب على سدره فصاح به فوقع على شجرة، فصاح به، فوقع على صخرة فانتهى إليه فإذا تحت الشجرة كنز.

فلما رجع إلى أبيه قال له: ما صنعت؟

قال: سرت صدر يومي ثم أنخت لأشرب فإذا غراب ينعب.

قال: أثره وإلا فلست يا بني!

قال: أثرته، ثم أنخت لأشرب، فنعب الغراب وتمرغ في التراب.

قال: فاضرب السقاء وإلا فلست بابني.

قال: فعلت.

قال: فإذا أسود ضخم.

قال: ثم رأيت غرابا واقعا على سدره.

قال: أطره، وإلا فلست بابني!

قال: أطرته ثم وقع على سلمه.

قال: اطره، وإلا فلست ابني.

قال: أطرته فوقع على صخرة.

قال: أخبرني بما وجدت!

فأخبره.

واستمر الرجلان يتسامران حتى قال الصديق إن الطريق طويل موحش، فهلا اتخذت لك رفيقا، ووافق الرجل على الرأي، وراح يذكر أصدقاءه وإخوانه ويستعبدهم الواحد تلو الآخر لعلة أو سبب. وذكرا صديقا لهما ارتحل منذ أمد وانقطعت أخباره، وذكرا أبيه إذ ذهب إلى بئر عادة بعيدة الغور، ونادى عليه ثلاثا ولكنه لم يسمع صوتا، فعلم أن ابنه قد مات ولو كان حيا لسمع الأب صوتا من البئر.

غـــاب فـلـم أرج لــه إيـابـا والحـفـر لا يـرجـع لي جوابا
ومـــا قـــرأت مـنـذ نـــأي كتابا حتى متى أستنشد الركابا

وكان الليل قد انتصف أو كاد، فقام الرجل من المجلس وتوجه إلى داره، وفي الصباح قصد العراف وكان ممن يطرقون بالحصى والخط. وسأل الرجل عن رحلته وهل سيتوجها النجاح، فأخرج العراف حصيات أعدها عنده، طرق بعضها ببعض، ثم بشره بالنجاح. وأراد أن يتأكد عن طريق الخط، فأمر الكاهن غلاما عنده فخط خطوطا عليّ في خفة، وعجلة لا يدركها العد، ثم أمره بأن يمحوها خطين خطين. وبدأ الغلام في تنفيذ الأمر في حين كان الكاهن يهمهم بكلمات غير واضحة، وغير مفهومة. وأمر الكاهن الغلام بالكف عن محو الخطوط، ونظر فإذا

هنالك خطان، وبشره الكاهن للمرة الثانية بنجاح رحلته ولو كان قد بقي خط واحد لكان علامة الخيبة.

واختار رفيق سفر رضي مصاحبته رحلته. وراحا يعدان العدة من الزاد وغيره. ومضيا إلى السوق ينتقيان فرسين. وانتقى رفيقه فرسا مهقوعا له دائرة على كتفه. وحذره الرجل من شرائه منبها إياه أنه إن ركبه وعرق تحته، اختلت امرأته وطمحت إلى غيره.

إذا عرف المهقوع بالمرء انعطفت حليلته وازداد حرا عجاتها

واقتنع الرجل، فعدل عن رأيه إلى غيره. وعطس رجل إلى جوارهما فالتفت الرفيق إلى الرجل مغاضبا وقال: بكلابي. ليكن شؤم عطاسك بك.

وأخيرا، جاء يوم الرحيل، وارتدى الرجل ثيابه استعدادا لترك الدار. وجاءته امرأته بكعب أرنب فعلقه وهي تقول: «لا تدعه، حتى لا يقربك جنان الدار، ولا عمار الحي، ولا جار العشيرة، ولا غول القفر».

ومسح الرجل على صنمه بالدار ثم خرج لملاقاة رفيق السفر في المكان الموعود. وتلقاه صاحبه وانطلقا حتى إذا بلغا ربوة تطل على مسكنيهما التفتا وراءهما، فإن من يلفت وراءه لا عودة له. واصفر وجه الرفيق، وهو ينظر إلى داره، لقد رأى نارا أوقدتها زوجته، إن المرأة لا تبغي له عودة، إنها نار الطرد، أوقدتها خلفه.

وأطلقا لجواديهما العنان ييمان شطر الشمال. كانا يريدان أن ينهيا رحلتهما في مغارة يعلمان أن بها شجرا وماء: وكان عليهما أن أرادا أن يصلا إليها قبل أن يحل الليل أن يغذيا السير. وبدأت أمامهما الصحراء شاسعة

موحشة يلفح لهيبها الوجوه. ووصلا إلى المغارة فأناخا راحلتيهما وعقلا لهما، وخطا عليهما خطين. قال الرجل: أعوذ بصاحب هذا الوادى.

وأنشد صاحبه:

أعـوذ من شرذي البلاد البيد بـسـيـد مـعـظـم مجـيـد
أصـبـح يـأوى بـلـوى زرود ذي عـزة وكـاهـل شـديـد

وأوقد الرجلان نارا يستدفئان بها ويستأنسان، وينير ضوءها ظلمة الصحراء هي نار الأسد، تبعد عنهما الهوام والوحوش. وأحاطهما ظلام دامس غير مقمر فكأنهما والنار في جزيرة من نور وسط ليل بهيم. وتطلع الرجل حوله، وهو لا يرى شيئا خارج نطاق ضوء النار الباهت. وازدادت الرهبة في نفسه فقد خيل إليه أن مئات من الأشباح تتراقص حولهما في ذلك السواد الكالح. لم يكن جبانا، فلو أن أمامه رجالا مثله لقاتلهم حتى الموت، ولو أن وحش فلاة هاجمهما لغالبه دون وجل، ولكن تلك الأشباح التي لا يؤثر فيها سيف. ذلك الجن الذي يتلون ويتشكل كيفما يشاء، ما حيلته فيه.

وكأنما أرادت الطبيعة أن تزيد من هواجس الرجلين فابتدأت ريح الليل ترسل صفيرا هو إلى العويل أقرب. وصاحب الريح برد أرسل في جسد الرجلين قشعريرة قوية لم تفلح في تهدئتها تلك النار الخابية التي راحت تتطاول بدورها تمد من ضوئها حينا، وتنكمش به أخرى.

والتفت إلى صاحبه يسامره، ويسأله إن كان له في الشعر، فإذا بصاحبه ينشد:

إني وإن كنت صغير السن فـإن الـعـين نـبـوا عني
فـإن شـيـطـاني أمـير الجـن يـذهـب بي في الشعر كـل فن

ونظر إليه الرجل متعجبا متسائلا. أولك شيطان إذا عسى ألا يكون مسحل الأعشى.

وتضاحك الرجلان وتذاكرا قصة مسحل الأعشى، قال الرجل: "سمعت الأعشى يقول: خرجت أريد قيس بن معد يكرب بحضرموت فضللنا في أوائل أرض اليمن لأني لم أكن سلكت ذلك الطريق قبل، فأصابني مطر، فرميت ببصري أطلب مكانا ألجأ إليه فوقعت عيني على خباء من شعر فقصدته. وإذا أنا بشيخ على باب الخباء فسلمت عليه، فرد عليّ السلام، وأدخل ناقتي خباء آخر، كان بجانب البيت. فحططت رحلي وجلست".

فقال: من أنت؟ وأين تقصد؟

قلت: أنا الأعشى أقصد قيس بن معد يكرب.

فقال: حياك الله، أظنك امتدحته بشعر.

قلت: نعم.

قال: فأنشد فيه.

فابتدأت مطلع القصيدة:

رحلت سمية غدوة أجمالها غضبا عليك فما تقول بدالها

فلما أنشدته هذا المطلع منها قال: حسبك، أهذه القصيدة لك؟

قلت: نعم.

قال: من سمية التي تنسب بها؟

قلت: لا أعرفها وإنما هو اسم ألقي في روعي.

فنادى. يا سمية أخرجي.

وإذا بجارية خماسية قد خرجت فوقفت، وقالت:

- ما تريد يا أبت؟

قال: أنشدي عمك قصيدتي التي مدحت بها قيس بن معد يكرب، ونسبت بك في أولها. فاندفعت تنشد القصيدة حتى أتت على آخرها دون أن تسقط منه حرفا. فلما أتمتها قال: انصرفي.

ثم قال: هل قلت شيئا غير ذلك؟

قلت: نعم كان بيني وبين ابن عم لي يقال له يزيد بن مسهر يكنَّى أبا ثابت ما يكون بين بني العم، فهجاني وهجوته فأفحمته.

قال: ماذا قلت فيه؟

قلت:

ودع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وداعا أيها الرجل

فلما أنشدته البيت الأول قال: حسبك من هريرة التي نسبت فيها.

قلت: لا أعرفها، وسبيلها التي قبلها.

فنادى يا هريرة. فإذا جارية قريبة السن من الأولى خرجت.

فقال: إنشدي عمك قصيدتي التي هجوت بها أبا ثابت بن يزيد بن مسهر. فأنشدتها من أولها إلى آخرها لم تخرم منها حرفا، فسقط في يدي وتحيرت وغشيتني رعده.

فلما رأى ما نزل بي قال: ليفرج روعك يا أبا بصير أنا هاجسك

مسحل بن أثاثه الذي ألقى على لسانك الشعر. فسكنت نفسي ورجعت إليّ وسكن المطر فدلني على الطريق، وأراني سمت مقصدي، قال:

- وهل تذكر شيطان المخبل؟ لقد كان اسمه عمرا.

قال: كفى ذكر الشياطين، فإني والله لأسمع الريح تعزف كعزيف الجن.

وسكت الرجلان هنيهة يحدقان في النار. ورفع الصاحب عينيه وتطلع إلى الأفق كأنما يحاول أن يخترق دياجير الظلام. وفجأة صاح بالرجل أن انظرْ هناك، إني أرى قبسا من ضياء، لعل جماعة أخرى قد حطت رحلها في طرف الوادي. وأجاب الرجل أو لعله الجن، سيد الوادي أو الغول، أو السِّعلاة.

وانتقل بهما الحديث إلى الجن والشياطين، وبدأ الرجل يفسر الفوارق بين أنواع الجن. فإذا ذكر الجن خالصا، فهو جن، وإذا كان مما يسكن مع الناس فهو عامر، فإن كان مما يعرض للصبيان فهو روح، وإن خبث ولؤم فهو شيطان، وإن زاد على ذلك فهو مارد، وإن زاد وقوى أمره فهو عفريت. والسِّعلاة سحرة الجن، والغول إناث الشياطين تتلون في أشكال مختلفة. والجن لا يظهر للبشر، في حين أن الغول يظهر ليلا، والسِّعلاة تظهر صباحا.

وساحرة عيني لو أن عينها رأت ما ألاقيه من الهول جنت
أبيت وسعلاة وغول بقفزة إذا الليل دارى الجن فيه أتت

وتحاكيا قصة عمرو بن يربوع الذي يزعم أنه تزوج الغول وأولدها بنين. ومكثت عنده دهرا فكانت تقول له: إذا لاح البرق من جهة كذا

فاستره عني. فإن لم تستره عني تركت ولدي عليك، وطرت إلى بلاد قومي. فكان عمرو كلما برق البرق غطى وجهها بردائه فلا تبصره. فغفل عمرو عنها ذات ليلة وقد لمع البرق، فلم يستر وجهها فطارت وقالت له وهي تطير:

أمسك بنيك عمرو إني آبق برق على أرض السعالى آلق

وحل بهما تعب الرحلة الطويلة، فأسلما نفسيهما لنعاس قلق، وهما ينصتان إلى صفير الرياح. ويتخيلانها عزيف الجن في الوادي.

وكان الرجل أول من استيقظ، وأخرج من رحله بضع تمرات يقتات بها. وألقى نظره إلى الأفق البعيد ليرى رمالا يعلوها رمال، وتلالا من رمال. وبزغت الشمس حارقة أول ما ظهرت. وتنبه صاحبه من النوم. واستقبله الرجل باسما قائلا إنه قد تأخر في نومه، وإن نومه كان قلقا. والتفت إليه صاحبه ووجهه يعلوه شحوب. لقد حلمت كأنني فلا فلاه. لا إنسى فيها ولا جان، لا ماء ولا شجر. ومع هذا حط على رأسي غراب، ومضى ينعب. وحاولت أن أطيره ولكني لم أفلح. ثلاثا سمعت نعيبه. وأخيرا أفلحت. ولكنه حام حول رأسي كأنما ينتظر. وشقت جمجمتي، وخرج منها طائر صغير، أحسبه الصدى. وطار محلقا في الهواء حتى زامل الغراب. وطار الاثنان حتى غابا عن ناظري. واستيقظت وفي قلبي انقباضه.

وحاول الرجل أن يسري عن صاحبه. فتضاحك قائلا ليتك من لهب إذا لكانت لك عيافة وزجرا، وعرفت منطق الطير: أوليتك سطحيا: إذا لعرفت تفسير الحلم، وارتحلا.

وحاول الرجل أن يسري عن صاحبه فأخذ يروي له قصة هند بنت

ابن ربيعة إذ كانت تحت الفاكه بن المغيرة، وكان له بيت ضيافة خارجا عن البيوت، تغشاه الناس من غير إذن. فخلا البيت ذات يوم اضطجع هو فيه وهند، ثم نهض لحاجة، فأقبل رجل ممن كان يغشى البيت فولجه، فلما رأى هند رجع هاربا. ونظره الفاكه فدخل على زوجته، وركلها برجله، وقال لها: من الذي خرج من عندك؟ قالت: ما رأيت أحدا قط، وما انتهيت حتى أنهيتني.

قال: فارجعي إلى بيت أبيك.

وتكلم الناس فيها فقال أبوها. يا بنية إن الناس قد أكثروا فيك الكلام فإن يكن الرجل صادقا دسست عليه من يقتله لينقطع كلام الناس، وإن يكن كاذبا حاكمته إلى بعض كبار اليمن.

فقالت: لا والله ما هو بصادق.

فقال له: يا فاكه.. إنك قد رميت ابنتي بأمر عظيم فحاكمي إلى بعض كهان اليمن.

وخرج فاكه في جماعة من بني مخزوم، وخرج الأب في جماعة من بني عبد مناف ومعهم هند، ونسوة. فلما شارفوا البلاد قالوا:

- غدًا نرد على هذا الرجل.

وتغيرت حالة هند فقال لها أبوها: إني أرى حالك قد تغير، وما هذا إلا لمكروه عندك.

فقالت: لا والله، ولكن أعرف أنكم تأتون بشرا يخطئ ويصيب، ولا آمن أن يسمني بسيما تكون على مسبه.

فقال لها: لا تخشي فسوف أختبره.

وصفر لفرسه حتى أدلي، ثم دخل في إحليله حبة حنطة وربطه. فلما أصبحوا قدموا على الرجل، وقال له عتبه: جئناك في أمر وقد خبأنا لك خبيئة نختبرك بها. قال:

- خبأتم سمرة في كمره.

قال: إني أريد أبين من هذا.

قال: حبة بر في إحليل مهر.

قال: فانظر في أمر هؤلاء النسوة.

فجعل الرجل يأتي إلى كل واحدة منهن ويضرب يده على كتفها، ويقول لها انهضي.

حتى بلغ هند فقال: - انهضي غير رسحاء ولا زانية، وستلدين ملكا اسمه معاوية.

فنهض إليها الفاكه فأخذ بيدها، فجذبتها من يده، وقالت: إليك عني، فوالله إني لأحرص أن يكون ذلك من غيرك. وتزوجها أبو سفيان

وهكذا تحققت النبوءة.

المراجع

مروج الذهب	للمسعودي
كتاب الأغاني	لأبي الفرج الأصفهاني
المنتظم في تاريخ الملوك والأمم	لأبي الجوزي
البخلاء	للجاحظ
الهفوات النادرة	محمد بن هلال الصباني
وفيات الأعيان	لابن خلكان
المحاسن والأضداد	إبراهيم بن محمد البيهقى
الأمتاع والمؤانسة	لابن حيان التوحيدي
سيرة أحمد بن طولون	للبلوي
أبو زيد الهلالي	جورجي زيدان
حكاية أبي القاسم البغدادي	لأبي المطهر الأزدي
نوادر العشاق	إبراهيم زيدان
أساطير شعبية	عبد الكريم الجهيمان
عجائب الآثار	عبد الرحمن الجبرتي
طبقات الأطباء	لابن أبي أصيبعة
الوافي بالوفيات	للصفدي
العقد الفريد	لابن عبد ربه
أخبار الحمقى والمغفلين	لابن الجوزي
القوى الخفية	لإبراهيم أسعد محمد

المحتويات